....

الوضع الفائق لجندي مفقود

الوضع الفائق

لجندي مفقود

The Superposion of a Missing Soldier

رواية

محسن حنيص شوكت

….. …

انـا اكتب عن زوج اخـتي، العقيـد **هشـام الخوصر**، المفقـود في حـرب الثمـان سنوات بين العـراق وايـران. حتى الآن لانعـرف مصيره. القصـة ليسـت غريبـة على الحـروب، لكن مـاهو غـريب ان العقيـد اصبـح تائهـا على طـول الزمـان والمكـان. حالة وجودية يصعب الامساك بها.

هناك اوراق عثرت عليها تشير الى حالة فائقة. من المحتمل ان يكـون العقيـد قد عبـر حـاجز الزمـان، ولم تقتصـر مشـاركته على الحـرب مـع ايـران، بـل تعـداها الى حـروب اخـرى خاضـها اجـدادنا العـرب في ازمنـة غـابرة. كـان زوج اخـتي نمـوذج الضابط المتخرج من الكليـة العسـكرية العراقيـة، هـذه المدرسـة التي تعلم طلابها كـل صـفحات الحـرب ماعـدا صـفحة الهزيمة. هنـا تتجسـد واحـدة من الصـفات العسـكرية للعقيـد، ومن المحتمـل ان يكـون قـد شـارك بمهمـات عـابرة للزمـان، لتحويل الهزائم الى انتصارات.

لقد اصبح غياب العقيد لغزا محيرا، ونتج عن ذلك انه احتل حياتنـا (انـا، واختي **رضية**، والمحب الابدي **حسن**). الجنـدي المفقـود يعيش بيننـا اكثر ممـا لـو كـان حاضـرا. اصـبحنا نـدور حولـه، فتـأجلت حيـاة اختي رضـية، تأجـل مسـتقبل العاشـق، وتبعتهما. اصبح همي ان ادون تموجات العقيد، لحظات صعوده ونزولـه في حياتنـا. كنت اريـد ان القي القبض عليـه متلبسـا بحالـة وجوديـة واحـدة، واضـحة المعـالم، لكي يتوقـف البحث والـدوران، لكنـه كـان يـأبى، يتـأرجح ماسـحا كـل الـوان الطيـف الوجـودي الـتي تشـغل الفـراغ بين الحيـاة والمـوت. تكدسـت الاوراق

والكلمات والرؤى والاحتمالات، فتحول كل ذلك الى كتاب يحوي كل ما وقع بيدي عن الصهر المفقود.

انها محنة طويلة ارهقتني وأكلت الكثير من سنوات عمري. لم يعد بمقدوري الانسحاب وترك اختي لوحدها تصارع هذه المحنة. (رضية) لم تكن اختا فقط، بل الوعاء التام لظاهرة الحب: 1 + 1 = 1 . كنا حبلين سريين يتغذيان من مشيمة واحدة. رضية هي توأمي التي قضت معي في بطن واحدة تسعة اشهر. خرجنا الى الدنيا في نفس اليوم، فاصبحنا نحمل نفس الميلاد، ونطفئ نفس الشموع هي من جهة وانا من الاخرى. بعد فقدان العقيد، صارت وظيفة الشموع تعداد سنوات الانتظار. على ان اعبر الكثير من الحواجز، واتعلم الكثير لكي اقترب من محنة رضية. لقد اختارت نموذجا للرجال يتباعد مع الزمن لترتبط به للابد. رجل ذهب الى الحرب بارادة فولاذية، واختفى في تجاويفها تاركا اختي نهبا لكل ماهو غامض ومعلق. لا تنام رضية الا اذا فركت اسنانها بالفرشاة والمعجون، ووضعت قطرة لعينها، ومضمضت فمها ببضعة ادعية، ومحلول ازرق لاذع من صنع ديتول، ثم تدس كفها بين خدها والوسادة، وتطلب مني ان اقطر العبارة التالية بأذنها:

(**غدا تنتهي الحرب**).

سنوات طويلة وانا اقوم بهذه المهمة كي اضمن لشقيقتي نومة هانئة. في احد الليالي شربت كثيرا. الخمرة لعبت برأسي. لم اكن قادرا على التمييز بين قطرة النوم وقطرة الصحو. وبدل ان اضع العبارة ذاتها بأذنها، انزلق لساني، ووجدت نفسي اتلو عليها تفسيرا فلكيا للحرب كنت خبأته عنها طوال تلك السنين:

(الحـرب نجمـة مضـيئة سـتنطفيء عنـدما ينتهي وقودهـا النـووي، سـوف تنفجـر وتتشظى الى سوبرنوفا supernova، ثم تعود لتؤلف ثقبا اسـودا هـو ذاكرتنا. الحرب لا تنتهي بارادة المتحاربين، بل بزوالهم).

في تلك الليلة بكت رضية طويلا ولم تنم.

★★★

المساعي الحميدة

على مدى سنوات الحرب تابعت شقيقتي كل المبادرات السلمية، وحفظت اسماء اللجان ورؤسائها. حين يجن الليل ويبدأ وقت الخمرة، التجأ الى باص الخشب العتيقة، باص ابي المركونة وراء الدار منذ سنوات طويلة. تصعد اختي رضية الي حاملة اطباقها الشهية في صينية خالدة من زمن أبي، ومعها باقة الصحف المفتوحة على صور استقبال المسؤولين العراقيين لوفود لجان الوساطة لوقف الحرب. تراقب اصابعي وهي تمتد الى الاطايب التي تصنعها بيديها الي كل يوم، تراني اتجنب الصحيفة الرسمية وصورة الرئيس وهو يستقبل (احمد سيكيتوري) رئيس لجنة المساعي الحميدة. تفتح الصحيفة وتقرأ سطورا عن حرارة اللقاء، وتفاؤل سيكوتوري بقرب التوصل الى اتفاق مع ايران، وتصريحات (الحبيب الشطي) عن تقريب وجهات النظر للوصول الى الحد الادنى، وصورة لاربعة وزراء خارجية يقفون بين يدي الوزير العراقي (طارق عزيز). لا ادري ان كانت شقيقتي تعي انها ليست المرة الاولى التي تتكرر هذه الصور والكلمات في الصحيفة الرسمية. من يمسح ذاكرة شقيقتي؟ قمت باخراج الصحف السابقة وفرشتها امام عينيها: الصحيفة الصادرة قبل ثلاثة شهور، وضعت جنبها صحيفة عمرها تسعة شهور، وثالثة قبل عام ونصف، فكانت نفس الوجوه ونفس العبارات. لم اكن افعل سوى

سد جفني وعب المزيد من الخمرة، وانا ارى عمر شقيقتي وشبابها يتبدد في التعلق بخيوط عنكبوتية.

اضافت رضية الى برنامجها عادة جديدة، صارت تدخن بافراط. اصبح العقيد سيجارة يومية تبتلع دخانه وجمرته ايضا، تبغ ايامها الضائعة. قلت لها بعد ان رأيتها تلتهم اربعين سيجارة يوميا: العقيد يسبب السرطان انصحك بالامتناع عنه. كان رفضها عذبا وخاليا من الغيظ، شيء يشبه انين الخشب، ثم سرعان ماتنسى. تصعد رضية الى الباص بعد نشرة الاخبار الاخيرة لتعيد الي ما سمعته. كانت تتابع كل ما يقال، وتعول كثيرا على (قلق الصين) من استمرار الحرب العراقية الايرانية، وتعتقد ان حجم هذا القلق يساوي مليار ونصف، حيث اخذت في الاعتبار نفوس الصين. قلت لها: الامر ليس كذلك ياحبيبتي، لكي تفهمي القلق الصيني لابد ان تشربي الخمرة اولا. لابد ان تأخذي من دينك المتشدد اجازة ليوم واحد او لتر واحد على وجه الدقة. كنت اشرب طبعا، وكانت اختي قد وضعت توا طبقا من الليمون المتبل. يا الهي، قبلت اصابع رضية، ثم رفعت امامها زجاجة الخمرة المحلية (العرق) المصنوعة من التمر. قلت لها هذا هو مشروبنا الوطني، انه عصارة نخلتنا، تحلله الدولة، ويحرمه رجال الدين، هذا المشروب هو نفسه منذ آلاف السنين، بل وقبل دخول الاسلام بلاد الرافدين. اجدادنا السومريون يحضرونه من التمر ويشربونه، لم يكن الكاهن السومري ولا ولا الآله يحرمه. انتبهت اختي الى لساني، لقد انزلق وسار بعيدا، استوقفتني قائلة: انك تخرج عن الموضوع. كانت تنتظر مني ان اوضح لها دواعي (القلق الصيني) من استمرار الحرب العراقية الايرانية. قلت لها: اعذريني، لقد ابتعدت قليلا، لكني في الحقيقة لم اخرج عن الموضوع. لقد وجدت فرصة لاعبر عن امتناني لهذه الزجاجة وتقديري لمن

يشربها، فهم يعرفون جميعا حقيقة (القلق الصيني) من استمرار الحرب الطاحنة بين ايران والعراق. قبلت الزجاجة من عنقها، وواصلت ارشاد اختي الى كيفية التحقق من ماهية (القلق الصيني). قلت لها اذا شربت نصف لتر من هذه الزجاجة، ثم لمست باصبعك جلد السفير الصيني، فسوف تعرفين حجم البرود الدبلوماسي. سوف ترين ان السفير الصيني يجدد (قلق) بلاده كل ثلاثة اشهر، وهو موعد شحن مدافع 57 ملم العتيقة المكدسة في ارصفة ميناء شنغهاي مع ذخيرتها الى البلدين المتحاربين.

كنت أراهن على الزمن وعلى ماتبقى لي من صبر في تخفيف حزني. احاول اخفاء بعض الحقائق عنها. لكني كل مرة كنت افشل، وتتغلب الخمرة على لساني. ووجدت نفسي ابوح لها برسالة بعثها عاشقها الابدي(**حسن بلاسم**) من منفاه يطلعني على حقيقة ماكان يلقاه الوسطاء على ايدي السلطات الايرانية. كانت الاخبار تصل اليه عبر اصدقائه من داخل ايران، الذين ارتبط بهم برباط وثيق اثناء عبوره، واقامته في طهران قبل ان يستقر في بلد اللجوء هولندا. مسح حسن بلاسم سلسلة من المبادرات. ومع كل مبادرة سلمية فاشلة كنت ارى دمعة تتلألأ، ثم تتوقف في طرف جفنها. تتحطم موجات الامل على شاطيء الجمل الصخرية التي تضمنتها رسالة حسن بلاسم . تتحول عيني رضية الى كأس تختلط فيه الخمرة البيضاء بسواد القهوة المرة. احاول دون جدوى ان اكون حياديا. رحت اقرأ لها رسالة حسن بلاسم التي بعث بها من منفاه في هولندا:

رفض الامام الخميني (المرشد الاعلى) اكثر من عشرين مبادرة للسلام حتى الآن: رفض مبادرة المؤتمر الاسلامي (لجنة المساعي الحميدة) في جدة – السعودية، و لجنة النوايا الحسنة لدول عدم الانحياز، ونداء كورت فالدهايم، وثلاث قرارات لمجلس الامن، ورفض استقبال ضياء الحق. وجلس على سجادة الصلاة اربعة وزراء خارجية يمثلون غينيا والهند والباكستان ومنظمة فتح، وامسكوا بذيل

عباءتـه، بانتظـار ان ينهي (دعـاء الجوشـن) ليسـمعوا رده. بعـد سـاعة من الخشـوع والخلوة التفت اليهم ليبلغهم ان الحرب ستستمر حتى آخر ايراني.

امـا رئيس زامبيـا فقـد اخـذوه الى معمـل سـجاد يـدوي في مدينـة كاشـان وتركـوه هناك يتابع فتيات فارس وهن يظهرن قدرتهن على حياكة الصبر وهدر الوقت.

ولم يجـدوا طيـارة تعيـد (ايسـيدورو ماليميركا) وزيـر خارجيـة كوبـا الى بلاده، فـأبقوه ثلاثـة ايـام يقطـف تويجـات الزعفـران، ثم طرحـوا عليـه تجـريب زراعتـه في الجزيرة الكاريبية، فهو يوفر دخلا اكبر، ولايسبب السرطان مثل سيجار هافانا.

وبالنسـبة للثنـائي (اولـف بالمه) و (برونـو كرايسـكي)، فقـد تكـررت زيارتهمـا للمرشــد الاعلى خمس مــرات، ثم انهيــا الوســاطة ناصــحين العراقــيين ان يغســلوا ايديهم.

امـا الحـبيب الشـطي (ممثـل المـؤتمر الاسـلامي في جـدة) فقـد وضـعت القيـادة الايرانية امامه شروطا غير دبلوماسية بالمرة لوقف الحرب، ولم يكشفها الا حين تقاعد وكتب مذكراته. ويبـدو ان الشـطي وقـع في مـأزق طـائفي صـرف. كـانت شروط القيادة الايرانية للتفاوض شيعية اكثر منها سياسية، فقد اجبر على التوقيع على قائمــة ب (الملعـونين) في التـاريخ او (النواصب) على حـد تعبـير الطـرف الايراني، وهم الفئة التي(ناصبت) العداء للعلوين اي ذرية علي بن ابي طالب من زوجته فاطمة (بنت النبي) رغم ان هـذا الامر يعود الى 14 قرنـا الى الوراء، الا انـه كـان اول شـروط التفـاوض الـتي امليت على الحـبيب الشـطي ممثـل المـؤتمر الاسلامي (مقره جدة– السعودية). اصبح الحبيب الشطي مثل مكوك الحائك بين بغداد وطهران. وقدمت لـه شـروط اللعنـة على دفعات، وقبل اي تفـاوض حـول الارض او الميـاه او الانسـحاب. في الجولـة الاولى كـان المطلـوب شـتم الخلفـاء الراشـدين (مـا عـدا الخليفـة الرابع طبعـا).كـان الدبلومـاسـي التونسـي يعـول على براعته في اخفاء المعلومات عن الطرف الثاني (العـراق ودول الخليج) او الطـرف السني على وجه التحديد، وقدرته (اي الشطي) على امتصاص الغلو الايراني. في الجولـة الثانيـة كـان عليـه ان يشـتم عائشـة زوجـة الرسـول محمـد ومعهـا ثلاثـة اربـاع

الصحابة، وفي الثالثة ان يوقع على وثيقة (يوم الغدير) وهو المكان الذي سمى فيه الرسول صهره علي خليفة له. في الجولة الرابعة كان على مبعوث المؤتمر الاسلامي ان يقر بان المهدي– الامام الثاني عشر بالنسبة للشيعة– مازال حيا رغم مرور الف سنة على غيابه، وانه سيظهر ليملأ الارض قسطا وعدلا. وفي الجولة الخامسة والسادسة طلب الايرانيون منه التوقيع على تدويل الحرم المكي، ورد مقاطعة (فدك) الى ذرية فاطمة، وتحرير سندات ملكية عقارية (طابو) بها. بعد هذه الجولات انتهى الحبيب الشطي الى ان القيادة الايرانية لاتريد السلام، بل شطب المذهب السني.

ونزل الرئيس احمد سيكوتوري في مطار طهران، فوجد بين مستقبليه السيد (علي ناطق سماعي) مدير مركز الصم والبكم، الذي صافح مبعوث السلام، ووجه له دعوة خطية لزيارة المركز. هناك ملاحظة جديرة بالاشارة تتعلق بالسيد سماعي: هذا الرجل متطابق مع منصبه كمدير لمركز الصم والبكم، فهو لايسمع ولايتكلم. المؤسف في الأمر ان الرئيس الغيني سيكوتوري بقي يتحدث عن ضرورة ايقاف الحرب دون ان يعرف ان المسؤول الأيراني لايسمع ولا يتكلم.

اما زعيم جيبوتي فقد وضعوا بيده مقص ليقطع شريط افتتاح معسكر للأسرى.

وفي يوم عاشوراء، اي العاشر من شهر محرم من السنة القمرية، ضاع صوت (أنديرا غاندي) في طهران وسط اصوات اللطم على الصدور وسقوط سلاسل الحديد على الظهور المصاحبة لذكرى مقتل الامام الحسين قبل اربعة عشر قرنا.

ومن السعودية انطلقت لجنة (اصلاح ذات البين) الى ايران، لكن السلطات هناك عاملتهم كزوار للعتبات المقدسة، فطافت بهم مشهد وقم.

وانتهت الوساطة الجزائرية بكارثة، فقد سقطت الطائرة التي تقل الوفد داخل الاراضي الايرانية في ظروف غامضة، وقتل وزير الخارجية محمد الصديق بن يحيى و معه 13 جزائريا آخرين.

قدمت ايران مبادرة واحدة وقبلتها لوحدها. حدث ذلك في موسكو عبر سفيرها (محمد القرين)، تتلخص المبادرة بشنق الرئيس العراقي، وايداع محافظة البصرة في مصرف الرهون لحين تسديد نصف تريليون دولار كتعويضات.
في تلك الليلة بكت رضية طويلا وتضاعف أرقها. رفضت ان تبتلع حبة النوم، ولم تضع قطرة لعينيها ولا اذنها. بقيت تنظر الي بعينين مفتوحتين، فيهما تساؤلات جمة. اقتربت منها، كان رأسي معبأ، فرميته في حجرها، امسكت بي بحنو بالغ، شعرت بدقات قلبها وهي تسري في راحة كفها، ثم انحنت بعينيها لتقطر في اذني نظرتها الى المساعي الحميدة لوقف الحرب، نظرتها الى الفُرس (العجم)، وعقلية السجاد الايراني:
ارجوك لا تقسو علي بتقاريرك المفرطة في التشاؤم. لماذا تقطع علي طريق الامل؟ النجاح في الوساطات لا يأتي من مرة ولا مرتين، حتى القبيلة المتضررة تتعنت، وترد الوسطاء بنفس الطريقة، فما بالك بدولة تم احتلال اراضيها. مايفعله الايرانيون هو لاسترداد الكرامة وليس رفضا للسلام.
بللت رضية عيني بنظرة بيضاء صافية، وواصلت حديثها عن الفُرس، وعقلية صناعة السجاد الايراني، والهدر الفاحش للوقت، هل تعلم بان الفُرس يحوكون سجادة باربعين عاما؟ الفرس يقدسون الصبر وطولة البال، و (يذبحون البعير بالقطن)، وتحدثت عن (شيماء) زميلة لها في الجامعة، من ام فارسية وأب عراقي. تزوجت شيماء مثل امها على الطريقة الايرانية، أي الطريقة الشيعية: حسب مذهب الأئمة الاثني عشر، وهو مذهب اسلامي، يتلخص بوجود اثني عشر اماما من نسل فاطمة وعلي يأتون بعد النبي محمد ويخلفونه في الحكم. وقد حضرت اختي رضية عقد القران في كربلاء (المدينة المقدسة في العراق). سأل كاتب العقد المأذون من قبل المرجعية الدينية شيماء من وراء حجاب:
(هل قبلت الزواج من ياسر ابن سليمة على المهر...الخ).

فلم ترد، لا بنعم ، ولا بلا ، فاعاد المأذون الكليشة وكانت طويلة ومملة الى حد ما، ولكن شيماء لم تجب، وكانت رضية جالسة بجانبها. اعيدت الكليشة على شيماء خمسة مرات دون ان ترد بنعم او لا.

رضية: ((في المرة السادسة همست باذنها: شيماء، قولي نعم، دعينا ننتهي، الا تخافين ان يصدق ياسر انك مترددة؟. وفي المرة العاشرة قلت لها : كافي شيماء، الناس سوف يرجعون لبيوتهم، فقالت: اسكتي، لم يبق الا القليل. وفعلا، ما ان قرأ المأذون الكليشة للمرة الثانية عشر وختمها: هل قبلت؟ حتى اجابت شيماء: **نعم قبلت**.

انا واثقة ان مايجري مع الامام الخميني يشبه عقد زواج شيماء. سوف يقول عاجلا ام آجلا (نعم قبلت). الامام يتمنع، لكنه سعيد ايضا مثل اية فتاة مخطوبة))

قلت لها، اتمنى ذلك يا عزيزتي، رغم اني اعتقد ان حربنا بحاجة لوسطاء من نوع خاص، بعيدون جدا عن السياسة.

سألتني: من هؤلاء؟

قلت لها: لا اريد ان اسبق الاحداث، ولا اكشف لك شيئا غير مؤكدا حتى الآن، فهناك في الخارج شخص يتحرك بخطوات غير مألوفة لايقاف الحرب، ولا شك انك تعرفينه فقد كان واحدا من الذين قتلتهم بيدك، الذين رفضت الاقتران بهم. انه واحد من ضحاياك. هذا المسكين الوفي مازال يكتب لي، يراسلني، يطلب يدك للمرة الألف. فضربت العبارة (الذين قتلتهم بيدك) على وتر منعش في صدر رضية وشعت عيناها، وتمثلت بقول احد الشعراء العرب:

(ايهم؟.. فهم كثر)

قلت لها: **حسن بلاسم**، هل هناك غيره، اول العشاق وآخرهم. حسن مازال متعلقا بك يا رضية، يراسلني دوريا، وقد عرض علي استعداده لتهريبك وتعيشي معه في هولندا.

ترتد رضية الى الوراء، تنظر الي بعينين غائمتين:

ماذا تقول؟! هل تنسى انني متزوجة من رجل، ولي منه ثلاثة اطفال؟

قلت: لم انس، ولا حسن نسي ايضا، فهو مستعد ان يعيش معكم ويكون ابا للاطفال، وهو يبني على قرار الرئيس عن مدة انتظار الجندي المفقود، اي السنوات الاربع، التي يحق بعدها للزوجة طلب الطلاق. اخبرني حسن انه مستعد من الآن ان ينتظر اكثر من ذلك اذا لزم الامر.

لقد هاجر حسن مرغما. كانت اختي رضية هي آخر قشة تشبث بها قبل الغرق. مع ضيق الطوق، وتزايد المخبرون، قرر حسن بلاسم الهروب خارج البلاد. وقبل ان يفلت بجلده فقد استنزف الكثير من ايامه تحت المطاردة، باحثا عن ملاذ يمنع عنه مشنقة السيد الشيخلي (وزير الداخلية). فتحنا له باص الخشب. جاء ليقول كلمته الاخيرة. في ساعة من ساعات السكر الفائق، حيث يتوقف المصير كله على كلمة واحدة. تناول ضفيرة رضية السوداء الملتوية مثل ثعبان وطوق بها عنقه، ثم سلم طرفها بيدها. قال وهو يتعرق عشقا: (كلمة واحدة منك تقرر مصيري، شدي كما تشائين. سوف اقبل بضفيرتك مشنقة لموت عذب، او نرحل سوية يا رضية، واعدك انني احبك حتى الممات، وسأنتظر حتى تقبلين بي، هناك من يقدر ان يخرجنا من هذا البلد). سحبت ضفيرتها الملتفة من عنقه، قالت ان زوجها مازال حيا، ولن تتزوج غيره، الا بعد ان تلمس موته بيدها.

حين سمع منها هذا الكلام شرب في تلك الليلة حتى اخضرت عيناه وامتلأت عبقا ورديا، ولا ندري كيف اختفى، فقد بقينا نفتش في المقعد الجالس عليه فلا نرى سوى بطانية عسكرية خالية الا من دفء كلماته الاخيرة. كنا نظنه خرج ليقضي حاجته ثم يعود. عرفنا لاحقا انه وصل الى طهران، ثم انتقل الى لبنان، وظل يتردد بينهما حتى وجد منفذا الى دول اللجوء. استقر به المقام في هولندا، اكمل دراسته الجامعية هناك، وحصل على الماجستير في التاريخ الاسلامي من جامعة لايدن .

اعدت على مسامع اختي هذه الليلة المؤلمة، قلت لها حسن مازال متشبثا بك، رغم توالي السنين، يريد ان يسمع منك كلمة واحدة تمنحه القوة على الصبر و احتمال الغربة.

قالت رضية: ارجوك اقفل هذا الموضوع، زوجي مازال حيا، انا واثقة من ذلك، وهو اسير حرب، وبسبب رتبته ومنصبه وانواط الشجاعة اخفى الايرانيون ذكره، ليكون ضمن اوراق التفاوض في المستقبل. لقد اخبروني بذلك في وزارة الدفاع، وهم يرسلون لي اشارات دورية. ولكن ها انك تبتعد عن اصل الموضوع، فقد كنت على وشك ان تبشرني بوساطة من نوع خاص. هل يمكن ان تطلعني عما فعل حسن بلاسم في المهجر؟

مضت مدة طويلة على آخر رسالة تصلني من هولندا، البلد الذي لجأ اليه حسن بلاسم، عاشق اختي رضية وخطيبها المؤجل. في رسالته كتب انه يجري اتصالات مع شخصيات هامة في هولندا، لاقناعهم بدور الوسيط لانهاء الحرب بين العراق وايران. في رسالته ترد اسماء من خارج عالم السياسة وهم : فريدي هاينكن Freddy Heineken، اليدا بوسهارت Alida Bosshardt، يوهان كرويف Johan Cruyff، آني شميدت Annie Schmidt، اندريه فان داون André van Duin، اندريه ريو André Rieu. هاري مولش Harry Mulisch. حسن لم يحقق شيئا على الارض حتى الآن، لكنه يعدني انه سيكثف جهودة للوصول الى هذه الاسماء، وحالما يحقق نجاحا فسوف يوافيني بالاخبار.



فريدي هاينكن

قبل ان يدخل يومي في صومعة الخشب العتيقة ناديت على رضية ان تعجل في اطباقها، فقد وصلتني خمرة طازجة من هولندا. لقد فهمت رضية المعنى المجازي للعبارة: هناك رسالة من هولندا، تتعلق بمساع جديدة للسلام. اخبار تخص تحركات حسن هناك، اتصالاته المكثفة بشخصيات معروفة هناك، اخبار تخص وسطاء جدد، من نوع خاص، لايقاف الحرب. هرعت رضية الى مطبخها. لم يمض وقت طويل حتى عادت وهي تحمل اطباقها. صعدت الى برجي الخشبي ، باص ابي المركونة منذ زمن طويل وراء الدار. وضعت صينيتها على الطاولة وجلست قبالتي. رحت اتأمل بانوراما الاطباق الشهية، والى جانبها أذنان مفتوحتان الى اقصى حد. قبل ان امد يدي لافتح زجاجة الخمرة، مدت رضية اذنيها في اشارة واضحة قائلة : قل ماعندك قبل ان تسكر وتقول كل شيء بالمقلوب. يشبه وجه رضية محطة قطار مهجور. كل مافي وجه اختي رضية يشير الى الأنتظار. قلت لها لا تخافي، هذه المرة انا مصمم على ان اجعلك تنامين ملء جفونك.

هاينكن، ملك البيرة في العالم، في طريقه الى بغداد. انه عازم على ايقاف الحرب. سوف يمكث عندنا يومين ثم ينتقل الى طهران. سوف افعل مافي وسعي لكي اصل الى كفه، واطبع قبلة عليها، الكف التي صنعت اطيب زجاجة بيرة في العالم. غير ان اعظم من تلك الزيارة هو من يقف وراءها، وهو ابن مدينتنا (القاسمية)، صديق العمر، وعاشقك الابدي حسن بلاسم، الذي بذل جهدا رائعا لاقناع فريدي هاينكن **Freddy Heineken**. وقد كتب الي من منفاه في هولندا ليبلغني هذا الخبر. وبعد ان اثنى على اياد شريفة داخل هولندا وخارجها امتدت له ، اخذت بيده لتوصله الى غرضه. تحدث حسن عن لقائه مع ملك البيرة. لقد كان اللقاء اشبه بالمصادفة. لم يكن ملك البيرة على علم بغرض الزيارة، حتى انه اعتقد ان حسن بلاسم هو احد الشرقيين الباحثين عن الشهرة، او انه احد الذين يعبدون زجاجته الخضراء، الحالمين بمصافحته والتقاط صورة معه، او طالبا

دعما ماديا لمشروعه الخاص. كان فريدي هاينكن مازال واقعا تحت وطأة حادثة الخطف التي تعرض لها. مازالت تلك الجدران التي خطط لها (وليام هوليدر W.Holleeder) ونفذها في معمل النجارة في (ويستبورت) وهي ضاحية في امستردام، وحبسه فيها لثلاثة اسابيع، ولم يطلق سراحه الا بعد دفع خمسة وثلاثين مليون فلورين. ومن الواضح ان الاوجاع والايام التي قضاها هناك قد اضافت الى بيرته المزيد من الحس الانساني، ولم يعد يهتم بارقام العوائد الضخمة التي كان يحققها وكلاؤه في القارات الخمس. وبعد ان قدم حسن نفسه، هنأ السيد هاينكن بالسلامة من حادثة الخطف، ودعاه الى النظر الى الجانب المشرق: المآزق تضيف بعدا جماليا للحياة. انتهز حسن الفرصة ليكشف عن حلم يراوده منذ ان وضع قدمه في هولندا: الحلم هو رؤية الاسطورتين: فريدي هاينكن، ويوهان كرويف. ولقد ارتبط هذا الحلم لاحقا بنشاط اوسع من اجل اقناع الشخصيات الهامة في هولندا لزيارة البلدين المتحاربين ايران والعراق، وللضغط على الحكومتين (العراقية والايرانية) لوقف الحرب. وضع في باله عددا من الاسماء المتألقة في هولندا. من هنا دخل حسن بلاسم الى غرضه من الزيارة.

في رسالته، رسم حسن لوحة سامية لمحتويات الزجاجة الخضراء. قد تكون الانعكاس الواقعي لروح فريدي هاينكن، لوحة لعظمة الانسان الفرد حين يتمدد مثل العشب الأخضر. قال حسن، اننا لو وضعنا قطرة واحدة من تلك الزجاجة الخضراء تحت المجهر، فسوف نعثر على عدد كبير من اسماء البشر: فعدا العاملين في الشركة البالغ عددهم (70) الف، فهناك مؤسسات اجتماعية وثقافية ورياضية ومشردين ومرضى الكبد والقلب والسرطان، وحيوانات مهددة بالانقراض، والذين يعانون الجوع والعطش في افريقيا. في تلك اللوحة الممتدة على طول خارطة العالم كان هناك مكان اسود ينفث دخان اسود وروائح كريهة ومذاق مر. في اللقاء التاريخي مع السيد هاينكن وضع حسن اصبعه على تلك الرقعة الجغرافية المشتعلة في الشرق الاوسط. هناك حريق يأكل الاخضر واليابس. هناك شعبان جاران يطحنان بعضهما منذ سنوات. الحرب الطاحنة هناك

تعدت الخسائر الهائلة بالارواح والممتلكات. لقد وصلت الحرب الى البيرة. حرب المدن بين البلدين دخلت في مرحلة خطيرة. اصبح معمل البيرة العراقية هدفا للصواريخ الايرانية. المعمل هو امتياز من هاينكن، ويقع في منطقة الزعفرانية جنوب بغداد، حيث تعرض للقصف، وبدأت زجاجات (فريدة) و(شهرزاد) تتطاير في الهواء ثم تختفي تدريجيا من حانات بغداد. هاتان الزجاجتان هما نتاج زواج شرعي بين امستردام وبغداد، تحملان في داخلهما نكهة البيرة الهولندية وطعمها ولونها الذهبي.

ابدى ملك البيرة اسفه واستعداده لارسال فريق فني الى العراق لاصلاح المعمل واعادة تشغيله بالكامل، فشكرته وقلت له: (انني اطمح لشيء اكبر من ذلك ايها الملك. حبذا لو دخلتم بكل ثقلكم لوقف الحرب).

تركت الرجل يمتص العبارة ويحلق بها بعيدا. وشعرت بجفاف حارق من تلك المباغتة، واقتراب مهمتي من الحسم. فنظرت اليه بفم متيبس، وعينين متوسلتين، وبضعة حبات من العرق في الجبين، فوجدته ينظر الى موضع في الجدار حيث تنتصب خارطة كبيرة للعالم، شكت فيها دبابيس خضراء، بلون زجاجة هاينكن، تشير الى معامل الشركة في القارات الخمس، ثم ترك مقعده واقترب من الخارطة وراح باصبعه يبحث عن البلدين المتصارعين. وبقي لدقائق يفكر في شيء لا أراه، ثم التفت الي وطلب مني مهلة يومين ليفكر في الامر. خرجت من اللقاء وانا ممتلىء زهوا و أملا، فقد كنت اعرف ان الهولندي حين يقول (سأفكر في الموضوع) فيعني انه موافق بنسبة خمسة وتسعين بالمئة، ولكنه بحاجة الى يومين لجعل النسبة مئة بالمئة. مر اليومان علي بشق الانفس، فقد كنت متلهفا لسماع الكلمة المدوية التي سيبثها ملك البيرة في اذني. ذهبت للموعد وانا احمل ذلك الهاجس. استقبلني الرجل بابتسامة عذبة. وسعدت بجملته الاولى: قال ان لديه اخبار سارة:

بعدها تحدث عن زحمة العمل، فهو بالكاد استطاع ان يجد الوقت لمتابعة التقارير الاعلامية الخاصة بالحرب الدائرة بين العراق وايران. واشار السيد هاينكن الى ان

تلك التقارير تؤكد رغبة العراق في وقف تلك الحرب، مقابل رفض ايراني متواصل. وكان عليه ان يفكر كثيرا في تحديد من يملك الكلمة الاخيرة في هذه الحرب. ثم رأيته يترك مكتبه ويجلس قبالتي ويستل زجاجة بيرة من ثلاجة صغيرة الى جواره ويملأ كأسين. ابتسم بتواضع، وقذف عبارة لها مفعول مسكر. قال فريدي هاينكن وهو يرفع كأسه في وجهي:

اتمنى ان تكون البيرة هي صاحبة الكلمة الاخيرة في نزاعات هذا العالم.

العبارة انعشتني ودوختني في نفس الوقت، اخترقت جمجمتي واستقرت هناك. رفعت كأسي، فالتقى الكأسان فوق وجوهنا. صعدت البيرة الذهبية الى افواهنا، رأيت وجه هاينكن العظيم مخلوطا بتلك الرغوة المتصاعدة الى طرف الكأس، وبانت عيناه الخضراوان من وراء الزجاج. حين لامست البيرة لساني، وجدت طعما غريبا اقرب الى الماء الضحل. ولاحظت انه يراقب تقلبات وجهي وانا اتجرع هذه البيرة التي يصعب علي تركها او قذفها من فمي او تقيؤها. نظرت الى زجاجة البيرة، انها تحمل اسم هاينكن ونجمته ولونه الاخضر. ماذا يحدث؟ هل هناك مفاجأة تنتظرني؟ وضع هاينكن الكأس على الطاولة، لم يشرب منها الا القليل، ثم عاد الى الزجاجة، امسك بها، وقربها مني. قال ان مستشاريه يلحون عليه منذ زمن طويل لانتاج (**بيرة اسلامية**)، (بيرة حلال) ليست محرمة دينيا، اي بيرة بدرجة الصفر (بلا كحول) للدخول بها الى العالم الاسلامي، وانهم قدموا له مشروعا لانتاج خمسين مليون لتر سنويا، ورشحوا بلدين اسلاميين هما اندونيسيا وماليزيا لاقامة المشروع. والحقيقة ان هناك بلدا آخر يجرني بقوة اليه. وسحبني هاينكن من يدي واخذني الى خارطة العالم المعلقة في الجدار، بحث فيها عن دبوس شاغر. كانت هناك دبابيس بالوان مختلفة. استل هاينكن دبوسا بلون اخضر ووضعه في قلب خارطة ايران. ثم قال:

(بلغ اهلك انني قادم لايقاف الحرب).

لم اتمالك نفسي، فبكيت، ونزلت على كفه وقبلتها، ثم وجدت نفسي اتسلق مقامه العالي واطبع قبلة على جبينه. سألني: كيف وجدت البيرة الاسلامية، كيف

وجدت طعم الصفر، هل اعجبتك؟ قلت ان فرحتي ايها السيد النبيل عطلت اربعة من حواسي، لم يبق لي سوى حاسة السمع، فلم اشعر ان كنت قد شربت شيئا. هل لك ان تسقيني منها مرة اخرى. فصب كأسا جديدا من تلك البيرة التجريبية (الاسلامية) او البيرة (الحلال)، كما سماها، وقرعنا من جديد. لقد تملكني هذا الرجل بسمو روحه، فلم اعد قادرا على الكذب، فوقف ينتظر رأيي.

قلت له: (بصراحة، ان لها طعم بول البعير)

فانفجر فريدي هاينكن بقهقهة حتى دمعت عيناه وعانقني بحرارة قائلا:

(كل المستشارين ومدراء الاقسام اثنوا عليها. انت الوحيد الذي يشاركني رأيي. ان غياب الكحول عن البيرة يقربها من البول. ولو قلت انت غير ذلك لما صدقتك).

ووجدته سعيدا للغاية،منتعشا، يضحك كلما استعاد تلك العبارة التي قلتها بحق البيرة الاسلامية. لقد دام لقاؤنا ساعة وعشر دقائق، وهو زمن طويل على رجل يدير امبراطورية في خمس قارات. وشعرت انه لايريد انهاء اللقاء لكن المواعيد الاخرى تجبره. فختم قائلا: سأكون بعد اسبوع في بغداد . وقبل ان نفترق سألني: (قلت لي ان لك صديقا حميما في بغداد ينتظر لقائي. كيف ساعرف سأعرفه، لأنقل تحيتك؟)

فقلت: (سيدي هاينكن العظيم، نحن ممتنون جدا، سوف يصلكم صديقي بنفسه ليقبل كفكم) .

وصل هاينكن بغداد يرافقه فريق من الخبراء، واستقبله وزير الصناعة، وزيرالسياحة، ومدير الخطوط الجوية العراقيية. وبعد ان تفقد معمل البيرة جنوب بغداد، اخذ جولة نهرية في دجلة، ومن هناك صعد الى (ابو نؤاس) الشارع المحاذي للنهر ، ويحوي معظم حانات بغداد، واكواخ السمك المشوي على الطريقة البغدادية، اضافة الى المطاعم التي تقدم البيرة مع الأكل. زار بعض الحانات على عجل، وتذوق طعم البيرة العراقية فوجدها فرعا جيدا من الاصل الهولندي. مر على

فنادق الميريديان والشيراتون وبابل اوبروي، وختم جولته في مقر اتحاد الادباء، فوضعت على طاولته زجاجة من المشروب الوطني المعروف بشدته الكحولية. التف من حوله وجوه عراقية من ادباء وفنانين وموظفين في السياحة. لم يسأله احد عن المهمة التي قدم من اجلها، بل كان الجميع متلهفا لسماع رأيه في المشروب الوطني العراقي المسمى (عرق). حاول هاينكن التملص من الاجابة قائلا: (انا اتفق مع اله الخمر اليوناني باخوس عندما يحدد ثلاثة ابعاد للخمرة: البعد الاول: الحواس، العين والانف واللسان، اي اننا نشرب الخمرة بالنظر والشم والتذوق. البعد الثاني هو التخلص من الواقع، اي فقدان الوعي، وهذا البعد يرتبط مباشرة بنسبة الكحول. اما البعد الثالث فهو الزمن، اي فترة التعتيق، فكلما طال تغلغل الزمن في الخمرة كلما ازدادت عمقا وحلاوة). واجه السيد هاينكن رغبة ملحة من الجميع في معرفة رأيه بالخمرة العراقية، سألوه ان يفسر العلاقة بين الآله باخوس ومشروب العراق. اجاب السيد هاينكن: (لدي فكرة اولية عن معظم المشروبات الكحولية المنتجة في الشرق الاوسط، انها متشابهة الى حد بعيد. مشروبكم ليس استثناءا. انه ذو بعد واحد فقط هو شدة الكحول او التعجيل بفقدان الوعي. لقد اهملتم اللون والطعم والرائحة. واكتفيتم بالسكر. وبالمناسبة لستم وحدكم من يشرب ليسكر، الترك والروس مثلكم. احيانا اشعر ان الفودكا الروسية او الراكي التركي هي مشروبات عسكرية، الغرض منها زيادة استعداد الجنود للموت او تقبل الحرب. ضحك فريدي هاينكن من كل قلبه، ورفع كأسه، فوجد كؤوسا ترتفع ضاحكة ومنتعشة لوجوده المتألق. اما انا فقد كنت اسعد عراقي في تلك الامسية ، ذلك ان كل مايجري كان من صنع صديقي المغترب في هولندا حسن بلاسم. كنت اتمنى لو اصرخ باسمه وسط مقر اتحاد الادباء العراقيين. تقدمت نحو ضيف العراق الكبير ورسول السلام فريدي هاينكن. وجدتها فرصة لايفاء النذر، فتقدمت اليه، وتناولت كفه، وطبعت قبلة عليها. واحسب انه فهمها و ادرك ان التحية التي بعثها حسن بلاسم قد وصلت.

بعد يومين قضاها في بغداد، سافر هاينكن الى طهران. التقى بالمرشد الاعلى الامام الخميني، وطرح عليه مشروع (**البيرة مقابل السلام**): يا سيدي، اذا قبلت ايقاف الحرب، فاني كفيل بان اجعل عوائد ايران من البيرة اكثر من النفط. سوف اجعل من بلدكم المصدر الاول في العالم للبيرة الاسلامية، سوف اصنع لك بيرة وفق الشريعة الاسلامية، بيرة حلال مئة بالمئة، وتصلح لكل الاعمار، وحتى للحوامل. سوف احسبها لكم سيدي: هناك مليار مسلم في العالم، ولو شرب كل واحد منهم خمسين لترا في السنة، فسيكون لديك خمسين مليار لتر سنويا، ولو بيع اللتر بدولار واحد فستكون العوائد خمسين مليار دولار سنويا، اي ضعف ايرادات النفط. وبقرار منكم (فتوى) يمكنكم اضافة نسبة قليلة من الكحول وتوسيع الامبراطورية لتضم الاديان الاخرى، بامكان المزاوجة بين الحكمة وقانون الرب ليكون الاسلام مظلة للجميع، وسوف تتزاوج البيرة مع جمهورية الفستق لتعيد الى بلاد فارس عصرها الذهبي. لا اخفيك سيدي المرشد الاعلى انني جئت وسيطا، لكني منحاز لكم، ذلك انكم امة من خمر وموسيقى وتصوف. **اتركوا لهذا التيس قرونه**، فسوف تتكسر على جدار رعونته: اتركوا له السيوف والرماح والمدافع، والكيمياوي المزدوج، و صناعة الاعداء، واسلحة الدمار الشامل، فهناك من سيبحث عنها ويدمرها على رأسه. لكن الامام الخميني كان له رأي آخر ، خرج من تهدل حواجبه، وتيبس لسانه، ومرارة الهزائم العسكرية:

لن تخدرني بجعتك، ولاكلامك الفستقي ايها الهولندي النبيل. لقد بال تيس بغداد على عباءتي، ولن انام الا بعد جره من قرنيه الى المسلخ.

فقال هاينكن: هل تغريكم، سيدي، هذه التشبيهات الحيوانية ؟ الا تفكر باهماله، وتركه يغيب لوحده، على الاقل من اجل شعبك؟ في الطريق الى هذا التيس هناك مليون ضحية عليك المرور بها قبل ان تمسك بقرنيه .

★★★

جو هافالانج

بعد فشل وساطة هاينكن، تحرك حسن بلاسم نحو اللاعب النجم الكروي يوهان كرويف(**Johan Cruijff**). وجد الهولندي الطائراكثر تواضعا مما يجب، فقد رحب بالفكرة، لكنه وجدها اكبر منه. توقف حسن عند العبارة التي لخصت موقفه، فقد رفع النجم الكروي كلتا يديه وابتسم واصفا قدرته السياسية بالقول:

(انا اعرف المراوغة بالكرة، ولكني اجهل المراوغة بالكلمات).

ومع ذلك لم يترك كرويف اللاجيء السياسي العراقي يعود خالي الوفاض، فقد وعده ان يبذل قصارى جهده لايصاله الى جو هافالانج (**Joao Havelange**) رئيس الاتحاد الدولي لكرة القدم، الفيفا(FIFA). وقد صدق كرويف في وعده. وكان صريحا، فلم يخف عني رأيه في هافالانج. ونصحني بابعاد انفي عن كل ما يثار حوله من فضائح. من الافضل التوجه لاستثمار حماس هافالانج الشديد للدخول الى عالم السياسة، وعبوره رئاسة الفيفا الى ليكون رئيسا للبرازيل. ان نجاحه في وقف حرب الخليج هو مفتاح ذهبي لتلك الطموحات)

تكللت جهود حسن بلاسم بالنجاح. واستطاع الوصول الى رئيس الفيفا في جنيف، واقناعه بالقيام بدور الوسيط لوقف الحرب الدائرة في الخليج. الروعة في اللقاء ان حسن سمع نفس العبارة تقريبا، ولكن هذه المرة من فم رئيس الفيفا :

(**اتمنى ان تكون كرة القدم بديلا للحروب في هذا العالم**)

وبدأت آمال حسن تنتعش وتدور حول كرة القدم التي ستكون المطفأة السحرية لحرب الخليج.

في طهران دخل هافلانج على الامام الخميني برفقة **علي بروين** كابتن الفريق الايراني السابق ورئيس اتحاد الكرة. اللحظة الاولى كانت مشجعة، فقد استقبل الامام ضيفه رئيس الفيفا بحرارة، وقبلا بعضهما على الطريقة الشرقية. اما اللاعب الكروي الايراني علي بروين فقد وجدها فرصة العمر، بل واهم لحظة في

حياته، بحيث انحنى راكعا، وهبط بفمه الى الكف المقدسة، الكف التي تدفع بايماءة واحدة مئات الألوف من الايرانيين الى جبهات القتال. تمكن علي بروين ان يطبع على تلك الكف قبلة صادقة تماما، بث فيها كل آماله العريضة، وفرحته في ذلك اليوم، قلقه، وتوسلاته الخفية، ودموعه ايضا. ثم تحدث هافالانج موجها كلماته الى الامام فقال:

(.... بامكان قداستكم ان يرى كرة القدم البديل لتلك الحروب العقيمة، فعن طريق تلك الكرة الصغيرة المملوءة بالهواء وليس البارود يمكنكم ان تخوضوا حروبا بلا ضحايا، وبامكانكم ان تنتصروا على اعظم الامم، وهذا ما نقوم به في الفيفا عند تنظيم كأس العالم. وبامكاننا ان نؤهل الفريق الكروي الايراني لتحقيق ذلك. اما اذا كنتم من المولعين بتمزيق قلوب الخصوم فان كرة القدم تحقق ذلك دون قطرة دم واحدة.

الحرب وسيلة عتيقة لم تعد مغرية او جذابة سيدي الامام. الحرب هي ميدان الغرائز البدائية، وليس فيها منتصر).

ثم قدم رئيس الفيفا عرضا مغريا مقابل وقف الحرب، لخصه بعبارة رشيقة مؤطرة باطار رائج في تلك الايام ((**كأس العالم مقابل السلام**): السماح لايران بتنظيم كأس العالم، تعيين طاقم تدريب برازيلي على نفقة الفيفا لقيادة الفريق الايراني، جلب الفريق البرازيلي بكامل نجومه لملاعبة الفريق الايراني، تأهيل ملعب طهران (اريا مهر) على حساب كوكاكولا واديداس، تعيين احمد الخميني (نجل الامام) عضوا في الاتحاد الدولي.

اي رئيس دولة او زعيم شعبي، حتى لو لم يمس الكرة مرة واحدة في حياته، سوف يقبل هذا العرض على الفور. لكن الامام المقدس ومرشد الجمهورية الاسلامية كان يحمل في داخله كما كبيرا من المعوقات لقبول هذا العرض للاسف. كان الامام يجهل عالم الكرة، ولا يملك ابسط المعلومات عن الفريق الوطني. عدا ذلك فقد كان الامام محاصر بذلك الاطار الديني الذي يرى كرة القدم (تشغل المؤمن عن عبادة الله)، وهي لعبة اللباس القصير والافخاذ العارية،

خصوصا حين تتفرج عليها النساء المسلمات. كرة القدم شيء مكروه وقبيح وفق الشريعة الاسلامية. لقد بدا واضحا ان الامام شبه مقفل في هذا الموضوع ، يستمع دون حماس يذكر الى حزمة المغريات التي قدمها رئيس الفيفا. اما اكبر المحبطين والتعساء في ذلك اللقاء فهو الكابتن علي بروين، الذي خرج من ذلك اللقاء بحسرة لن تفارقه ابدا. في هولندا البلد الذي انطلقت منه المبادرة كان الفشل صدمة كبيرة لحسن بلاسم وليوهان كرويف. لفترة طويلة، ظل حسن بلاسم يقارع تلك الخيبة بكؤوس الخمرة، ويشرب مرارتها لوحده.



منولوجات مشتركة مع شقيقتي

منولوج 1

حين اخلو الى نفسي اكون في واحد من الامكنة الثلاث:

الاول هو **الباص الخشبية** التي تركها ابي خلف دارنا في مدينة القاسمية– شرق دجلة،

المكان الثاني هو **بيت اختي** الكبير في مدينة الضباط، وهو حي عصري مخصص لضباط الجيش في الجانب الشرقي لمدينة بغداد،

اما المكان الثالث فهو حانة (**صهيب**) في جنوب بغداد، وهو وكر شبه سري للفارين من الحرب، أسسه حسن بلاسم.

احتلت الباص الخشبية الشطر الاكبر من عالمي: فهي برجي الخشبي، وحانتي، ومكتبتي، ومكان رزقي، وورشتي الفلسفية وتأملاتي. حين تضيق الارض امام الفارين من الحرب يجدون في باص ابي ملجأ لهم. لم اكن امارس عملا ثابتا. وكنت احيانا اعطي دروسا خصوصية للطلبة في مادتي الفيزياء والرياضيات، فتوفر لي دخلا يغطي حاجة الجمجمة للخمرة ويسكت معدتي ببعض الطعام، دون ان تسلب مني شعوري اللذيذ بعظمة وسعة الكون، وتحرري من عبودية العمل اليومي. كانت تأملاتي للعالم تمتص معظم طاقتي. والحقيقة انني لم اكن حرا تماما، فهناك جزء من ذاتي يسكن في اختي رضية، مثلما هي مسكونة في داخلي. ومع تعاقب السنين تحول الارتباط بها الى لذة غامضة.

سحبتني رضية بقوة الى محنتها، وسحبت معها همي المعرفي، فاصبح موضوعي الاول هو السوبربوزشن (**Superposition**)، وهي فكرة اشبه بعصفور جميل

اقتحم جمجمتي. عصفور ذو ريش بلونين فلسفي فيزيائي، راح يغرد في رأسي، فقادني الى ابعد من فقدان جندي في الحرب. رحت اتوغل في غيبة زوج اختي، وامارس فيه اكبر قدر من التجريد، حتى وصلت الى نقطة لارجعة فيها: **ان الفقدان هو شكل من اشكال الارتباط بالمطلق**، التي تفترض ان الشيء المفقود موجود في كل مكان، وبامكانه اختراق الزمان والسير فيه، تماما مثلما ينتقل داخل المكان. ان اية فرصة للانفلات من الصحو هي محاولة للارتباط بالمطلق بدرجات متفاوتة. قد يكون المطلق هو الله نفسه او القانون الشامل. السوبربوزشن هو الغاية لكل انواع الغياب او النشاط الاستثنائي، واخص هنا بالذكر: الخمرة، والموسيقى، والعشق، والدروشة، والجنون، ولحظات تأمل النجوم، والتصوف. ثم دخل علم الفيزياء ومعه جهود الذريين في اوائل القرن الماضي لتضعني بمواجهة مع التفسير العلمي المحتمل لفكرة المطلق نفسها، تلك الهشاشة اللازمة لاستحضار الوجود كحزمة من الاحتمالات. ما نراه من الوجود ليس سوى مظهر (احتمال) واحد فقط، نسميه الواقع، سببه اجهزة القياس، اي الحواس ، حواسنا الخمس: البصر والسمع والشم واللمس والتذوق. ولو اغلقت هذه الحواس او تعطلت لعاد الوجود الى طبيعته الكلية التعددية(السوبربوزشن). السوبربوزشن هو الجهل التام، هو ضياع التفاصيل وبقاء الفكرة الكلية، بالمقابل فأن المعرفة هي عملية تصغير للوجود، حصره في اطار اضيق، وضع اسم او طمغة على الموجودات.

السوبربوزشن هو بديل المعرفة، هو العمى المتعمد اللذيذ، الذي يوصلنا الى الحالة الذهنية الفائقة حين نختاره بارادتنا. ولكن السوبربوزشن يمكن ان يفرض علينا من الخارج ليحقق غرضا محددا، قد يكون التعذيب هو الغرض، لكنه حتما سوف يوصلنا الى نفس الكينونة (السوبربوزشن). في هذا السياق لابد ان اذكر تجربة عصيبة عشتها، سأمر بها على عجل ودون ذكر للتفاصيل بسبب حجم العذاب الذي تحتويه. انها فترة الاعتقال التي عشتها في العراق(زمن صدام). كان الاعتقال فجائيا تماما، فقد سحبوني من حرم الجامعة ورموني في زنزانة

انفرادية في احد الاقبية السرية دون ان يوجهوا الي تهمة محددة. كانت الايام تمر دون استدعاء للتحقيق. في تلك الفترة العصيبة كنت محاطا باربعة جدران كونكريتية تمنع عني اية معرفة. لاتوجد اية معلومة تخص سبب الاعتقال او مدته او المصير الذي ينتظرني. في تلك الفترة انطفأت في داخلي اشياء كثيرة، ولكن في نفس الوقت اشتعلت فكرة اصيلة اسميتها (السوبربوزشن). في تلك الفترة تعبأ رأسي تدريجيا بكل الاحتمالات، فالاسباب بدأت من الاشتباه الى الجرائم الكبرى التي تمس أمن الدولة، حتى انني وصلت الى الحد الذي اشك فيه بنفسي، وانني قد اكون ارتكبت عملا خطيرا دون وعي مني. على صعيد المدة ، امتدت حالة السوبربوزشن من توقع الافراج الفوري الى السجن المؤبد، مرورا بكل الارقام (سنوات السجن) المحتملة بينهما. على صعيد المصير فقد امتد السوبربوزشن من البراءة الى الاعدام، مرورا بكل انواع الحبس والتعذيب. هكذا مرت الايام ال (44) التي قضيتها في المعتقل. واضح هنا ان السوبربوزشن هو الجهل المطلق، الذي لن ينهار الا مع بدء التحقيق.

لقد بدأ هذا المفهوم يتغلغل تدريجيا في عملية البحث، وتطلب مني قدرا كبيرا من المجازفة. وفي مرحلة لاحقة كان علي ان اسحب حسن بلاسم معي. اما اختي فقد كانت تقترب من هذا الفضاء الواسع دون ان تكون واعية لماهيته. ففي احد الايام اخذتها الى قلعة التصوف في بغداد القديمة، حيث قبر الشيخ (الكيلاني) وداره ومدرسته. منذ الف عام واسم هذا الشيخ يتردد على السن المتصوفين (الدراويش) من اتباعه، وباسمه يصنعون الخوارق، باسمه يدخلون الخناجر في بطونهم دون قطرة دم واحدة.

في تلك القلعة الصوفية شهدنا انا واختي ليلة تخطف الابصار، وصل فيها اتباع الشيخ الكيلاني الى الذروة، فصاروا يدخلون ويخرجون في اجسام بعضهم البعض كأنهم دخان او غيوم. السيوف تخترق بطونهم وتخرج من ظهورهم دون صيحة الم او قطرة دم واحدة. رؤوسهم تتحول الى مزهرية لانبات الخناجر. كان المشهد خلابا وصاعقا في عين اختي. ماذا يحدث بالضبط؟ حاولنا الاستفسار من احد

الشيوخ المشرفين على هذه المعرض الباهر. كان يحمل بيده خنجرا مستعدا لادخاله في الاتباع. اجاب على عجل: ان معرفة السر امر غير ممكن الا لمن يدخل فيه، ولكني استطيع ان اقرب لكم ذلك: كل ما ترونه هو نتيجة لحضور الشيخ الكيلاني. انه موجود الآن هنا، انتم لاترونه طبعا، لكن الاتباع يرونه حين يصلوا الى حالة الوجد، او الهيام، حالة العشق القصوى. الشيخ الكيلاني حي ، يعيش في بيته، ولذلك يحتفظ ورثته بمعظم ميراثه. كل شيء في القلعة يشير اليه. قطع المشرف حديثه ليضع خنجره في صدر احدهم ثم عاد الينا ليقص حكاية الحذاء الطائر:

(هذا هو الحذاء الذي رماه من بغداد الى الهند. انه شاهد على قصة المرأة المسلمة في الهند، التي استغاثت بالشيخ الكيلاني لينقذها من رجلا حاول اغتصابها. لقد وصل الحذاء الى الهند وضرب المعتدي ضربة قاتلة، وبعد شهور جاء اهل المرأة الى بغداد حاملين معهم حذاء الكيلاني مع هدايا ثمينة).

القصة تهمل كليا قوانين الحركة البالستيقية مقابل التوكيد على قدرة الشيخ الكيلاني على عمل المعجزة. لم اعلق بشيء، وتركت اختي تستمتع بالمغزى النهائي للقصة، التداخل بين فعل الخير وتعظيم الكيلاني. واصل المشرف الطواف في آثار الشيخ الكيلاني:

(هذا منبره ، هنا جلس، وهذه جبته وعباءته التي يحتفظ بها ورثته، والاناشيد التي يرددها المحبون و المريدون والتابعون له هي كلماته، وهذه الصحون التي يأكل بها، والجرة الفخارية التي يشرب بها. هذه الزاوية التي كان يعلم فيها تلاميذ مدرسته).

في هذا المكان يتعلم اتباع الشيخ طريقة الوصول الى الذات الألهية (المطلق)، وهي الطريقة المسماة باسم الشيخ الكيلاني نفسه. هناك سر لايعرف تماما. الدخول في السر ، او الدخول في الطريق لهما معنى واحد، بل انهم يقولون عن التابع الذي وصل درجة الايمان القصوى : (**انه شرب الطريقة**) بمعنى انه دخل في السر، وكشف له المستور. السر(الطريق) هنا يشبه جرعة الخمر يشربه

الاتباع، فيتحولوا الى مخلوقات شفافة تصنع المعجزات. ماهو السر ؟ ماهي الطريقة؟ ماهو الطريق؟ هل هو نقر الدفوف، الألحان، كلمات الشيخ العتيقة؟ هل السر في هز الرؤوس دون كلل او ملل؟ هل السر في حركة الجسد بايقاع متكرر مثل بندول الساعة ؟ هل هو كلمات الشيخ ام حضوره الغامض بين اتباعه؟ لا احد يجيب على هذه التساؤلات او ربما لايعرفها احد. لكني في لحظة غامرة ، تشبه لحظة الغرق او رؤية الموت، في لحظة استثنائية جدا، لحظة سكر فائق، نظرت فيها الى قعر الكأس، فرأيت ضوءا خطافا. من قعر الكأس برز خيط رفيع يوصلني بسر الطريقة القادرية، بسر التصوف الاسلامي وعالم الخوارق. خيط رفيع يرسم علامة استفهام بلون ذهبي:

ماذا لو كانت الطريقة القادرية هي السوبربوزشن نفسه؟

ماذا لو كان سر الخوارق هو انتقال الانسان من الحالة الفردية الواقعية الى الحالة المطلقة او الفائقة او السوبربوزشن . ماذا لو كان السر هو في الارتباط بالمطلق (الله) وحمل قدر بسيط من خصائصه؟

في تلك اللحظة تبخرت الخمرة تماما وصحوت على فكرة مروعة اهتز لها كياني برمته.

اليس من الجائز ان يكون للانسان اكثر من صورة؟ صورة مرئية صلبة ثقيلة محدودة هي الانسان الذي نراه يوميا، وصورة اخرى ليست مرئية الا تحت شروط خاصة، صورة لانسان شفاف تخترقه السيوف دون قطرة دم، ويرى كل شيء في وقت واحد، ويتحرك في كل الازمنة دون عناء؟ اليس من الجائز ان مايفعله اتباع الكيلاني من معجزات هو عينة صغيرة من الاحتمالات الاخرى للانسان؟

في كل الاحوال فان عمل الاشياء الخارقة للعادة هو الذي يعنيني، لانه يرتبط بموضوعي هنا وهو حالة السوبربوزشن، التي اراها اطار اشمل لتفسير هذه الظواهر. اريد ان أؤكد هنا ان التعلق او العشق المفرط لاي شيء هو الذي يوصلنا الى ذلك الشيء مهما كان بعيدا في المكان او الزمان. وسواء كان هذا الشيء اسمه الكيلاني او العقيد هشام او الله. يبدو ان الطريق الى هؤلاء هو

واحد، ولو كنت محظوظا تماما، فمن الجائز اني وضعت اصبعي على هذا الطريق وهو السوبربوزشن. قد يكون الكيلاني واحد من اكبر النصابين في تاريخ بغداد، وربما لاعلاقة له بالتصوف والمعجزات، ولكن لابأس، المهم حقا هو العشق الاعمى للكيلاني، سواء يستحقه ام لا. المهم ان نجد سببا او هدفا نعشقه بقوة لنصل من خلاله الى الوضع الفائق (السوبربوزشن) لذواتنا. لابد ان نعبيء هذا الهدف بكل ماهو عظيم ومحبب الى قلوبنا. الى ان نصل الى فكرة المطلق، الى القادر على كل شي، الخالق لكل شيء، الى فكرة الاستحالة، اي الله نفسه، وهي اعلى درجة في السوبربوزشن.

واحسب ان اختي بدأت تتردد الى قلعة الشيخ الكيلاني حتى بدوني. واستطاعت ان تقيم علاقات مع نساء اخريات يحملن ذات الاهتمام.

وبعد مرور اشهر عثرت في بيت اختي على نسخة من كتاب الشيخ الكيلاني (الدخول في السر)، فسألتها عنه، قالت: (ان الحب، الذي يصل الى درجة الهيام، الحب اللامحدود للشيخ الكيلاني هو الذي يوصل المتصوفون من اتباعه بالسر الاعظم ، ويجعلهم يخترقون بعضهم دون عناء. المعجزة هي في رفع درجة الحب الى اقصى حد، هنا السر والطريق نفسه)، ثم اضافت وهي تحلق في افق بعيد: سأجرب احضار هشام واعرف منه كل شيء

هذا يعني ضمنيا ان اختي رضية ستدخل في السر الاعظم، سوف تزيح الستارة. بلغة المتصوفين فان اختي سوف تشرب ذلك السر ويتغلغل في دمها، سوف (تشرب الطريق) اي تسير فيه بكل منحنياته حتى تصل الى الهدف. هنالك تعديل جوهري في الهدف. المتصوفون يريدون الوصول الى شيخهم الكيلاني، بينما اختي تريد الوصول الى العقيد هشام زوجها المفقود. لا ادري اين وصلت في مسعاها، واي نوع من الاناشيد والتضرعات ستردد. استطعت ان اخمن تلك الاصرة الجبارة التي مازالت تربط اختي بزوجها: شيء ابعد من العشق وان كان هو الدافع الاكبر فيه. حولت غرفة نومها الى زاوية صوفية، الشيخ والهدف المرتجى فيها هو زوجها، نثرت ملابسه العسكرية والمدنية. بدلته العسكرية، بيرية القوات الخاصة

الحمراء، جزمته العسكرية وحزامه الاخضر العريض الذي يحمل نسرا بالوان العلم الوطني الثلاث. نثرت اشياءه، مقتنيات عسكرية خاكية اللون صارمة الملامح، لاتشبه اكسسوارات المرأة: بوصلته، عصا الضبط العسكري، صافرة تجميع الجنود لتفتيش لحاهم واطاعتهم للاوامر، رتبته حين صار عقيدا، المسدس الذي اهداه له الرئيس صدام، صوره مع الرئيس، واوراقه. بدأت الاحظ ملامح دخول رضية في السر، الاحظ خطواتها على ذلك الطريق، ارى السر في شرودها، في انعزالها المتكرر، في نسيانها للمطبخ والاطباق الشهية، في عيونها التي تتطلع دون اتجاه محدد، وميلها الى الصمت. لم يكن اتصال اختي بزوجها حاسما وصلبا، بل كان رجراجا، يحدث في لحظات خاطفة، وغالبا ما يترك وراءه المًا موجعا في قلبها. وكنت ارى صفرة تعلو محياها وسحابة من هم مخلوط بنشوة مرتبكة. كنت اسمعها وهي تكلمه، تتوسل اليه ان يبقى معها اطول مدة، تتوسل به وان يقترب منها لتلمسه. كنت اسمعها وهي تدخل وتخرج من عالم السر ، تدخل اقصى الحب، اقصى الوجع حيث هناك شعرة واحدة تفصل الممكن عن المستحيل، متعرقة، مترددة، ومنهكة تماما. احسب انها كانت تبذل جهدا خارقا للعادة كي تشعر بوجوده.

هناك قدر من هذا التواصل يصلني، اشبه بحلم يترسب في رأسي. في البدء كنت اعزيه الى خمرة اواخر الليل، حيث اصل ذروة سكري، يصبح رأسي ثقيلا لا اقدر على حمله. ارى وجه اختي مليء بالكلام. تجلس جنبي، تضع رأسي في حجرها، تسكب في وجهي نظرة، تفتح فمها فتخرج منه حروف بيضاء مبعثرة، سرعان ما تتجمع لتؤلف خاطرة مشتركة. كيف يمكن لاختي رضية ان تقرأ مايدور في رأسي؟ وكيف تسكب هي مايجول بخاطرها دون كلام؟ كيف يحدث هذا التفريغ المتبادل بحيث ارى ما تراه اختي، وترى هي ما اراه. في الصباح ادون ما يترسب من الليلة الفائتة. هنالك اوقات يصبح كياني متحدا باختي. نعود توأم من جديد. من الصعب ان تفكر لوحدك وانت توأم. الخواطر التي تدور في رأسها، هي نفسها تدور في رأسي. الاسرار الصغيرة التي تخرج من فمها تتلقفها اذني،

الدمعـة المخبـأة في عينهـا مثـل لؤلـؤة، تتـدحرج على خـدها، ثم تسـقط في كفي. الوعاء الذي يحتوينا يشبه جمجمة كونكريتية. الكلمات التي تبثها اختي للعقيد تتلاطم في ذلك الوعـاء الذي يحتوينا. انـا اسـمع او ارى كل مـا يخطـر ببالها. منذ غياب زوجها لم اعد افارقها ولا تفارقني. فنحن اما في بيتها العصري او في بيت اهلي العتيق. وعدا الاصوات فهناك صور شبحية وتبدلات تصيبني بالارتباك.
مع تلك الجرعات الخمرية اسمع كلاما من فم لا اراه. لست ادري ان كنت نائما او حالما او سابحا في فلك غريب.
من السـابق لأوانـه الجـزم في امـر هـذا الحضـور الهش للعقيد. كتبت الى حسـن بلاسم، في بلد المنفى هولندا. كتبت له عن آخر ما يحدث لحبه الابدي، كتبت لـه عن اختي. اخبرتـه عن اتصـالاتها المتكـررة بزوجهـا المفقـود عـبر استحضـاره بطريقة صوفية، تقوم بها في غرفتها. اضافت تلك الانباء لحسن هما ثقيلا ورغبة بالعودة لكي يكون قربها. نصحني ان اعرضها على طبيب نفساني، والمح بشكل حزين ومتردد الى احتمال الهوس. فلم اتردد في اطلاعه على ماهو اكثر احتمالا، علني ابعد عنه شبح اليأس والقنوط وابقاء صورة رضية كما تركها. رضية تريد ان تتأكـد من شـيء واحـد فقـط: هـل ان زوجهـا حي ام ميت؟ . كـان لابـد ان اكشـف لـه زيـارة اخـتي الى جـامع الكيلاني ، وحضـورها المتكـرر الجلسـات الصـوفية لاتباعـه، وعلاقتهـا المتينـة بالسـيدة (بـاهرة النقيب) احـد اعمـدة الأسـرة الكيلانية في بغداد، وريثة تلك التقاليد، والمسؤولة عن الخط النسوي في مدرسة جدها. هـذه السيدة التي زودت رضية بكتاب (الدخول في السر). وقد استعانت رضية بهذا الكتاب لاستدعاء زوجها العقيد هشام الخوصر بطل الفيلق الثالث، بدل الكيلاني نسر بغداد الاشهب. كتبت لحسن بلاسـم عن تلك التجربة التي عاشـتها رضية مضيفا ان اختي ليست الوحيدة التي اتصلت بحفيدة الكيلاني. فهناك عدد لابأس به من زوجات الضباط المفقودين يتردد عليها.



منولوج 2

صارت رضية مصممة احجيات والعاب وردية، تضع فارسها المفقود وراء الستائر، وتسألني ان افتش عنه. ازيح الستارة فلا اجد غير الزجاج. تنادي عليه: تعال حبيبي، لاتخف، تلفظ اسمه، فيخرج مثل لص ظريف او عاشق يسرق موعدا للقاء حبيبته، تفتح اختي ذراعيها لتحتضنه، تمرر اصابعها في وجهه، تمسح عنه تراب المعارك، لاتخف، تقول له ، انت في بيتك. ساريك حجرتك.

بيت العقيد، في حي ضباط الجيش، شرقي العاصمة بغداد، مؤلف من طابقين، باربعة غرف نوم، تسكنه اختي وأطفالها الثلاثة: مرتضى 1981، وداد 1982، مصطفى 1983. منذ فقدان العقيد وانا نزيل شبه دائم فيه. في الليالي المليئة بالعتمة، كنا نحرك صمت البيت بلعبة (الغميضة). كنا نحن الخمسة نتبادل الادوار. انها واحدة من اوقات البهجة والفزع اللذيذ الذي يستهوي الاطفال. حين يأتي الدور على اختي تفاجؤنا بوجود لاعب سادس، يختبيء في زاوية من البيت. رضية تطلب منا ان نتقبل ماتراه، بينما نحن لا نرى ماتراه. تصيح باسم زوجها، بينما تزيح الستارة، تقول انه هنا: لقد قبضت عليه. نتجمع حولها نتفحص ماوراء الستارة، نتفحص كفها، تضحك، تصرخ باسمه: الدور عليك ياهشام. الصغار يبكون، اعمارهم تتراجع الى الوراء، يشاركون امهم هذا النداء المستحيل، يصرخون جميعا بابا. لا احد يدرك الخيط الرفيع الذي يفصل اللعب عن الجنون. احاول ان اتقبل تلك الهشاشة بعب المزيد من الخمرة، وادور مع بقية العائلة باحثا عن اللاعب السادس المختبيء عنا. تنجح الطفلة في العثور على ثياب ابيها في مخزن المؤن فتحملها الينا. العدوى انتقلت الى هذه الطفلة. البيت كله مصاب بحمى العقيد الغائب. افتش الثياب فلا اجد لحما. يتصاعد ايقاع الجنون مع صعود الليل وتبدأ لغة المتصوفين. يدب النعاس في عيون الصغار ويرتموا على فراشهم، ونبقى انا واختي، كل ينظر بوجه الآخر، تقف بيننا علامات استفهام مضيئة، لاتخبو. تقطع رضية تلك البلبلة باعداد اطباقها الارجوانية. ثمة سلاطة تسلب العقل. احاول ان اعرف سر طعمها الفريد. انا اراقبها وهي تخلط المقادير. فمي يسقط

مني على كفها، اقبل اصابعها وهي تقطع الخيار. السكين حادة، تقول لي، انتبه الى فمك. حين تنتهي من اعداد بانوراما الاطباق تضعها قبال عيني، وتصعد الى غرفتها. مع هدأة الليل وصعود الخمرة اسمعها تردد اسمه:
(لاتخف، كل شيء هنا ينتظرك، لن انام هذه الليلة. اعددت ثوب الحرير الاحمر، واعددت نفسي للقائك. متى تطرق الباب؟ كل كياني اذنا صاغية، تنتظر صيحتك).

صورة عودته متعددة الاشكال: يخرج العقيد من كيس الطحين، من ثقب الفرن الفخاري، مع صيحة الديك، او طيات الستارة. يباغتها من الخلف، يمد كفيه ويغلق عينيها. هي تشم رائحته، فتحزر هويته على الفور. ما عدت اميز بين الصحو والحلم. ما الذي يحدث بالضبط؟ كيف اقبض عليه متلبسا بحالة وجودية محددة؟ هل هو حي ام ميت؟ لماذا يتبخر العقيد حين نقترب منه او نحاول الامساك به؟ هل هو ظل ام شبح؟ رؤيا ام ايحاء ينتقل الي عبر اختي؟ كيف لي ان افهم تلك اللحظات الخاطفة؟ أسمع رفرفة اختي بجناحين من شوق جارف، وعطش مالح للارتواء؟ هل يسمعها فعلا؟ هل يرد، يستجيب لندائها؟ كيف لي ان افهم تلك المناجاة، المونولوج المفتوح على اصغر الامنيات: (انتظر يومك الطاعن في السن، لاجمع فيه ماتبقى لي من عمر واصبه في كفك. يومك ابيض مثل حليب البقر، بعيد مثل دواء الموت، مفزع وخاطف مثل شريان البرق).

في صباحات تلك الايام العصيبة نسمع طرقة على الباب، مباغتة لاتغادر الاذن. تتلعثم رضية وتسقط في الاريكة قبل ان ترى وجه من يطرق الباب. غالبا ما يخيب الظن، افتح الباب بنفسي، فأرى شحاذا يطلب دقيقا، عامل القمامة، او قاريء مقياس الكهرباء.

سنوات وهي تنتظر ان يدق الباب، سنوات تنتظر ان تفتح الباب فترى وجهه الغائر في العمق، فتطلق صرختها المكتومة بحجم سنوات الأنتظار، وتسقط بين ذراعيه.

الاطفال الثلاث الذين تركهم في حضنها كبروا دون ان يتلفظوا باسمه. ومع تزايد مدة الغياب اصبح صعبا تصوره كأب. كان يتراجع باستمرار. من جهتي قررت العزوف عن الزواج والحلول محل العقيد كأب، واخراج الاطفال الثلاثة من خانة اليتامى. وكان حسن بلاسم الى جانبي كأب ثان للاطفال.

كانت شقيقتي تواجه معضلة التلاؤم مع التحول الجديد في العراق بعد سنة 2003، بينما كان الاطفال اكثر مرونة وتجاوبا، فلم يتحولوا الى اعداءا لسنة 2003 مثل اقرانهم من ابناء ضباط الجيش. المعلوم ان الجيش العراقي تم حله مباشرة بعد سقوط صدام عام 2003، واعتبر ذلك الجيش، ومعه الحزب الحاكم، ركيزتان للنظام السابق، ينبغي ازالتهما معا. اطفال العقيد الثلاثة كانوا مع الغالبية من العراقيين التي احتفلت بسقوط صدام، بل انهم ذهبوا ابعد من ذلك الى شعور بالامتنان الى الجيش الامريكي الذي اعاد اليهم الأب الثالث حسن بلاسم بعد سنوات طويلة من الغياب. لقد عرفهم حسن على رفاقه في الجيش الامريكي، لخص لهم مافعله (هؤلاء الجنود الابطال، الذين اسقطوا الطاغية في **51 يوما**، بعد ان عجزت جميع وسائل العراقيين طوال **35 عاما**). يبدو ان باص الخشب قد فعل فعله في اطفال اختي. لقد شرب الاطفال من ضرع تلك الباص العتيقة، وتغلغل في دواخلهم كل ماكان يجري فيها، عدا ذلك فقد تذوقوا فيها اولى ثمرات الحب. لقد نقلوا بعضا من سنوات الغميضة، من بيت ابيهم في مدينة ضباط الجيش الى باص الخشب العتيقة في بيت جدهم في مدينة القاسمية، هذه السنوات اثمرت عن شباب بلا احتقان، او شعور بالنقص. وأثمرت ايضا عن تقدير ممزوج بالامتنان لقوات التحالف الدولي الذين حققوا حلم غالبية العراقيين.

سحبناهم من صالة الضيوف في حي الضباط وفتحنا لهم مستودع العشق. في الباص الخشبية قطفت اول القبل الغرامية ، وكان هناك من يبلل عيونهم بالماء، يعد اصابعهم، يفرك اقدامهم، يصب لهم الخمرة والعسل، ويتقاسم معهم اصابع العروس بطريقة خلابة، حيث يقظم كل من طرف، حتى تلتقي الشفة بالشفة.

ربيناهم دون ان ينتظروا احدا. حين كبروا صاروا يرون في الانتظار حرقا للسنوات، وهو امتداد لعقيدة عقيمة تأكل عمر امهم. الاطفال لم يعودوا ابناء ابيهم، بل ابناء صومعتي وبرجي الخشبي وورشتي الفلسفية، ابناء باص الخشب العتيق التي تركها ابي، والى حد ما ابناء مدينة القاسمية الفقيرة. كان الحب الجارف الذي يكنه حسن لشقيقتي يملأ الفراغ الموحش للعائلة. قبل ان يخرج من البلاد الى المنفى، استطاع حسن ان ينقش صورته في ذاكرة الاطفال. ورغم ان الفترة التي قضاها معهم لا تتجاوز بضعة سنوات، الا انها كانت مزدحمة بكل ماهو جديد على بنيتهم الهشة. لقد تعمد ان يزرع بأصابعه اول الاشياء في عالمهم. فهو الذي اخذهم الى دجلة وغطسهم في النهر لاول مرة. هو الذي ركبهم دولاب الهواء، وهو الذي هزهم في المراجيح، ووضعهم على ظهر البغل وامسك بهم والتقط معهم الصور التذكارية. هو الذي سجلهم في المدرسة وتعمد ان يلتقط لهم صورا فوتوغرافية لاولى لحظات دخولهم المدرسة. تلك الصور التي يعتزون بها كثيرا. كان يغسل بيديه ملابسهم، ويحممهم، ويغدق عليهم بالحلوى. كان حاضرا في سعالهم الديكي، وحصبتهم الالمانية، والجديري. كانت ذراعه وسادة لنومهم العميق. في الختان امسك حسن بالسيقان المرتعشة لمرتضى ومصطفى كي يسهل على الشفرة قطع قلفة كل منهما. وكان يؤرجحهم في مدينة الالعاب. واذا اشتهوا ركوب الحيوانات يجدون ظهره: كان البغل والفيل والحصان، والطيارة اذا ارادوا الطيران. يبرك وينهق ويصهل و يموء. حسن أول حكاية، وأول نكتة. حين غادر البلاد لم يختفي من عالمهم، فقد ترك مايكفي من التفاصيل في ذاكرتهم. حسن هو رفيق الاشياء الاولى في عالمهم. الحب الخرافي والغير متحقق نحو اختي رضية دفعه ان يحفر ذاته في البراعم الصغيرة التي خرجت من بطن رضية. لقد غاب 17 عاما، وحين عاد وجد البراعم الثلاثة التي زرعها قد اينعت، وصار لها جذوع متينة. اصبح مرتضى عضوا في فرقة مسرحية شبابية، وتفرغ مصطفى الى الموسيقى، اما وداد فقد نجحت في الدخول الى كلية الصيدلة. لقد عاد حسن عاشقا من جديد، وعاد ليزرع نفسه من جديد،

فكان المستمع الاول لعزف مصطفى على الة الكمان، والمتفرج الاول لمسرحيات مرتضى، والداعم الاول لصيدلية وداد، ونشاطها المدني.

مع مجيء سنة 2003 غمرت البلاد موجة عالية قلبت الموازين، لقد وصل الى السلطة صنف من العراقيين الموالين لأيران، الذين عاشوا سنين طويلة في ايران الاسلامية وحاربوا الى جانبها ضد بلدهم الاصلي(العراق). لقد فرغ هؤلاء كل مافي ذاكرتهم من ثأر ومشاعر طائفية، لم يكتفوا بالعقوبة الجماعية في ازالة السلطة برمتها، ولا ازالة الجيش والحزب رسميا وقانونيا. وبدل ان يفتحوا صفحة جديدة، فقد شرعوا بتقسيم العراقيين الى صنفين: صداميين وغير صداميين، وبموجب هذا التقسيم تحول كل من كتب كلمة او التقط صورة مع الرئيس صدام الى شخص متهم، او مواطن من الدرجة الثالثة: لم يعد هشام الخوصر بطلا، انواط الشجاعة والألقاب والسيارات التي حصل عليها، صوره مع الرئيس السابق، الهدايا التي تلقاها مباشرة منه، وحتى البيت الذي تسكنه العائلة، كل هذا تحول الى تاريخ غير مشرف ودلائل جرمية. كان على رضية ان تستعد لاخفاء آثاره اذا ارادت ان تعيش بدون متاعب. لم تكن لدى اطفال رضية اية رغبة في التحول الى ناقمين، ومغادرة البلاد الى الاردن، التي تحولت الى منفى لرجال النظام السابق.

لم يبق من الذين ينتظرون مصير العقيد سوى ثلاثة: رضية وحسن بلاسم وانا. كان اهله يعيشون في الموصل. لم يكن بيننا اتصال يذكر، فلا نعرف عنهم الا القليل. امه لم تحتمل الكثير، فماتت بعد ثلاث سنوات من اختفائه. لم يكن له اخوات، وكان له اثنين من الاخوة هاجر كلاهما الى كندا في سنوات الحصار الاقتصادي المفروض على النظام العراقي وانقطعت اخبارهما.

هناك دار شبه مهملة في حي الضباط، سياج من نبات الدفلى، نخلتان، شجرة تين، مع صنبور ماء مثبت به انبوب بلاستيكي لرش الحديقة. هناك ثلاثة بدلات عسكرية مفرغة من اللحم، ومعلقة على الحائط منذ ثلاثة عقود، وتحتها بيرية القوات الخاصة الحمراء، حزام اخضرعريض، وجزمة عسكرية سوداء. هناك روب

نوم مازال معقودا من خصره على جسد غائب. صندوق حديدي حفظت فيه اوراقه واوسمته ونياشينه ورتبه وصوره مع الرئيس والافلام التي سجلت تكريمه. بين الحين والآخر تطل شقيقتي رضية على هذا الارث لتمسح عنه التراب، وتطرد العناكب. يومه الرجراج، عجزت عن معرفته ساحرات المرايا، وتقارير الاستخبارات، وتوقعات المحللين، ولجان المساعي الحميدة. اسمع صوت رضية يتردد في جمجمتي:

(كيف تفتح النسوة ابوابهن اذا غرب العاشق، لهب الحياة وزهرة الوادي. ارى نفسي وحيدة، ابعثر جمالي، اخط على وجهي حروف من اسمك، فتسخر مني. اراك تخرج من بين تجاعيدي، تتسلل الي مثل شعرة بيضاء في جبهتي).

تواصل رضية تلاوة منولوجها بصوت خافت، تكلمه بهمس شفيف، تفتح النافذة فيدخل قدر من الغيب، ولا تنسى ان تضيف الى كأسي مكعبات الثلج:

(في الشوارع التي لاحقتني فيها رحت ابحث عنك، خطواتك حفظتها عن ظهر قلب، هنا وقفت، وهنا انعطفت، وهنا انكشف امرك. امام بوابة وزارة الدفاع تجمد عمري، على بعد امتار من القوس القرميدي العتيق رفعت كفك لتودي لي التحية. ضربت بجزمتك الارض بقوة لتفجر ينبوع الحب. بين الحين والآخر اقف عند تلك الحفرة. النهر الذي شهد قبلتنا الاولى مازال جاريا عذبا، اعيد تلاوة الخطوات التي ملكتني فيها الى الابد، يقول اخي انك مصادفة مؤلمة، فاحزن، وحين يسكر ينسى الحذر فيقول انك لعنة، ومع كل كأس يضيف قدرا من اللوم فاغلق فمه، او اسد اذني. لماذا لا ارى فيك ما يراه اخي ؟ هل اعميتني عن رؤيتك؟ لا احد يعينني على احجيتك، اخلع عنك بزتك الملطخة بالوحل، اجرك الى الحمام ، اقول لك: انتظرتك عامين، اين كنت؟ فيأتيني صوتك من عالم بعيد، تقول لي:

{*كنت الاحق الهراطقة في شرق الاناضول. السلطان الاعظم سليم الاول شرفني بهذا المجد، سلمني رايته وكلفني بازالة امارة الخونة في مرعش، بعدها سأرافقه الى مصر لنزيح قانصو الغوري*}

سوف اترك الماء الدافيء يشطف جسدك.سوف اناولك منشفة نظيفة، ثم اعد لك الطعام، سألبس ثوبي الفستقي على عجل واعود اليك. اين انت؟ لماذا تبخرت؟)

اقول لها: الحائط لايتكلم، وحتى لو تكلم فهو لايعرف مكان العقيد، فتقول: انا لا اتكلم مع الحائط، كنت اكلمه ، لقد كان هنا، تركته في الحمام. لماذا هرب؟ هل هو خائف من شيء ما؟

الايام الباردة تغطيها رضية بمعطفه العسكري. كلما شيدت لقاءا تأتي الريح لتبعثره. علمها الغياب النفخ في الهواء، والكتابة على الماء، وقضم الاصابع، وعلم الاطفال الانزواء. تحدق اختي في الغروب كل يوم، على الارجح يعود الغائب وقت الغروب. تعبت عينيها من النظر. وصف لها الطبيب قطرة، واوصاها قائلا:

(من الافضل ان تنظري الى الاشياء القريبة، اذا بقيت تنظرين الى ماهو بعيد، فسوف تصغر مقلتيك او تفقدي بصرك)

تحاول ان تتعلم كيف تكذب على نفسها. هناك احتمال، حتى لو بعد حين، ان تدرك ان العقيد اكبر غلطة في عمرها. الشيطان يزورها، ويحرضها، ويخبرها انه داعر، و محاط بالجواري، لكنها تطرده وتستعيذ بالله.



منولوج 3

في صباح السادس من كانون الثاني 1989 طرق ساعي البريد باب اختي، وسلمها ظرفا سميكا عليه ختم ادارة الضباط. فتحته فوجدت رتبة لواء مطرزة (نسختين)، وتحتها رسالة تشير الى ان العقيد يبقى في عداد الاحياء طالما ليس هناك ما يؤكد موته. واشعارا باستمرار راتبه الشهري، وشموله بالترقية،.وتجديد رخصة التسوق من حوانيت الجيش.

تخاصم البنت والولد حول وضع الرتبة على الكتفين والذهاب الى المدرسة للاحتفال بعيد الجيش. اقترحت رضية عليهما القبول بالقرعة. القيافة العسكرية

التي فصلتها لكل منهما بدأت تضيق، ولم يبق سوى شبرين ليصبح الولد بطول ابيه، ويرتدي بدلة الجيش الاصلية. يسألني الصبي: متى اكبر ايها الخال؟ اريد ان اصبح ضابطا مثل ابي. تسمعه امه، فتترك عملها في المطبخ لترد عليه: هل انت مستعجل على الغياب؟ دعنا نعثر على ابيك اولا. الصبي يسكت، ولا يعرف بماذا يجيب امه، هل سيعود ابوه ام سيظل مفقودا الى الابد؟

من منهما سيرتدي رتبة الأب؟ قذفت رضية قطعة نقود في الهواء فسقط على قفاه و رست القرعة على البنت. راحت وداد تتبختر بقوامها النحيل مثل خاتم العقيق. ورغم سعة القميص الا انها تمردت على الضبط العسكري وفتحت الازرار الثلاثة العليا، وسارت الى المدرسة ببيرية حمراء، وحزام عسكري أخضر محروس بنسر البلاد ورايته، كتفين مثقلين برتبة لواء، وعصا تحت الابط. كانت وداد صورة طبق الاصل من ابيها. في المدرسة طلبت منها المعلمة ان تقف امام الجميع و تتحدث عن ذكرياتها مع ابيها. لم تجد ما تقوله، فسكتت، ثم سرعان ما نزلت دمعتها لتبلل القميص، وقالت انها لم تر أباها قط.

وفي المساء جلست البنت والولد ليأخذا مني درسا خصوصيا في الحساب:

وضعت لهما المسألة التالية:

(منذ زواج ابيكم من امكم وحتى غيابه استلم ما مجموعه تسعة عشر اجازة دورية، كل واحدة بسبعة ايام، فكم عدد الايام التي عاشتها امكم معه؟)

كتب كل منهما رقما في دفتره، ثم اجابا بصوت واحد:(هذه مسألة سهلة يا خالي، **133 يوما**).

كان الجواب صحيحا فأعطيتهم درجة كاملة.

ثم سمعت منهما هتافا: (يا خالي، نريد مسائل اصعب، اصعب) .

رحت افتش لهما عن عملية حسابية اكثر ايلاما:

((في القاطع الجنوبي، وبعد ثلاث سنوات من الحرب، بلغت الخسائر في النخيل نتيجة للقصف وفتح الطرق ومقرات القيادة والمخازن والمواضع الدفاعية (5)

مليون نخلة. فلو ان كل نخلة تأوي اربعة حمائم. احسب عدد الحمائم التي فقدت مأواها منذ بدء الحرب))

جاءت رضية وكانت مستاءة. سحبتني بعيدا عن الطفلين وقالت:

(هل تعلمهم الحساب، ام تعلمهم كيف يكرهون اباهم؟ من الافضل ان تؤجل شربك الى ما بعد الدرس. انت تخلط الخمرة بالحساب).

احاول جاهدا ان اطرده من حياتها. جلبت لها ورقة بتوقيع الرئيس صدام تعفيها من الانتظار. لقد وقع الرئيس على هذا القرار:

(**بعد اربعة سنوات من غيابه، يحق لزوجة الجندي المفقود طلب الطلاق**).

اقدم لها كل المبررات لنسيانه، اقول لها:

(كيف رضيت برجل لم تدخل في جسده قطرة خمر واحدة، ولايسمع الموسيقى، بل لايطرب الا لصوت المدافع وازيز الرصاص؟

قولي لنفسك انه مات. اقتليه واحرقي نياشينه وثيابه، عندئذ يتوقف سقوط ضفيرتك، وتهرب التجاعيد من وجهك.

العقيد حذاء ضيق ذو كعب عال، غالي الثمن، ومصنوع من جلد الافعى، يصلح لحفلة ارستقراطية مدتها ثلاث ساعات فقط).

فتغضب رضية: كيف تسمح لنفسك ان تصفه بهذه الشناعة؟

احاول ان الطف ما قلته: (العقيد يوجع الظهر، اخلعيه، والبسي حذاءا رياضيا بسيطا)

تجيب رضية: انه يريد ان يرفعني لكي اصل الى علو قامته، انه يحبني بجنون، يريد ان يقبلني بلا عناء. جرب ان تتزوج امرأة بلا كعب عال، وسوف ترى بنفسك.

اقول لها: اجمعي ايامه في كيس وتبرعي بها لجمعية المحاربين القدماء، ما رأيك ان نبيع ملابسه في سوق الخردة. سوف نفتح جرار الخزف ونخرج ايامه ومنمنمات اخرى مخبأة في غرفتك، نتركها للريح، ومن الافضل تحطيم الجرار، وحرق رائحته. يتطلب الخلاص ان تشتعل النيران في ثيابه، ونهيل التراب على اوسمته

ونياشينه كي لا تنبت مزيدا من المعارك. سوف نحرق البيت، او نرشه بالديتول، مثل جرب بغيض، نطهره من رائحة هذا المحارب الابدي.
العقيد يأتي ولا يأتي. طرق الباب، فهرعت اليه اختي لتجده معفرا بالتراب، حين نزعت عنه ثيابه لم تجد لحما. ترك ثيابه في يدها واختفى. علقت اختي ثيابه في الزاوية، وانتظرته من جديد. دارت الارض حول الشمس دورة كاملة، ومازالت الثياب معلقة وخالية من اللحم. تدور الأرض حول نفسها، الليل والنهار في تعاقب ابدي. اول شيء تفعله اختي، وقبل ان تلقي نظرة على مجيء اليوم الجديد هو البحث عن الغائب، تفتش عنه في شراشف النوم، بين طيات البطانية، تحت السرير، وراء الستارة، تشم ثيابها علها تعثر على أثر منه. تزورها العرافة دوريا، تفرش قميصه العسكري وترمي فوقه حصاها، وتعدد احتمالات الغياب. نجماته تشتعل وتنطفيء لتتبيء عن تردده بين الحياة والموت، وكتفاه يتحركان مثل كفتي ميزان مضطرب. علقت اختي صورته على صدرها قلادة، وطافت حول من يهمه الامر: هل من أثر لهذا العقيد؟ لم تعد سوى موعد مؤجل، زورق متروك في نهر جاف. لايتقدم الصبح، مثل عربة غاطسة في بركة الوحل. الشاي بارد، العيون شاخصة، والضفيرة متبلة في جرة عتيقة، وشعرة من صدره عالقة في لحمها. لايزول هذا العقيد مثل وشم في العنق. نقشت اول حرف فيه، وهناك قطرة من لعابه لا تتبخر، وكسرة من شفته لاتذبل. تحاول رضية جره الى السرير فيتفتت، مثل بيت النحل. في الايام الخالية من دخان المعارك، تصعد رضية الى السطح كي تراه قادما من الافق. الشمس وراء ظهره، وقدماه تسبحان في الشفق. يهتز السلم على وقع لهفتها. عودته تغمر وجهها مثل موجة عاتية. اسمع اختي تعاتب زوجها:
(نزعت عني ثياب عرسي واختفيت. هل يعقل ان تكون ليلتك بهذه السرعة. كنت اشبه بنجم مذنب. رن جرس الهاتف وانت تقلب جمرات العشق. رفعت السماعة. احدهم يأمرك ان ترتدي ثيابك وتلتحق على الفور)
احرقت اختي الكثير من السنين. اغلقت الباب وراءها وحقنت جسدها به. تفكر في فارسها بشكل لايخطر على بال احد. انها تستعيده كما تشاء، ولا تحتاج الى

اذن منه. تضع كلمتها على لسانه، وتتركه يرددها على مسامعها. وقبل ان تغسل بدلته، تفتش الجيوب، فتعثر على ورقة تقول:
(يمنح العقيد هشام .... اجازة استثنائية لمدة سبعة ايام من تاريخ 8-12-1980 ولغاية 15-12-1980، لغرض الزواج).
احتفظت بالورقة داخل صندوق فضي ورثته عن امها، يضم مصوغات عرسها، ووثائق العائلة واوراقها المهمة، وباقي حاجياتها الثمينة. الورقة تؤرخ اجمل سبعة ايام في عمرها.
(في تلك الايام السبعة، لبست سبعة فساتين، وحل بيديه ضفيرتي سبعة مرات، نقش روحه وجسده في كل موضع في، وبذر طفله البكر في احشائي، فغابت روحي ثم صعدت الى علو شاهق، ولم تنزل ابدا).
حين اختفى العقيد، اخرجت الورقة من مخبئها، مررت عليها المكواة، وحبستها في اطار زجاجي، وعلقتها في غرفة نومها الى جانب بدلته. كلما وقعت عيني على تلك الورقة تتجسد امامي محنة اختي. احتفظت رضية بجميع اوراق الخروج من المعسكر، وخلعه الملابس الخاكية، اوراق المغادرة الرسمية التي تسمح له بالعيش في بيته ولو لأيام معدودات. كانت تفعل ذلك بهاجس غامض كأنها تحتفظ بأوراق القدر.
في الجانب الآخر من العالم هناك اجازات مزورة، هناك انتزاع لأيام العمر رغم عيون النسر ومخالبه. النسر الذي يحوم قريبا باحثا عن الفريسة. نحن الفريسة المغطاة بشبكة للتضليل والاختباء. هناك مغامرة ولعب بالنار. في الباص الخشبية المركونة وراء بيت اهلي في مدينة القاسمية، المغطاة باشجار اليوكالبتوس الكثيفة، في هذا الوعاء الخشبي شبه السري يحدث شيء خطر: اجازات (اوراق) رسمية مزورة للهاربين من الحرب، من تصميم وتنفيذ حسن بلاسم. هناك تعبير مجازي للهاربين من الحرب ابتكره حسن : انهم الجنود الذين (خلعوا ضرس العقل)، خلعوا ثيابهم العسكرية بلا عودة، خلعوا سنا منخورا يوجعهم، ويسلب منهم النوم. في هذا البرج الخشبي هناك مايكفي من الخمر والسجائر

والمبررات لخلع ضرس العقل، بل ولوضع الحكمة في مكانها المناسب. يحدث في الباص حفل لتوزيع اوراق مزورة للاجازات الرسمية. لقد لجأ الينا عدد من الهاربين من الحرب، كانوا بحاجة الى اوراق مختومة ليسيروا بها في الشوارع، ولايفارقوا احبابهم. الاجازة تحمل نفس المذاق سواء كانت اصلية او مزورة. واصلنا الشرب حتى الفجر، وقبل ان ينصرف الرافضين للحرب اخرج حسن بلاسم دفتر الاجازات من جيبه وراح يوزع اوراقه عليهم، يضع الاختام والتواقيع المطلوبة، ويترك لهم وضع التاريخ المناسب. في نهاية المطاف لابد ان يسكر حسن بلاسم، ويصعد عشق رضيية، ويختلط الدمع بالخمر، ويتقدم لخطبتها مني للمرة الثالثة بعد الالف، فأمد كفي لاحتضن نشيجه، وأحدثه عن نموذج الاجازة المعلق في غرفتها. فيتألم كثيرا. وحين يرفع كأسه تسقط كلمة اللوز من فمه، ويختنق بعبرة من بقايا الامس. ثم يبعث اليها رسالته:

(رضية ايتها الجمرة الابدية: كيف قبلت ان يقطر لك عمرك ويحسب بالايام، ويوقع عليه قائد فيلق، اي عمر هذا الذي تحيطه الاختام والتواقيع والرتب العسكرية؟ النموذج المعلق فوق سريرك لم يعد نافذ المفعول. ارسل اليك نموذجا لما تبقى من العمر. بامكانك ان تقولي اني مريض بك، مدمن، مجنون. اخترت ان اكون نقيضا لمن تنتظريه. ولكي اصل اليك لابد ان امحو كل الصور التي تعشعش في ذاكرتك، واواصل لعبي بناموس الحرب، و تقليل التوابيت الملفوفة بالعلم الوطني. اذا وصلك النموذج فاملئيه على مهلك.

انت حرة فيما تكتبين. سوف اضع البداية، اليوم الذي صرت مجنونا بك، واترك لك ان تضعي النهاية بنفسك)

★★★

مهرجان الحرب

(الحرب العراقية الايرانية 1980–1988)

في التاسع من نيسان عام 2003 سقط الطاغية، فألتقى كأسان من الخمرة المحلية، واحد بيد حسن بلاسم والآخر بيدي. هذه هي الكأس الاولى في العهد الجديد. لقد اتفقنا ان نعطي رقما لكل كأس عامرة بالدلالة، او تتزامن مع اكتشاف سر جديد في رحلة البحث عن هذا العقيد الذي اصبح قطبا ندور نحن حوله، واحتل طاولتنا الخمرية. شربنا الكأس رقم 1 في الحقبة الجديدة من تاريخ العراق، وكان فاتحة للبحث عن مصير زوج اختي. بعد سنوات من الجمود اصبح من الممكن اعادة فتح ملف المفقودين في الحرب. سقطت في وقت واحد كل السواتر الترابية وغير الترابية التي تفصل البلدين المتحاربين. اختفت منطقة الحرام، وسقطت معها حقبة طويلة من اللاحرب واللاسلم التي اعقبت وقف اطلاق النار عام 1988. اصبح بامكان الباحثين عن ذويهم الدخول الى الكثير من الانفاق الرسمية والشعبية التي كانت قبل يوم واحد مغلقة تماما. اصبحنا على تماس مباشر مع (العدو)، نكلمه ويكلمنا. المحاولات اليائسة والمتكررة مع قسم المفقودين في وزارة الدفاع والجولات الدورية على المستشفيات ومخافر الشرطة ومستودعات الجثث ومعهد الطب العدلي والصليب الاحمر الدولي، كل هذه النشاطات تراجعت الى الوراء، بل لم يعد لها لزوم .

تمخض عن تلك السنة ولادة (**مهرجان الحرب**)، وهو اكبر لقاء ل (ذوي الحرب)، وهي الفئة التي عاشت الحرب بكل دقائقها ومازالت تحملها اينما حلت، سواء كانوا محاربين نجوا منها، او هاربين منها، او اسرى، او معوقين، او معلقين

مثل اختي رضية وغيرهم. انبثق المهرجان مثل مارد محبوس في قمقم، وكبر بسرعة جنونية ليحتل مكانه شرق البصرة، تحديدا في منطقة (الشلامجة) الحدودية بين ايران والعراق. اصبحت المعلومات الحية تخرج دون اذن من أحد، وصار بالامكان الوصول الى مناطق الاحداث ورؤيتها بالعين المجردة ولمسها باليد.

على الارض اصبح من الممكن الوصول الى اية بقعة من ساحة العمليات الممتدة على طول الحدود وازالة التراب المتراكم على الحوادث. تحركت الاصابع لفتح القبور، جمع عظام القتلى، اطلاق سراح الاصوات المحبوسة لضحايا المعارك، وسماع وصاياهم وهم قريبين من الموت او في النفس الآخير. واصبح ممكنا ايضا الدخول دون صهيل المدافع وجنزرة الدبابات ودخان البارود . خط العداوة انهار، بعد ثلاثة وعشرين عاما من الصمود. هذا الخط يمتد لأكثر من الف ومئتي كيلو متر، معزز بحقول الالغام والاسلاك الشائكة وخنادق الماء والنار والبانزين المشتعل. الآن بدأت حرب من نوع آخر لأزالة كل الحواجز التي تمنع لقاء الشعبين. شطبت تأشيرة الدخول، واصبح ممكنا اللقاء بمن تشاء، ومتى تشاء.

بعد سبعة عشر عاما على غيابه اتصل حسن بلاسم بي تلفونيا ليبلغني انه عاد الى بغداد. طلب مني ان اهرول الى لقائه في المكان المفضل دوما. لقد كانت مصادفة من اروع مايمكن، فقد وجدته في مقره القديم حانة (صهيب)، لم يتغير، كأن السنين لم تؤثر فيه، بينما كانت هزيمتي امام الزمن واضحة المعالم. رحت اطري قدرته على قهر السنين، فالغربة قد زحفت الى حاجبيه وصبغتهما بلون رمادي، لكنها لم تؤثر على وهجه وجرأته. وسرعان ما عرفت ان عودته لم تكن بدافع الحنين لوحده.، فمع بدء الحملة الامريكية لاسقاط النظام في العراق قدم نفسه كمتطوع. ومن قاعدة اينذهوفن ارسل الى بودابست ليلتحق بمعسكر المتطوعين العراقيين (**مجموعهم: 72**) الذين سيرافقون الحملة، ويتولون الترجمة والدلالة لمرحلة مابعد اسقاط النظام.

قبل أن ندخل مهرجان الحرب العراقية الإيرانية ، يجب تقديم معلومة مهمة. يقف وراء هذا المهرجان شخصان (عراقي وأمريكي): **حسن بلاسم والرائد ستيفن.** الأول هو صاحب الفكرة والمخطط ، والثاني هو المدير التنفيذي. استطاع العقل التخطيطي للمهرجان تقليص الحرب التي استمرت ثماني سنوات في ثمانية أيام ، وعلى مساحة ثمانية هكتارات. اختيرت منطقة الشلامجة شرقي البصرة كموقع للمهرجان ، حيث تحتوي على أشرس المعارك وأكبر عدد من الضحايا ، وفي نفس الوقت مقر للفيلق العراقي الثالث الذي تدور حوله العديد من فصول هذا الكتاب. أما بالنسبة لتمويل وتنفيذ المهرجان فهي الدائرة الهندسية للجيش الأمريكي بإشراف الرائد ستيفن صديق حسن المقرب الذي عاش معه في دبابة واحدة من الكويت إلى بغداد ودخلا القصر الجمهوري سوية . كان للاثنين أكثر من قاسم مشترك واحد. باستثناء المهمة التاريخية (إسقاط صدام) التي جمعتهم ، هناك مهمة أخرى تتعلق بأرشيف النظام. كان الرائد ستيفن حريصًا على معرفة شبكة النظام وعملائه في العالم. أما حسن بلاسم فهو ابن مدينة القاسمية والعدو الأول للحرب ، الذي أنهى دراسة التاريخ في هولندا ، وعاد إلى العراق ليصنع التاريخ بيديه، حتى ولو بنسبة واحد من . 130.000 جزء (الحملة الأمريكية لإزالة صدام = 130.000 جندي)..

وهكذا عاد حسن بلاسم من المنفى عام **2003** برفقة الجيش الامريكي، ودخل معهم الى القصر الجمهوري، ودار في اروقته باحثا عن الوثائق والسجلات وارشيف النظام السابق واجهزته، وجمع كما هائلا من المعلومات عن الجيش المنحل وعن اخطر الاجهزة. عادت جلساتنا الخمرية شيئا فشيئا، مضافا لها تلك المعجزة التي لاتخطر حتى في الاحلام، معجزة تتجاوز كل حالات السكر التي عشناها. المعجزة هي زوال النظام الديكتاتوري، هذا الحدث الذي يتجاوز اعلى مستويات الخمرة التي شربتها وحالات السكر التي وصلت اليها سابقا. كان حسن صريحا وجريئا معي، فلم يتركني اسيرا لتلك الفكرة الطوباوية الغيبية حول سقوط نظام

صدام. كان كلامه اشبه بالمطرقة قائلا: (الدبابة الامريكية هي المعجزة). ثم وجدته يتحدث عن العراقيين بطريقة قاسية متهما اياهم بنكران الجميل، و(أنهم يعانون من **خلل اخلاقي** يمنعهم من اقامة نصب للدبابة الامريكية او الوقوف دقيقة واحدة في السنة على ارواح الجنود الامريكان او البريطانيين الذين سقطوا في عملية حرية العراق).

سألته عن شعوره وهو يسمع من بعض اقربائه انه عاد (**على ظهر دبابة امريكية**)، ضحك بتهكم، ضحكة مصطنعة، كأنه سمع نكتة قديمة مكررة. استغرب من بقاء هذه العبارة، قال انها ذات العبارة التي اطلقت على مجيء صدام للسلطة، ويرددها بعض العراقيين (لقد وصل صدام للسلطة على ظهر دبابة امريكية). لقد تغير حسن بلاسم كثيرا، لم يعد للحس الشعبي وللجماهير مكان فيه. راح حسن يؤكد من جديد على (الخلل الاخلاقي) الذي يتسم به غالبية العراقيين: نكران الجميل، قال انه يتوقع منهم ماهو اسوأ، ماحدث مع البريطانيين في اوائل القرن الماضي، قد يتكرر مع الامريكان. فقبل مئة عام تقريبا قامت بريطانيا بتحرير العراق من حكم عثماني دام 400 عام. انشأت بريطانيا للعراقيين دولة حديثة، فكان اول مطلب للعراقيين هو طرد البريطانيين. القصة معروفة في ثلاث حوادث: 1920، 1941، 1958. تحدث حسن بلاسم بألم عن موهبة العراقيين في تضييع الفرص، وصناعة الاعداء، وانكار الجميل طبعا. تحدث عن (تدني) الوعي الجماهيري، عن المستوى الضحل الذي لايفرق بين الحمار والطائرة، بين من يسير حافيا في ازقة مظلمة بالية لمدة 400 عام، وبين من يسافر بالطائرة ويشعل مصباح الكهرباء، و يعبر جسرا بدل القارب، و يدرس الطب بدل التعاويذ. تحدث حسن عن هيمنة الدين والعشيرة، عن اساقفة المقاهي العاطلين عن العمل (افندية بغداد) الذين لايختلفون شعرة واحدة في عقليتهم عن الضباط العثمانيين، و عن (الثوابت الوطنية) التي صنعتها قصائد الشعراء وانصاف المتعلمين. كان حسن بلاسم مستاءا جدا. لم اتركه لسطوة هذا الصحو، فاسعفته بكأس من الخمر اعادت اليه مزاجه المرح، فاكمل حديثه عن الدبابة الامريكية بشكل ساخر:

(ليس صحيحا يا صديقي، لم اكن على ظهر الدبابة الامريكية، بل في باطنها. ظهر الدبابة الامريكية (ابرامز) لايصلح للركوب، فهو مثل مناخ العراق: حار جهنم صيفا، وبارد مثلج شتاءا، لكن باطنها مكيف مثل فندق خمس نجوم).
قال انه لم يشعر بارهاق طول الرحلة من الكويت الى بغداد، بل انه كان ينام احيانا لدرجة الشخير. ثم رأيته يزفر بحرقة، ويبدي خيبة امله:
الدبابة الامريكية هي التي حققت في خمسين يوما ماعجز العراقيون من تحقيقه خلال 35 عاما. لقد فشلت جميع محاولاتهم، وتضحياتهم: من مؤامرات، وحرب طاحنة 8 سنوات، ومعارضة في الخارج، الى انتفاضات، ونضال في الجبال، وتضحيات في السجون، وتضرعات في شبابيك الائمة واضرحة الاولياء، وانتظار ظهور المهدي او الطاعون او غضب السماء.
تطرق حسن بلاسم الى صديقه ورفيقه في عملية حرية العراق الميجر ستيفن. قال انه تبادل معه نفس الحديث عن عجز العراقيين امام الطاغية واجهزته وحرسه: (لقد خلع العراقيون شبابيك الاضرحة المقدسة، فلم تفعل لهم شيئا، وتوسلوا بالشيطان لكنه وشي بهم، فقام الطاغية بمضاعفة اذلالهم، وراح يطعمهم الدقيق الاسود المخلوط بروث الحمير). تحدث حسن بلاسم بحنق شديد عن (الجرذان) الذين اخرجوا رؤوسهم فور سقوط الطاغية، وراحوا يبعثون اليه رسائل تهديد، واوصاف بذيئة مثل الخيانة و التجسس. قال انهم حاولوا اكثر من مرة اختطافه، فاتصل ب**الميجر ستيفن** ليؤمن حمايته. في الحقيقة ان مايحمله حسن بلاسم من امتنان للتدخل الامريكي لايمكن اختزاله بكلمة واحدة. وفيما يتعلق ب (**مهرجان الحرب العراقية الايرانية**)، فقد قدم الميجر ستيفن مختبرا متكاملا لفحص الحامض النووي والتحقق من هوية الجثث التي يتم العثور عليها في المقابر الجماعية والسواتر الترابية في جبهة الحرب، وتدريب المتطوعين على استخدام المختبر. تعرفت على الميجر ستيفن، فوجدته مخلوقا ديناميكيا سلسا، يحمل اذنين رائعتين، فتحهما لحسن وعرف من خلاله كل ما يتعلق بنا اثناء الحرب: ايامنا العصيبة ومحنة اختي رضية واوكارنا السرية، فبادر بالسؤال عن باص

الخشـب، فقلت لـه انهـا مـازالت في مكانها: (لقـد ادت دورهـا في الحـرب على اكمـل وجـه كمـأوى للهـاربين، ومن لاسـقف لهم. لم تعـد بـاص ابي قـادرة على الانتقـال المكـاني بعـد شـلل محركهـا، فتحـورت على ايـدينا لتكـون قـادرة على التحـرك داخـل الزمـان، تسـتظيف البـاص روادا من أزمنـة غـابرة سـحيقة في القـدم ومن أمم شـتى : فلاسـفة ومؤرخين وعلمـاء ورجـال دولـة ورجـال اعمـال وفنـانين.) . اتصل الميجر ستيفن بوحدة الهندسة في الجيش الامـريكي. لم تمض يومـان حتى وجـدت بـاص والـدي محمولـة على ظهـر احـدى النـاقلات الى قلب المهرجـان. وليس بعيدا شيد مصغر لحانة صهيب، و نقل الكثير من وثائقه وصوره الى جانب معـدات التزوير. وبدأت معالم تلك الحرب ورموز تلك المرحلة تتقاطر على اللجنة المشرفة. لم تمض سـوى ايـام حـتى وجـدت احـد رواد حانـة صـهيب، صـانع العاهـات المـدعو (**سالم رويسة**) وهو ينصب خيمته ليعرض فيها ادواته وفنونه في تعويق الجنود ايام الحـرب (خلـق اعاقـة محـدودة تعفي صـاحبها من القتـال): عـدة الخلـع وتوسـيع الجـروح، وتعطيـل شـفاء الكسـور، و قطـع بعض الشـرايين، وتمزيـق العضـلات، وشـل جـزئي في بعض اعضـاء الجسـم، مـع كافـة الاعشـاب والشـروط اللازمـة لتحويـل المسـلح الى غـير مسـلح، اي تحويـل المحـارب الى نقيضـه، تحـويل القـادر على حمـل السـلاح الى نقيضـه، تحويـل القـادر على القتـل الى نقيضـه، تحـويل مشـاريع المـوت المحقق الى مشاريع اعاقة مؤقتة.

تجاوب الناس مع نداء لجنة المهرجان، وبدأ سيل المبادرات: خيام، طعام، حنفيات ماء، حاويات زبل، سيارات نقل، حفارات حكومية واهلية،اجهزة كشف الالغام ، قوارب مع سنارات الصيد، اقفاص لقنص الحيوانات، معدات تسلق النخيل، مناظير التكبير، ومعدات اخرى صغيرة يصعب حصرها. حرص القائمون على المهرجان ان يكون اللقاء حيا لكي تتدفق المعلومات دون عوائق، وخرجت من التلقائية نتيجة رائعة سمحت بحضور واسع لتفاصيل الحرب.

★★★

كلمة حسن بلاسم في افتتاح مهرجان الحرب

كان حسن بلاسم يستغل اية فرصة للاعراب عن امتنانه للجيش الامريكي. فهو لايستخدم كلمة(محتل) مطلقا، بل (محرر). قال ان صمت العراقيين ازاء البديهيات يزعجه كثيرا. من جهته سوف لن يصمت، حتى يتعلم العراقيون العرفان بالجميل اسوة بباقي البشر. في كلمته لافتتاح مهرجان الحرب عبر حسن بلاسم بصريح العبارة أن الوجود الامريكي في العراق هو العامل الاول الذي سمح باقامة مثل هذا المهرجان، وفتح الكثير من الملفات العالقة . ووضع حدا لحزمة كبيرة من الأسرار التي اخفتها الدولتين المتحاربتين. تحدث حسن بلاسم عن عام 2003:

(......جاء عام 2003 ، حدث شيء عظيم في العالم ، شيء ما قد يحدث في المخيلة ، أو مرة كل مائة عام ، في هذا العام (2003) ، قامت أمريكا بعمل عظيم للعراقيين: إسقاط نظام صدام ،اقتلاع حزب البعث الفاشي ، حل الجيش العراقي. الحرية ، الديمقراطية صناديق الانتخابات. قبل يوم من دخول امريكا كان راتب المعلم العراقي 3 دولارات شهريا ،بعد اشهر صار راتبه الشهري 400 دولار. اين كانت هذه الدولارات ولمن تصرف وعلى اي شيء تصرف؟. كنت مغتربا لمدة 17 عاما ، ومثلي اكثر مليوني عراقي مغترب لم يجرؤ اي منا الدخول الى العراق كل تلك السنين . كان من المستحيل ان ارى بلدي العراق بدون الدبابة الامريكية. لقد حققت هذه الدبابة في 50 يوما ماعجزت عنه ايران والعراقيون طوال 35 عاما. ....).

★★★

حرصت اللجنة المشرفة في البدء على جعل المهرجان مفتوحا بما يشبه سوق الجمعة، حيث ينادي كل على بضاعته. اسماء المعارك ومعسكرات الأسر محفورة في ذاكرة الناس، هذه الاسماء صارت هي البالوعة لمصائر مئات الالوف من الجنود العراقيين والايرانيين: بحيرة الاسماك، نهر جاسم، والفجر، سوسنجرد،

توكلنا على الله، كربلاء 5، ام الرصاص، معسكر آراك، الحشمتية، معسكر (الورار) الرمادي.
البالوعة هي نفسها، لكن الايرانيين لهم اسماء أخرى. انتبهت اللجنة الى تلك الناحية. من الناحية الاصطلاحية والاعلامية، لاحظت اللجنة المشرفة على المهرجان ان دعاة الحرب في كلا الطرفين قاموا بربط البالوعة البشرية بالسماء.
سعى الجانبان إلى ربط خنادق الجنود بالسماء باختيار أسماء مقدسة للمعارك ، مثل: (توكلنا على الله) و (الفجر). هذان الاسمان مأخوذون من القرآن. يتطلب نقل ضحايا الحرب إلى الجنة شركة لوجستية موثوقة. يبدو أن العرض الإلهي لعقد الحرب فاز بالصفقة. أخيرًا ، وجد صناع القرار في الحرب طريقة أكيدة للاستمرار.
بمرور الوقت بدأت ملامح المهرجان تتضح، وعرف كل مشارك المكان الملائم لعرض ماعنده، وكل زائر الجناح الذي يخصه.
★★★

سألتْ رضية عن جناح المفقودين في المهرجان. حاول حسن بلاسم ان يداعبها فلسفيا، فاجابها بشكل يختلط فيه الجد بالهزل:
(سؤالك يا رضية ليس منطقيا. حين يكون للجنود المفقودين جناح في المهرجان، فهذا يعني اننا عثرنا عليهم. الحقيقة اننا اعددنا جناحا لمن يفتش عنهم، وحسب نظرية اخيك في السوبربوزشن فان المفقود يشبه الأليكترون، يدور حول نواة الذرة، دون مكان محدد. فاذا تخيلنا المهرجان هو النواة فان المفقودين سوف يدورون حولنا دون مكان محدد)
هذا التفسير، سمعته رضية مرارا من فم اخيها، تراه حاضرا على الطاولة كلما شرب اخوها وتحدث معها عن غيبة العقيد. علقت رضية بالقول:
(انه تفسير خمري للفقدان، يخرج بعد عبور اخي حاجز النصف لتر من(**العرق**)، الخمرة الوطنية العراقية كما يحلو له ان يتغنى بها، ولو لا معرفتي التامة بمزاج اخي لقلت انه يتناول مخدرات من وراء ظهري).



اعتمدت اللجنة نظاما لايفصل بين العراقيين والايرانيين. جمع القتلى من الطرفين في حفرة واحدة. اسرى الحرب من الطرفين وضعوا في جناح واحد، في اقفاص متقابلة. في البدء اختلط المعوقون من كل صنف، ثم تم تصنيفهم حسب نوع و درجة العوق. اختفت الحدود، فلم يبق سوى كتلة بشرية حبلى بقيح قديم، طحنت نفسها بنفسها. الدواعي المعلنة حول النزاع الحدودي بين البلدين سقطت بعد زحف الناس الى المهرجان. اعيدت الحرب دون رصاص او دخان. السنوات الثمان اختزلت الى ثمانية ايام.

قسم المهرجان الى خمسة اجنحة هي: جناح القتلى، جناح الاسرى، جناح المعوقين، جناح الاحياء (الناجين)، وجناح المفتشين (عن المفقودين).

وهناك فئة من ضحايا الحرب لم تحسم اللجنة امرهم بعد، لقد شهدوا الموت مرارا فصاروا معلقين بين الحياة والموت. كانوا يترددون بين جناح القتلى وجناح الاحياء، يقضون وقتا هنا، ووقتا هناك. وصارت متعتهم في الجلوس مع نظرائهم الايرانيين وعد المرات التي شهدوا فيها الموت.

★★★

سلمونا قناني زجاجية، وأخذوا بايدينا الى الارض الحرام. هناك من يعرف اين تختبئ الكلمات الاخيرة للقتلى. وكمن يبحث عن الكمأ، ينبش التربة، فيخرج منها الاصوات، ويعبؤها في القناني، ويغلقها بالفلين، ويسلمها الى اللجنة. الحشرجات والاستغاثات والتأوهات وحتى الاتصالات اللاسلكية لن تغادر الارض الا بعد ان ينبت الزرع فيها ويمتص ذاكرتها.

رأينا فرق للحفر واستخراج الجثث، صيادين للاسماك التي ابتلعت الجنود، اصوات القصب، حقول الجزمات العسكرية المتروكة في ارض المعركة، وفرق البحث عن الجنود التائهين في الأهوار وغابات النخيل.

وضعونا في قوارب صيد مع دليل الى نهر جاسم، المكان الذي شهد واحدة من اعنف المعارك، لقد اصبح هذا النهر الصغير بالوعة لآلاف القتلى من الطرفين. المشرف على الفعالية يشرح المهمة للمتطوعين من ذوي الضحايا:

(هناك افواج عراقية ابتلعتها اسماك القرش. الكثير من الجنود مازالوا احياء، لم تتمكن هذه الاسماك من هضمهم، قد يحالفكم الحظ وتصطادون ابناءكم. لا تنسوا ان تلقوا الشباك في النهر المجاور: خط الدعيجي، الذي بقي مشتعلا لخمسة ايام، ليل ونهار، ثم تحول الى مقبرة مائية).

غمرت المياه السواتر. كنا نحفر ونصطاد في نفس الوقت. اعطونا مجارف وبلدوزرات وادلاء في خط طويل ممتد من الشلامجة الى كشك البصري. من المحتمل ان تجدوا مفقوديكم احياء مختبئين، ولا يعلموا ان الحرب قد انتهت. لا تنسوا ان تنادوا عليهم بمكبرات الصوت **(الحرب انتهت)**. هناك مواضع مازالت مغلقة وتحوي جنودا احياء وهم موتى، او موتى وهم احياء. هناك من لجأ الى البساتين ليعيش مع الخنازير البرية، وهناك من رأى ما هو صعب ان يرى، ففقد آدميته وعاش على الحشائش والنسيان.

★★★

قريبا من منطقة (كشك البصري) دخلنا احدى الملاجيء. وجدنا جنودا بعمائم من اثني عشر طية. عمائم عالية تشبه البرج. تعلو وجوههم طبقات من ازمنة غابرة. ثيابهم ودروعهم تشير الى عصر بعيد. سجدوا وقبلوا اقدامنا متوسلين ان نستر عليهم، وان لانبلغ الملك (الشاه) عنهم. توسلوا ان لانعيدهم الى ديارهم، فالعار والموت يلاحقهم. قالوا انهم من بقايا معركة جالديران (1514 م)، وانهم هربوا من الميدان عند اقتراب الموت. كانوا يحرسون **بيروزة خانم** زوجة الملك (الشاه اسماعيل الصفوي). قالوا ان كتيبة من خيالة الانكشارية، القوة الضاربة للجيش العثماني، اغارت عليهم فتركوا اماكنهم واستولى العثمانيون على المخيم واخذوا من فيه من النساء اسرى (سبايا). قالوا انهم عصيون على الموت، وهذا سر عذابهم والارق الدائم في عيونهم. وقالوا انهم لايريدون العودة الى زمنهم، وتوسلوا

الينـا ان نبقيهم ونتسـتر على وجـودهم. سـألناهم ان كـانوا يعرفـون اي شـيء عن العقيد هشام الخوصر. قالوا انهم سمعوا بهذا الاسم، لكنـه لم يكن يحارب معهم، بـل في الجـانب الآخـر، اي ضـدهم، و انـه قـاد لـواءا مـدججا باسـلحة فتاكـة، وقتـل الكثـير من فرسـان الجيش الصـفوي (القزلبـاش). وان السـلطان العثمـاني سـليم الاول منحه زوجة الشاه الأسيرة (بيروزة خانم) هدية تقديرا لبطولته.

★★★

في شرق البصرة، القاطع الجنوبي لجبهة الحـرب، على بعد خمسة عشـر كيلومـترا شمال منطقة الشلامجة يوجد حقل فسيح للجزمات العسـكرية المتروكة. في هذا الحقل يوجد اكثر من خمسـين الـف زوج من الاحذيـة العسـكرية المجففـة، جمعت من مواضـع متفرقـة، وتمثـل الحصـاد التقريـبي لعـدد الهـاربين من معـارك شــرق البصـرة. لايوجـد سـجل رسـمي لاسـماء الـذين كـانوا يلبسـون هـذه الاحذيـة، لكننـا عثرنـا على وثـائق فـرق الاعـدام الـتي كـانت تنتظـرهم. يعطـي التخلص من الجزمـة للهـارب تعجيلا فائقـا بسـبب قـانون الفعـل ورد الفعل. التخلص الفجـائي من الجزمـة يشـبه عمليـة اطلاق الصـواريخ في المركبـات الفضـائية. ومن الواضـح ان العـدو لم يكـن معنيا بالاحذية العسكرية لذلك تركها في مكانها، واستحوذ على الاسـلحة فقـط، فبقيت تلـك المخلفـات تحت الشـمس لعقـدين من السـنين. هنـاك حقـل للخـوذ المثقوبـة بالرصــاص، لم تسـنح لي الفرصـة لزيارتـه، لكـني حصـلت على صـورة فوتوغرافيـة لـه. امـا الاصـوات فقـد تم تعبئتهـا في قنـاني، واخـذت عينـات من رمـاد الرؤوس لفحص الحامض النووي.

افاد الرعاة ان الاغنام تتجنب المـرور من هـذين الحقلين، حيث تسـمع اصواتا غريبـة كلمــا هبت الــريح. اخــذت اللجنــة هــذه الاشــارات على محمــل الجــد، وزودت المتطوعين بقناني زجاجية لتفريغ الاصوات التي يعثروا عليها.

دخل سـائقو البلدوزرات (من الطرفين) الى المهرجان بمـوكب جنـائزي، وجـوههم تفصح عن اجوبـة لاسـئلة عتيقـة، فهم المسـؤولون عن دفن الحقيقـة. يعرفـون دورهم، ويـودون نسـيانه. كـانوا الاقـرب للمـوت، قبـل و بعـد المعركـة. المطلـع الاول على

مقابر الموتى و الاحياء. مع كل حفرة يضيفون لغزا جديدا، يحولون الجنود الموتى الى مفقودين. وكان ذلك عسيرا، لكن الاوامر، والروائح، وشعار المسلمين (اكرام الميت دفنه) . كثرة الموت،سهولته، وسرعته تجعل الدفن هينا، فلا علامات للمقابر سوى في داخل الضمير. جلس احدهم فوق تلة وغطى وجهه بحفنة من نفس التراب الذي دفن به سرية من الجنود قبل عشرين عاما. كان القيء الوجداني يشير الى مقبرة جماعية. يرافق كل بلدوزر مجموعة من المتطوعين يحملون مجارف وفؤوسا. بعد ان يزيح الجزء العلوي يبدأ عمل الحفارين، بحذر كأنهم في حقل من البطاطا. تخرج من الحفرة كل الاصوات المحبوسة منذ سنين، العبارات المختزلة الدالة على قرب الموت: **بدأ الهجوم، هل تسمعني؟ اجب.** اصوات الاسلحة، الله اكبر، استغاثات، اسماء اولياء، النجدة: انا انزف، من يسد جرحي؟ نداءات لاسلكية: **هل تسمعني؟ اجب.** لقد عبروا الساتر الترابي، انهم في اشتباك مع الفوج المتقدم. هل تسمعني؟ اجب. انهم يسيرون فوق ملاجئنا، يدخلون فيها، يصرخون: الله اكبر، هل تسمعهم؟ انا اكلمك، هل تسمعني؟ انقطع الاتصال بالفوج المتقدم، هل تسمعني؟ اجب. انا لا اسمعك، هل تسمعني؟ انهم يعبرون على جثثنا. هل تسمعني؟ اجب. بعد دقائق سوف يصلون اليك، هل تسمعني؟ انا لا اسمعك، **هل تسمعني؟. اجب.**

البلدوزرات تتحرك وفق ذاكرة مريرة. يختلط الحفر بالندم. البلدوزرات ترسم على الارض اشكالا تبدو عشوائية، يصعب توقعها. كلما تذكر احد السائقين مقبرة جماعية، انطلق الى هناك ليصنع حفرة. المتطوعون يتبعونه بمجارفهم. يبدأ هناك فصل اكثر مرارة ، ذلك ان اكثر المتطوعين هم من ذوي الضحايا . بتأن شديد يبدأ فرز اقراص الهوية، مسح التراب، قراءة الاسماء، لملمة العظام في اكياس بيضاء.

★★★

في القاطع الجنوبي لجبهة الحرب(شرق البصرة) تغيرت طبائع الكثير من الحيوانات والحشرات. لقد معظمها صار يتغذى على مخلفات المعارك. تطورت

حاسة الشم بحيث تميز الحي من الميت. وتغير الحجم مع الوقت ومع زيادة الخسائر البشرية. هذه المخلوقات الصامتة تخرج من البساتين ليلا لتهاجم الجثث المتروكة في ارض المعركة، تنتظر خروج النفس الأخير للجندي الجريح لتنقض عليه وتفتته. هناك نوع من العناكب صفراء اللون، يتغير حجمها حسب ما تلتهمه، فلو التهمت فيلا فسوف تكون بحجم الفيل ، ولو التهمت فوجا من الجنود، فسيكون حجمها مساو لفوج مشاة. وتستهويها العيون قبل اي عضو آخر في الجثة. للتفرج على هذه العناكب جلبت لجنة المهرجان خمسة منها، وهيأت لها ساحة كبيرة احاطتها بسياج حديدي مشبك. كان منظرها مفزعا وهي تستعرض ارجلها الثمان، وعيونها المئة، وحجمها الذي يقرب من جرار زراعي. العنكبوت في شرق البصرة حول طريقته في العيش. لم يعد راغبا في تبديد الوقت في بناء البيت، ودهنه بالبراز الصمغي، والجلوس بانتظار الفريسة. تغيرت ذائقته من الحشرات الصغيرة الى التهام القتلى من الطرفين. هذه الفريسة مضمونة ولا تتطلب من العنكبوت صبرا وهندسة و حسابات رياضية.

وحمل احد المشاركين في المهرجان على كتفه نسرا بجناحين طويلين، وراح يسرد ما رآه. استغرقت معركة (شرق البصرة) ثلاثة واربعين يوما . خسر الايرانيون مئة وخمسين الف، وخسرنا ستين الف. اضيفت الى صفحات المعركة صفحة النسور. بناءا على اوامر القيادة العامة قام الفيلق الثالث بتدجين فوج من النسور (الحوم)، سوف تطلق في سماء المعركة لتنظيف الميدان من الجثث. ولدت الفكرة على اثر نشيد تعبوي بثته القناة التلفزيونية الرسمية: (يا حوم اتبع لو جرينا) وتعني (ايتها النسور الجائعة اتبعينا فنحن سنوفر لك طعامك). هذه النسور لم تدرب للتمييز بين العدو والصديق، فاصبحت مسؤولة عن عدد كبير من المفقودين من الطرفين.

لم تتوقف موجة التحول عند النسور والعناكب، حيث لوحظ ان طائر العقعق غير طبائعه ايضا. ذكر فلاح من منطقة الزريجي انه شاهد سرب من العقعق تتعاون على حمل جثة ونقلها بعيدا لتكون طعاما للشتاء.

شـيئا فشـيئا راحت دائـرة البحث عن العقيـد تتسـع ودخلنـا انـا ورضـية في بطـون الحيوانـات البحريـة الـتي زحفت من الخليج لتبتلـع الجثث الطافيـة في انهـر البصـرة واهوارها.



سمك الجرجور

حضرنا عرضا حيا لاستخراج احد الجنود المفقودين من بطن سمكة، طرحت على طاولة، مترين في ثلاثة، وكانت بيضاء منفوخة مثل حامل في شهرها الاخير. قبل ان يفتح بطنها قدم ممثل المهرجان تعريفا موجزا:سمكة (الجرجور). لفظ اسمها بحرف الياء كما يلفظه اهل الخليج (يريور)، من فصيلة القرش، يطلق عليها علميا (موستيليوس) او كلاب الصيد. أكل القرش مسموح (حلال) في الخليج والبصرة، وممنوع (حرام) في باقي انحاء العراق. عين المحاضر مكان صيدها في شط العرب قرب جزيرة (ام طويلة)، ثم ترك مكانه الى الصياد البصري (من سكنة منطقة السيبة في شط العرب) ليروي قصتها. قال انها هي التي اصطادته. رمت بنفسها الى قاربه. كان بامكانها ان تمزق الشبكة او تقلب القارب، لكنها لم تفعل. رأيت دموع الامتنان تقطر من عينيها، وعرفت انها في محنة، قد تكون ابتلعت سنارة ثقيلة او ضحية للمتفجرات. حين صعدت الى القارب لم تعش سوى دقائق. ثم رأيت بطنها تتحرك فقلت: يا الهي، كيف تتحرك وهي ميتة؟ وحضر اخي، فارعبه دمعتها وانتفاخها المحير، فقال نسلمها فورا الى الشرطة. حتى تلك اللحظة كنت اشعر انها عطية من الله لنا، او ربما تحوي في باطنها كنزا؟ فنبهني اخي قائلا: هل تنوي ان تأكل بشرا. ثم سحبني لاضع اذني فوق بطنها، فسمعت صوتا مكتوما يخرج من امعائها. قال اخي انها ابتلعت محاربا ولا تقدر ان تتخلص منه. سحبنا السمكة العملاقة الى سيارة البيك آب، وانطلقنا بها لنسلمها الى مستشفى البصرة.

جاء دور خبير الطب العدلي، فاستعرض سكاكينه.كان خليطا من بائع سمك وجراح. شق بطنها طوليا، وراح يدس سكاكينه الصغيرة، ويباعد بين اللحم والغضروف ليسمح للمحارب بالخروج دون أذى، مثل جنين من بطن امه. رأينا حبلا غارقا بالدم يربط سرته بمعدة السمكة، فقام ببتره . كان الجندي عار تماما، فقد ذابت ملابسه العسكرية، ولم يبق سوى قرص الهوية، الذي اذيع من خلال مكبرات الصوت في المهرجان على الفور: (زيدان جابر، لواء 45، فرقة 11). تم شطفه، تعقيمه، لفه ببطانية، واعطي قدرا من الحليب. بدأ يستعيد وعيه تدريجيا. لم تمض سوى نصف ساعة حتى وجدنا اهله يهرعون اليه، يشبعونه صراخا و عناقا وقبلا وبكاءا. تجمع الأهالي وذوي الجنود وراحوا يمطرونه باسئلة عن مفقوديهم. كان يرد على جميع الاستفسارات، ويعيد الامل لجميع السائلين. وقد انعش ظهوره شقيقتي، وبعث فيها الامل عندما أكد ان معظم الجنود المفقودين هم احياء مثله، وكل ما يحتاجون اليه هو ضربة حظ وصياد ماهر. سألته رضية ان كان قد صادف زوجها، فلم ينف ذلك: نعم، رأيته في المحمرة وهو يعبر نهر الكارون بعد ان حوصر لواء المغاوير، كان يسبح ضد التيار. سألته رضية: وماذا بعد؟ اجاب: ابتلعني القرش، فقطع صلتي بالدنيا. تحول الجندي الى نجم لوسائل الاعلام. تزاحمت حول فمه الميكروفونات: كيف كنت تتنفس؟ كيف تأكل؟ كيف تقضي حاجتك ؟ هل تنام؟ هل تحلم؟ هل راودتك رغبة جنسية؟ هل تنوي ان تعلن نفسك نبيا على غرار يونس؟

على مدار اليوم كان صوت الميكروفون يدعو اهالي الجنود المفقودين الى الذهاب الى (قسم الجرجور)، فهناك الكثير من الاقراش التي تم اصطيادها.

هناك من يطلب المزيد من المعلومات عن تلك الاقراش، موضوع يثير شهية وسائل الاعلام.المشرف على قسم الجرجور يجيبهم: حدث التبدل في طبائع اسماك الخليج عندما اغارت البحرية الايرانية على ميناء (البكر) العائم، فاستسلم طاقم الحماية العراقية دون مقاومة. حين سمع الرئيس صدام بذلك غضب جدا، فامر

بمهاجمة الميناء بالطائرات وتدميره على رؤوس من فيه. في تلك الليلة الحالكة الظلمة اشتعل البحر، فوصلت انواره عيون الساهرين ميناء (ام قصر)، والمخفر الحدودي الكويتي. صعدت الجثث المشتعلة الى علو تجاوز برج الميناء، وكانت اشبه بالعاب نارية قبل ان تعود الى البحر لتطفو على سطحه. قدر عدد المتواجدين من الطرفين بثلاثمئة، بقيت جثثهم تطفو دون ان يجرؤ احد الى التقرب منها. الوحيد الذي خرق حاجز الخوف هو سمكة الجرجور وجدت في تلك الجثث طعما لذيذا. كانت صدمة لتلك الاقراش الخليجية، لأول مرة تتذوق اللحم المطبوخ. بدأت اول تحولات الذائقة وانتقالها جينيا.

ثم حدث طوفان اكبر عندما شن الايرانيون هجومهم لاستعادة المحمرة (خرمشهر). فمن اجل قتل اكبر عدد من العراقيين حطموا جميع الجسور التي توصلهم الى بر الامان. تركوا لهم منافذ اجبارية للهرب لكي يتلذذوا باصطيادهم، او التفرج عليهم وهم يغرقون باعداد هائلة. من لايعرف السباحة مصيره الغرق، حتى لو طلب النجدة، او صرخ باعلى صوته. هذا الجندي كان من الممكن ان يبقى حيا، لو .... ، ما افضع هذه ال (لو) ... لو امتدت له يد او رمى احد المتفرجين بجذع شجرة او سعفة نخيل. هذا النوع من الفرجة لايحدث الا في الحرب. تم قنص من حاول العبور. وهكذا تحول نهري الكارون وشط العرب وفروعهما الى بركة دم. ويبدو ان سمكة كانت حاضرة فانطلقت الى مملكة اهلها في عمق الخليج لتبلغهم عن وليمة لا تنتهي. زحفت اقراش الجرجور باعداد هائلة تاركا موطنها الاصلي. انتقلت من اعالي البحرين والجزر الاماراتية الى مصب شط العرب، الى المنطقة العازلة بين الجيشين (المنطقة المحرمة) الممتدة من الفاو الى ابي الخصيب و الانهر الفرعية: الدعيجي ونهر جاسم، ثم صعدت الى الكارون وترعة بهمشير في عبادان الايرانية. لم يفهم الصيادون الخليجيون سر الجدب والشباك النظيفة الخالية من هذه الاقراش. توقفت سفن الصيد الاماراتية، والقطرية، واختفت اطباق (الناعوض) المتبلة بصغار القرش من الجيل الثالث (ولد الولد)، اي الحفيد.

المعارك بلا انتهاء. غرق الجنود مضمون، فهو عمل مرتبط بالحرب، ومقتضيات كسب المعركة. تتحرك قطعان اليريور على طول القاطع الثالث: من الفاو الى ام الرصاص مرورا بنهر جاسم والدعيجي وبحيرة الاسماك حتى هور الحويزة، مجذوبة برائحة الشواء البشري، ومنجم المعارك الدائمة. حجمها تضاعف ليستوعب حجم الجنود، على مقربة من حجم الحيتان كي تستوعب افواج المشاة التي تدخل المعركة فلا تخرج منها.

لم تحل مشكلة اقراش الجرجور الا بعد الاتفاق بين السلطات العراقية وشركات الصيد الخليجية يقضي بالسماح للمراكب والسفن الخليجية بالدخول الى ابعد نقطة داخل شط العرب وفروعه، مقابل تعهد الشركات بضمان سلامة المحاربين العراقيين المتواجدين في بطون الاسماك التي يصيدونها (اسرى الجرجور).

★★★

في جناح القتلى تم تأسيس بنك معلومات يقضي على البرود الرسمي. عدد قتلى الحرب العراقية الايرانية غير معلن حتى الآن. هناك فرق بين الرقم العراقي والايراني يصل الى ربع مليون قتيل. هؤلاء ليسوا مسجلين كمفقودين، بل هم جزء من لعبة الحرب القذرة، ومعيار لدرجة اللامبالاة بالارواح لدى الطرفين. لايمكن اعتماد الارقام الرسمية للبلدين، فهي تفتقر تماما للدقة والاحترام، بل لايمكن مقارنها حتى بالاحصاء السنوي لأغنام المسلخ في وزارة الصحة. ولتلافي هذا الخزي الرسمي المشترك اقام المهرجان حفرة عميقة تشبه القبر وفرشها بالمرمر وطلب من اسر الضحايا ان يضعوا صور ابنائهم بعد ملأ استمارة تعريف بهم. رفضت رضية زيارة هذا الجناح، مؤكدة ان زوجها حي ، اسير خصوصي لدى ايران.

★★★

وجدنا المعوقين جنبا الى جنب يعرضون بضاعتهم في تصنيف يعتمد نوع العوق ودرجته يبدأ من فقدان اصبع واحد لينتهي ببقاء اصبع واحد فقط. ثم ينتقل

المعروض الى فقدان الحواس فيبدأ بضياع البصر وينتهي بالشم. اثار انتباهنا عدم اعتبار فقدان السمع عوقا. عللت اللجنة ذلك بان فقدان السمع مثل الكآبة ظاهرتان تشملان غالبية الجنود. عوق الاطراف كان مثيرا بعض الشيء. رأينا احدهم يحمل ذراعا مبتورة، مازالت حية، لكنه لم يتمكن من اعادتها الى جسده، كان يلوح بها بيده الاخرى.حاول الاطباء اعادتها الى موضعها، لكنها سرعان ما ترفض الجسد لتعيش بمفردها. كانت تتحرك دون اذن منه، تتناول الطعام، وتشعل الضوء، وتدغدغ الاطفال الزائرين للمهرجان. احدهم قطعت كفه اليمنى، وبقيت حية، يحملها في جيبه. عندما اقتربنا منه اخرجها لنا، تركها تصافحنا، تضغط على اكفنا، فشعرت رضية بالهلع، وسحبت كفها مذعورة رغم حرارة المصافحة. اما العين المقلوعة فقد قدمت لنا عرضا يشبه اللالعاب السحرية. احدهم حمل بكفه عينه المقلوعة مثل كرة الدعبل، انها ترفض العودة الى محجرها، وظل يحلق بوجوهنا بعين واحدة قائلا انه بسبب الاصابة اصبحت رؤيته افضل من السابق. هذا الجندي المقلوع سأل اختي رضية ان كانت تقبل ان يضع عينه في حقيبتها، فقبلت، فوضع تلك الكرة الزجاجية الصغيرة في الحقيبة، ثم راح يخبرها عن المحتويات. احدهم ما زال يرفض التخلي عن رجله المبتورة. يجد صعوبة في الاستسلام للوضع الجديد. حين افاق من التخدير بعد عملية البتر وجد شيئا يخصه راقدا بالمقلوب الى جانبه، كان يظن ان الامر خداع بصر، مزحة ثقيلة، انكسار في الضوء، مخلوق ينقصه شيئا ليكون بشرا، لكنه سرعان ما اكتشف انه يخصه، وانه الجزء الذي يملأ الفراغ المروع الذي لايفارق عقله. امسك بها واعادها الى مكانها الصحيح، لكنه حين نهض لم تنهض معه. الجندي يتذكر اللحظة الفاصلة، هذه اللحظة لاتفارقه انه ليس في وضعه المعتاد، هو ليس على مايرام. هل اصيب في عقله ام في فخذه؟ صار يحتضنها بقوة، وينام معها وهو يحلم ان يصحو من هذا الكابوس ليجدها في مكانها الصحيح. مررنا على محارب لم يبق منه سوى ظله، حين سألناه عن جسده، قال انه تركه في معركة شرق البصرة. قال انه هرب من المعركة، فراح يسابق ظله، وكان جسده ثقيلا

يتباطأ مع كل متر، بينما بقي ظله يعدو مثل فهد. وحين بلغ منطقة النجاة لم يجد جسده.



العرافة

في اليوم الثالث للمهرجان التقينا احد الاقارب في البصرة، دعانا الى قضاء بضعة ايام في بيته. في آخر النهار ذهبنا معه، لكننا لم نبق سوى ليلة واحدة، على اثر مكالمة هاتفية من المهرجان تفيد بوصول سيدة عراقية خبيرة في مصائر الجنود المفقودين. اتصل بنا حسن بلاسم بنفسه . قال ان قدرتها على كشف الغيب قطعا ستكون صادمة لرضية، وربما لي ايضا. ابلغني انه حجز موعدا لنا (رضية وانا)، مشددا ان علينا جلب قطعة من ثياب العقيد العسكرية، وهو ما تتوقعه رضية، فعملتْ على جلبه معها.

قبل ان ارى تلك العرافة كلمني حسن عنها، فقد اقتحمت مقر اللجنة سيدة متوسطة العمر. قدمت نفسها باسم الدكتورة عاتكة الشيباني. دكتوراه في التنجيم، وبكلوريوس في التاريخ. واخرجت من حقيبتها شهادة مؤطرة بالصاج المذهب، وموقعة من قبل العلماء الفلكيين: بهجت الاثري، والآلوسي، وماغي فرح، شهادة في تفسير الاحلام، احضار المخلوقات الشيطانية (الجن) ، انواع السحر، في الباراسايكولوجي والتخاطر عن بعد، شهادات تقديرية من جمعيات فلكية عالمية، نسخ من نوستراداموس، ابن سيرين، صور فوتوغرافية مع زميلتها الفلكية اللبنانية ام عصام قارئة الكف والقدم والعيون، صور مع السيدالآلوسي، ومع السيد الشيباني معلمها وقريبها. وضعت اللجنة هذه الوثائق جانبا، واخضعت السيدة الى عدة اختبارات للتحقق من قدراتها، فتجاوزتها بنجاح، وقدمت للمهرجان معلومات مفيدة عن مصائر اسرى الحرب والجنود المفقودين فيها. خصصت اللجنة لها خيمة كبيرة، وسمح لها بالترويج لبضاعتها بشرط مجانية الخدمة. واستدرك حسن قائلا انه لم يعرفها في البداية، لكن بعد تقليب اوراقها اصبح يشك انها السيدة

عاتكة ارملة احد اصدقائه القدامى، الذي اعدم على يد النظام السابق، الشهيد رعد ابو شيبة، احد رواد وممولي حانة صهيب. لقد حصل تبدل كبير في وجهها ومظهرها، وعرف انها تركت التدريس وتفرغت للتنجيم.

في الخيمة نصبت مرآتها السحرية، موقدها، علقت ابخرتها، نشرت زواحفها، طواويس وقنافذ، ببغاوات ينادون باسماء الزائرين عند مجيء الدور . تقرأ الخرز والحصى، وتخنق العضايا، وتكلم االشياطين (الجن) وتضربهم حتى يعلو صراخهم وتوسلاتهم، تخلط عظم الهدهد بعرف الديك، تطحن ذيول الجرذان مع سرية من النمل المجفف، تطحنهما سوية لتصنع وصفة لارجاع الاشخاص المفقودين الى اهلهم. يزورها الحمزة الشرقي، امام شيعي من الدرجة الثانية، مدفون في العراق، كل اربعاء ليساعدها في فك عقد الرجال، وخمسة من بنات الحسن(امام الشيعة الثاني) تزورها لفك العقد النسوية.

وحين جاء دورنا، خرجت من ركنها، اشارت باصبعها الى الببغاوات ان تسكت، واستقبلتنا بترحاب جم، وقبل ان نتلفظ بحرف واحد،كشفت عن الغرض من مجيئنا: نطقت اسم العقيد ورتبته وصنفه العسكري ولوائه، فصعقت رضية واستسلمت لبقية الجلسة. قالت ان الفقدان سمة ملازمة للحروب، واضافت انها تعثر احيانا على تائهين من ازمنة وحروب بعيدة عنا. كانت على معرفة جيدة بالتاريخ الاسلامي. فتحت رضية كيسها وسلمتها قطعة من ملابسه الداخلية(فانيلة بيضاء).

سحلية سوداء عمرها الف عام، محبوسة في قمقم زجاجي، يتقوس ذيلها الطويل ليرسم حرف النون، ثم يلتف على بطنها كالحلزون، ويبرز فوق رأسها كابرة عقرب. فتحت الفلكية غطاء القمقم ومدت كفها دون خوف، وامسكت بالسحلية من رقبتها، واخرجتها، فراح الذيل ينتفض، صياح مقزز مع قيء. هي وضعتها على لوح خشبي وامرتها بالسكوت، فهدأ الذيل، وسكت الصراخ. السحلية تتطلع الينا بعينين كئيبتين، وفم ينز لعابا، ثم بدأ جلدها يتعرق سائلا اصفرا، وسرعان ما انتشرت رائحة قوية مقرفة. في هذه اللحظة اخرجت السحلية

كل ما فيها من خراء مكتوم منذ الف عام. رجعت المنجمة الينا وهي تحمل ساطورا، وضعته في كف رضية، وطلبت منها ان تستعد لقطع عنق السحلية. كان الطلب فوق القدرة. نظرت رضية الي، وطلبت بعينيها ان افعل ذلك نيابة عنها. اعترضت العرافة، قالت بحدة: هذا لايجوز. رفعت رضية الساطور بعين مغمضة، وكف مرتعشة، ونزلت بها على موضع الرقبة دون ان تراه، ,فكادت تبتر اصبع العرافة. فشلت المحاولة، نظرة خوف واشياء اخرى, لكني تماسكت فلم اترك الجلسة. محاولة ثانية. (لا تغمضي عينيك، تماسكي، اقطعي رأس الجني, عندئذ يتقيأ الجني سر زوجك) .

لابد ان اعترف انني لست اقل ترددا واشمئزازا من اختي. التردد ليس في فكرة القتل وحدها، بل في الساطور وعيني السحلية العجوز وجفنيها المتهدلين. تركت رضية تواجه الامتحان لوحدها، تركتها ترفع الساطور، ازحت وجهي بعيدا، ثم سمعت صرخة مقرفة. فتحت عيني فرأيت الرأس مفصولا عن الجسد. تفجر دم ازرق غزير، وصلت قطرات منه الى ثيابي، كان بلون الحبر الازرق. جمعته العرافة في زجاجة. وبملعقة حملت قطرة ، والقتها في موقد نار، ورمت فيه قميص العقيد، فتأجج بألوان وروائح، ثم حملت مغرفة من غراء حليبي في سطل، ودلقتها في الموقد، فانتفخت، وانبثقت المرايا من سطحها الكروي وراحت تدور من حولنا.

هذا هو علم الشيباني وطريقته. السحلية تهيم في الغيب، تلتقي بالتائهين على وجه الارض، وتجاويف الزمان، تتسلل الى المقابر لتأكل الاطفال، وتستنطق الموتى، وحين نقطع رأسها تغدو كل قطرة من دمها معبرا للكشف عن الغيب. المرايا المسحورة تدور امام اعيننا، تمر على ازمنة غابرة، مثل دولاب الروليت ننتظر ان يتوقف على رقم بعينه، اين سيحط مصير العقيد؟

(ادناه تنبؤات العرافة، اعيدت صياغتها، لتلافي الحشو والتكرار)

اقترب السحر من التجاويف فعثرنا في جمجمة العقيد على كم من المعارك المؤجلة: وجدناه محاربا في كل العصور. ورأيناه في بلاط السلاجقة يستبدل

بزته العسكرية بلباس الفارس جمال الدين ابن نظام الملك المصنوعة من المرجان. وصل اسوار عكا ليكون ضمن جيش صلاح الدين الايوبي. يطوف في الزمان، ليخط اسمه فيه. صيد الفرائس البشرية متعته. اليوم سنغزو خيبر، فصرخت نساء اليهود واغلقوا الابواب، واحتمى الصغار بثياب الفلاحين العزل. واعطى قائد الفيلق الراية للعقيد هشام الخوصر، فخطب في الجند قائلا : لا مكان لمن لايحسن السيف في هذه الدنيا. حين انتهى الأمر كان هناك فراغ روحي شاسع، وغنائم كثيرة، وفلاحون اسارى تحولوا بلمح البصر الى اقنان. وبقي الجنود بلا عمل فسألوه: كيف سنملأ ما تبقى من الزمن ؟ فأجابهم : هناك ممالك باياد لاتحسن القتال، و قلاع بحراس يشربون الخمر، سوف نغير عليهم وهم سكارى

اله الحرب يسكن روحه منذ الولادة، منذ ان تم قطع حبله السري، وتم وضعه بيد امه: مصران خاكي اللون مشبع بدم المشيمة، فسلمته الام بدورها لاخيها، واوصته ان يدفنه في في الكلية العسكرية في بغداد. قبل ان يبلغ سن السادسة اشترى له خاله رتبة نقيب، وملابس القوات الخاصة المفصلة على مقاسه. كانا يذهبان سوية (هو وخاله) الى الكلية العسكرية لمشاهدة حفلات التخرج، ولسقي الحبل السري واضافة سماد السنين، حتى اخضر، ووجد نفسه في فوج واحد مع (المعتصم) ابن الخليفة هارون الرشيد، الذي مازال غضا طريا ينتظر رحيل اخويه (الامين والمأمون) ليكون خليفة لامبراطورية تمتد من اسبانيا الى الصين. وعندما انتقلت الخلافة الى المعتصم تذكر زميله في الكلية العسكرية (هشام الخوصر) فاعطاه الميمنة في الجيش الزاحف الى تخوم الروم لتلبية نداء(وا معتصماه)،

وهنا نجد من الضروري إعطاء فكرة للقارئ غير العربي ليسهل عليه متابعتنا.

في تاريخنا كعرب، هناك قصة وضعناها في الكتب المدرسية ليحفظها طلابنا. في هذه القصة، لعب زوج أختي العقيد هشام دورًا مهمًا.

إنها قصة امرأة عربية تعرضت (للاعتداء) من قبل الجنود الرومان في منطقة (عمورية) شمال سوريا على الحدود بين الدولتين العربية والرومانية. يقال أن هذه المرأة المسلمة طلبت النجدة، اطلقت صرخة باسم الخليفة المعتصم (وامعتصماه)، فأرسل جيشا، وهذا شيء حسن ومقبول في ذلك العصر وهذا العصر ايضا. ولكن ماحدث بعد ذلك يجعلنا نتوقف كثيرالنضع علامة استفهام كبيرة يبلغ حجمها 400 مرة بقدر علامة الاستفهام العادية. لقد دارت معركة عمورية، وانتصر فيها المعتصم وجيشه، ثم بدأ فصل النهب والغنائم واستباحة القرى. هنا نتوقف. لقد عاد جيش المعتصم ومعه 400 امرأة رومية أخذهن اسيرات (سبايا) وزعهن المعتصم على قادة الجيش وحاشيته.

إليكم المشهد الختامي لما حدث كما يظهر في مرآة العرافة:

انتهت معركة عمورية، وحل توزيع الغنائم. كان جيش المعتصم يحمل معه اينما حل ميزانا عملاقا ذو كفتين، وقد حان وقته. ربطت السبايا الروميات بحبل طويل. وقف المعتصم يراقب ميزان العدل. سحبت سبايا الروم لتملأ احدى كفتي الميزان، كان العدد يقرب من 400 من امرأة رومية، وفي الكفة الثانية جلست المرأة العربية الوحيدة التي استنجدت بالخليفة (سبب الحرب). واضح هنا ان المشهد يشبه قاعة المحكمة، والميزان هنا هو (ميزان العدالة). تعالوا ننظر كيف تتحقق العدالة، وتعالوا ننظر الى دور العقيد هشام فيها. اعذريني يا رضية، يا اختي الحبيبة. ارجوك لا تغضبي مني.

نظر الخليفة المعتصم (امير المؤمنين) الى الميزان فوجده مائلا، وكانت فكرة تحقيق العدالة تؤرقه، فقد قطع هو وجيشه مايزيد على الف وخمسمئة كيلومتر لتحقيق هذه العدالة. أمر المعتصم بانزال ثلاثة شقيقات من الميزان المضطرب، وأمر بربط ضفائرهن الى جذع نخلة..اختار المعتصم اكثر قواده جرأة ليخترق الشقيقات الثلاث دفعة واحدة. من حسن حظك ان الاختيار لم يقع على زوجك يا اختي، لكنه للامانة لم يغمض عينيه، او يتقيأ مصارينه. خرج ثعبان من غمده زاحفا، يتلوى ويصدر فحيحا ناعما بينما القرف الفاحش يصعد الى صدور الشقيقات العاريات ليملأهن بالقيء. القيء يبيد الشهوات، لكنه يتوقد في لسان الثعابين. من شق الى اخر واصل الثعبان العربي زحفه، يلظم الشقيقات برمح واحد،

بلا حياء، يلطع فروج العذارى الروميات بلسانه المشطور، ويوزع عليهن بالعدل عصارته السمية. على هذا النحو تم تفريغ الكفة الثقيلة وصار الميزان يسير حثيثا نحو العدل الالهي.
لا تزال هذه القصة محل فخر العرب، وهناك قصائد شعرية تتغنى بها، وتحتل مكانا في الكتب المدرسية رغم الخلل الأخلاقي الفاحش فيها.

هل يعجبك ان ترينه معلقا مثل سروال مغسول، فقد انظم العقيد الى الجيش الاموي، وانيطت به قيادة احدى الكتائب في بلاد فارس لمطاردة المتمرد (شبيب الخارجي) الذي استدرجه الى همدان، وراح ينهشه في غارات ليلية، واسلوب قتال لم يألفه، فابيدت الكتيبة ومن معها، وقطع رأس العقيد وعلقت جثته على حبل غسيل ممتد من همدان الى مراغة مع كل الاذرع التي حملت سيوف الامويين لقمع ثورات الفقراء في العراق و فارس.

في اصفهان تدعي سيدة ايرانية انه مات على فراشها، توقف قلبه و(سلاحه الشخصي) بعد ان اطلق احد عشر رصاصة في ليلة واحدة. ميتة مليئة بالعشق والزبد، حتى انها احتفظت بالشرشف الابيض لليوم الاسود. اشارت الى تحوله من اسير حرب الى مواطن ايراني بعد انضمامه الى (جيش التوابين)، واظهرت عقد نكاح في المحكمة. وقد طالبت السيدة عبر القنوات الدبلوماسية براتبه التقاعدي، بعد ان ابرزت لهم مايكفي من الادلة. المرأة لازالت طرية ومشتهاة، كانت تمثل تجليا لصناعة السجاد الايرانية، ولا زالت تحتفظ بالطراز الشيرازي الذي يجمع الشبق الجنسي والمرجعية الدينية (ولاية الفقيه)، وكانت في اول سيرتها تؤجر للمتعة وفق الشريعة الاسلامية (المذهب الشيعي)، وقد طردت من عالمها اقدم التوابين (وهم اسرى الحرب العراقيين، الذين اعلنوا توبتهم وبراءتهم من نظام صدام، وتشكل منهم جيش لاحقا)، لكنها استثنت واحدا منهم فقط، توقفتْ عند جريح طويل القامة، ذو انف عالي رغم أسره، وبعد ان اعتنت به،

وسـهرت على راحتـه بـدأت عفونتهـا تتنـاقص، وتراجـع العهـر فيهـا، وبـدأ غشـاء بكارتها يلتئم تدريجيا، واستبدلت ادعية القبور الشيعية باغاني الحرب التي تبثها الاذاعة العراقية، او مايطلق عليها (اغاني الفيلق العراقي الثامن)، بعد اكتشفتْ فيها محرضا للهياج الجنسي. وكانت ذروة الفراش (الاوركازم) اغنية (احنا مشينا للحرب)، حيث تجلس على فخذيه و تظل تصعد وتنزل، حتى تنتصب المنارة وتغور في دهليزها الوردي.

هل يعجبك ان ترين قفص الأسر الذهبي؟

فصاحت رضية بغضب: كفى، من أين تأتين بهذا الهراء؟!، وخرجت من الخيمة باكية، فتبعتها.

★★★

لاادري ان كنت طوال تلك السنين امينا للمهمة التي وضعتها شقيقتي في عنقي.هل كنت ابحث عن زوجها، ام عن قصص لتشويه صورته ومبررات لمحوه؟

كان واجبي هو وضع حد لهذه الثنائية: حي __ ميت، لكني سرعان ما اندفعت باحثا عن ثنائيات اخرى مثل: قاتل __ بريء، فارس __ وغد، خائن __ وفي، وغيرها.

لم يكن من واجبي فتح الجرار المعتقة، ولاشم روائحها. واجبي كان هو دفن الميت، وليس التفتيش في جيوب قميصه.

الورطة التي وقعتُ فيها: ان البحث عن العقيد هو في نفس الوقت توغل في سيرته. هناك بقع مخيفة اتحاشى التقرب منها، وهي الموضوع المفضل لجلسات سكرنا (حسن وانا). فكرة طرد العقيد من قلب اختي تحاصرني، فاشعر بتقزز من نفسي، وهو امر شنيع، لكنه يتلاطم داخل جدران جمجمتي بوعي او بدونه. وبدل ان اركن الى ترك اختي تستمتع بعماها، تتملكني رغبة ان افتح عينيها، دون ان افكر في عواقب هذه الرغبة. لاشك ان رغبتي الدفينة هي جمع حسن و رضية عبر محو العقيد كليا من المشهد.

احيانا يخيل الى ان اختي تريد ثمنا لهذا الانتظار، و للبحث الدائم عنه. احسب انه بعد كل هذه السنين لم يعد مهما ظهوره بقدر نهاية هذه الرحلة. اختي رضية لازالت غير مدركة لماهية الوجود. كانت اختي عنيدة في كثير من الامور حتى الصغيرة منها. وكانت ترى ان الاشياء ينبغي ان لا تضيع ابدا، فهي مثلا لا تتخيل ان اموت يوما. انها تؤمن بوجود مرض يرتبط بالخمرة اسمه (تشمع الكبد)، تذكرني به يوميا، لانه النهاية الطبيعية للادمان على الكحول. ولكنها في نفس الوقت لاتؤمن بانه سيصيبني. تعلل ذلك بمنطق القياس الارسطي الى حد ما. انها تستند الى حقيقة اننا توأم، فتقول لي (كل مايصيبني يصيبك، وكل ما لايصيبني لايصيبك). تقول انها التوأم وحائط الصد الذي يحميني من الاصابة بتشمع الكبد، طالما انها نفسها لاتشرب الخمر. لدى رضية اعتقاد راسخ اننا سنموت بنفس السبب وبنفس الطريقة، مثلا في حادث سير ، تسمم بالغاز، او الشيخوخة. هي تعتقد ان ضياعي شيء غير ممكن، فهو يعني ضياعنا سوية، وما دمنا معا فهو لايعني ضياعا. هي ترى اننا شخص واحد، واظن انها ستموت في اللحظة التي اموت فيها. وقد عشت وانا ممتلىء تماما بهذا الشكل الخطر للحب، فلم اعد ابحث عن غيره. كانت تتنفس انفاسي، وتعيش على كل حرف يخرج من فمي. وكانت تتفحصني لتتأكد ان كنت ما ازال حيا.



الخاتم ضاع

هناك اشياء قليلة ضاعت منها. وعندما انجبت ابنها البكر مصطفى كانت تحث اصبعه ان يكبر كي تضع فيه الخاتم، الذي كان باصبعي عندما كنت طفلا . كان واحدا من خاتمين متشابهين صاغتهما امي لي ولرضية، ونقشت اسمينا عليهما عندما بلغنا الثالثة من العمر. واثناء لعب مصطفى وقع الخاتم، فقلبتْ رضية وجه الارض، الفوق اصبح تحت. كان مصطفى صغيرا لايفقه سر نحيب امه فراح يبكي وهو لايدري كيف يحدد شيئا ضاع، كانت تعيد عليه السؤال: اين

ضـاع؟ وتهـزه من كتفيه. فيظـل صـامتا، ثم يـدور في الحديقـة فتـدور هي معـه، ويخـرج من الـبيت، فتتبعـه، ويظـل يسـير في الزقـاق على غـير هـدى، ثم يبكـي، وتبكـي رضية معه: اين ضاع؟ كانت تمسك باصبعه في محاولة مستميتة لأعادة الـزمن الى الـوراء. كـانت تـود ان تغمض عينيهـا وتفتحهـا علهـا تجـده في اصـبعه. الخاتم يأبى ان يخرج للعيان، كأنه روح من الشيطان. تحسرتْ كثيرا. بقيتْ اختي تـذرع حديقـة الـبيت اياما. قلت لها: سـوف اشـتري لـك خـاتم غـيره، ثم عـدت وصـححت: سـوف اشـتري لـك مثلـه بالضـبط، فتجيبـني لايوجـد مثلـه،كيـف تفهم عذابي، هـذا الخـاتم فريـد، كيـف تضيف كـل هـذا الـزمن؟! كيـف تعيـد الحيـاة لأمي، وهـي تضعه في اصبعك؟! يقولـون ان هنـاك جهـازا يكشـف الـذهب. سـامسـح الـبيت كله. لابـد ان اجـده والا سـوف اجن. سـأنبش الحديقـة نبشـا، سـاحفر النخلـة نفسها . ذهبتْ الى سوق الكـاظمية، طـافت على محلات الصـياغة. اعطاهـا احـدهم شيئا يحدث طنينا عند اقترابه من الذهب، وبقيت تدور في الحديقة تنتظـر الطـنين. جلبت عدسـة مكـبرة وبقيت تزحـف على بطنها. سـألتني ان كـانت هنـاك كلابـا بوليسـية يمكـن ان تعثـر على الـذهب. وذهبت الى مركـز الشـرطة واقنعتهم بجنـون اختـي، فبعثـوا معي شـرطيا يقـود كلبـا. امسـك باصـبع مصـطفى وراح يمـرره بأنـاة على انـف الكـلب، ثم تركـه يـدور في الحديقـة ينبش جـذور النباتـات بقدميـه ويشـم الـتراب بـانف، فلم يعـثر على شـيء. غـابت الشـمس، ودخلت رضـية وهـي تمسـك مصـطفى من اصبعه الصـغير الخـالي من الخـاتم. مـرت سـاعات الليـل ثقيلة. وكـان علي ان اشـرب في تلك الليلة جرعة قوية من الخمـرة لكـي اسـتوعب حيرتها. اختفـى الخاتم في تجاويف هذا الوجود اللامتناهي الذي تمثله المخيلة.

تاركـا اياهـا نهبـا لكـل مـاهو غـامض ومعلق. لا تنـام اختـي رضـية الا اذا فـركت اسنانها بالفرشـاة والمعجون، ووضعت قطـرة لعينهـا، ومضمضت فمهـا ببضـعة ادعيـة، ومحلول ازرق لاذع من صنع ديتول، ثم تدس كفها بين خدها والوسـادة، وتطلب مني ان اقطـر العبـارة التاليـة بأذنها: (غـدا تنتهي الحـرب). في هـذه الليلـة تغـيرت النغمـة

الموسيقية. لم تعمل رضية لي المزة كعادتها، تركتني اداري نفسي بنفسي.
اقتربت مني بصوت مكسور، والسؤال المتورم يغطي عينيها الدامعتين:

اين ضاع الخاتم؟

سنوات طويلة وانا اختار لرضية اجوبة تضمن لها نومة هادئة، لكني في تلك الليلة شربت حتى الثمالة، لعبت الخمرة برأسي، وبدل ان اضع عبارة مهدئة بأذنها، انزلق لساني، ووجدت نفسي اتلو عليها تفسيرا مستلا من فيزياء الكم لضياع الخاتم، كنت خبأته عنها طيلة ساعات البحث والحيرة التي عاشتها. قلت لها:

(انا اعرف اين الخاتم).

فتنفست بعمق، وشع جبينها، وصرخت بوجهي:

(وكيف تتركني اتعذب؟!).

قلت لها: (الخاتم الآن في حالة (السوبربوزشن))

ظلت واقفة تتفرس في وجهي، وتنظر الى زجاجة الخمرة.

هزت رأسها علامة الاستفهام، لا افهمك، قالت بعينيها الضائعتين.

اعدت لها تفسيري:

(نعم . الخاتم الآن في حالة السوبربوزشن، اي الوضع الافضل. لقد ترك الخاتم وضعه السابق عندما كان باصبع مصطفى، ذلك الوضع لم يكن مفضلا لدى الخاتم. لقد اختار الخاتم وضعا جديدا. ربما يريد الخاتم ان يكون في اصبع آخر ، او ربما في كل الاصابع دفعة واحدة، اي انه لن يخرج مهما حاولنا البحث، ولن نعثر عليه ابدا. كلمة ضائع تعني موجود في كل مكان، وهو الحالة المثالية التي يفضلها الخاتم).

نظرت رضية الى الزجاجة الفارغة فايقنت انني شربت ما يكفي لتدبيج هذا التفسير، ثم غابت وعادت الي وهي تحمل سطلا مليئا بالماء، دلقت رضية الماء فوق راسي فشعرت ببرودته تلسع كتفي، وتضاعف مفعول الخمرة في رأسي، فضحكت باسنان مصطكة وبلا انقطاع.



الوضع الفائق

سوبربوزشن

Superposition

نـامت رضـية بعـد ان هـدها التعب، لكـني لم انم. زجاجـة الخمـرة مـازالت تحمـل مايكفي لبقية الليل. ملأت الكأس من جديد، ورحت اتأمل فكرة الوضع الفائق(**السوبربوزشن** Superposition). الألحاح المتواصل للفكرة يختلط بدبيب الخمرة، ويجعل من جمجمتي وعاءا تتحرك فيه شتى الاحتمالات. الفكرة تتشظى لتفسر لي غيـاب العقيـد، وتفسـر ضـياع الخـاتم، واشـياء اخـرى جديـدة بـدأت اراهـا في كأسي. لم تعـد الخمـرة وحـدها تنعشـني، بـل هنـاك تريـاق من نـوع فـائق اسـمه السوبربوزشـن، امتلأت جمجمتي به فصرت اشعر به يسيح على جبيني. نوع من الفكر السائل كأنه حبات التعرق الليلي.

في تلك الليلة رحت انقل مفهوم (السوبربوزشـن) من الفيزيـاء والرياضيات الى الاطار الشعبي. يحتاج الدخول الى هذا الفضاء مزج الفيزياء بالخمرة، ومع قدر من الفلسفة الحذرة والمحسوبة يصبح ماهو غير مرئي وصغير لدرجة التلاشـي في متناول اليد. سأبدأ بعلاقة المرأة بالرجل. هذه العلاقة تتضمن عددا من الاحتمـالات بنسب معينة (الصداقة ، الزواج ، الاخوة ، الابوة ، العداوة ، المحبة ، العشق، الجنس، الزمالة ، التبني ، اللامبالاة، الندية ، الاستعباد، العطف ،وعناصر اخرى مجهولة). هذه المفردات بين قوسين تمثل حالة السوبر بوزشـن (الوضع الامثل) للعلاقة بين الرجل والمرأة. لكننا ولسبب داخي (درجة التطور الروحي و العقلي) او خارجي (الدين والعرف) نختار عنصرا واحدا، عندئذ سوف ينهار القوسان، وتصبح العلاقة محدودة، وعرضة للتلاشي. وهذا ما نسميه انهيار السوبربوزشن (Superposition

Collapse). عمليا العلاقة تتقزم، وتكون عرضة للتصدع جوهريا، حتى لو بدت متماسكة من الخارج. في لحظة الاقتراب او الكشف ينهار النظام كليا، ولا يبقى منه سوى العنصر الذي اتفقنا عليه، اي وضعنا ضوءا لكشفه. بالامكان تشبيه السوبربوزشن وانهياره كالآتي: اي نظام وجودي هو عبارة عن رادار يمسح المنطقة المكلف بها، والتي تتألف من عدة عناصر بنسب محددة (سوبربوزشن). وحين يتوقف الرادار (يمسك بالهدف) عند عنصر معين تختفي بقية العناصر، ويحصل مايسمى بانهيار السوبربوزشن(**Superposition Collapse**). لنعد مرة اخرى لمثل العلاقة بين الرجل والمرأة. هذه العلاقة تتحرك دائريا مثل حركة الرادار لتمسح طيف العلاقة برمته. هذه الحركة حتمية، وحين يتوقف الرادار عند عنصر معين تتبخر بقية العناصر، ولا نرى غير العنصر الذي توقفنا عنده. ولا تعود العلاقة الى سابق عهدها الا اذا تحركنا من جديد. اننا لسبب ما نتوقف عند عنصر الكراهية مثلا، فتتبخر بقية العناصر ولا نرى العلاقة الا صورة للكراهية، وهكذا. السوبربوزشن هو جوهر الوجود، الذي يعني اللايقين (Uncertainity). لقد تم التحقق مختبريا ملايين المرات من هذا الامر، وثبت ان الاليكترون عبارة عن سحابة، وانه موجود في كل مكان حول النواة، وليس له مكان محدد الا عندما نسلط عينا عليه. من الممكن ان نفسر العزوف عن الزواج (العزوبية) بانه رغبة للبقاء في حالة السوبربوزشن، الحالة التي يشعر فيها الفرد (امرأة او رجل) بانه مطلوب من الجميع، وعلى الدوام. بالمقابل فان الزواج هو انهيار للسوبربوزشن، من هنا ننظر الى المعضلة الوجودية لفكرة الزواج، العيب ليس في المرأة او الرجل. في نفس السياق يمكن تفسير الطلاق بانه رغبة في العودة الى حالة السوبربوزشن.

مع الكأس الثالثة للخمرة صعد الى جمجمتي المثال الآتي: سباق الخيل. قبل خط النهاية تكون كل الخيول التسعة فائزة. لو اغمضنا اعيننا، فسوف يواصل السباق سريانه الى الابد، ولن يتوقف الا اذا فتحنا اعيننا، فوجدنا ان احدهم هو الفائز الاول، عندئذ ينهار النظام. ويحدث الشيء نفسه في الروليت او رمي النرد.

اما المرأة الحامل فيمكن ان تبقى محبوبة لمدة تسعة اشهر في نظر زوجها الشرقي التافه (الذي يريد ولد)، لذا انصحها ان لاتذهب الى فحص السونار لان وضع السوبربوزشن الخاص بجنينها سينهار. ويمكن ان نقول ان السوبر بوزشن هو عنصر الاثارة في كرة القدم. وفي هذا اليوم فقدت رضية خاتما ذهبيا ورثته عن امها، كانت قد وضعته في اصبع ابنها مصطفى، فسقط منه. فاما ان يكون في البيت او في الطريق الى البقال، او ، او، او ... ...هي تذرع الطريق عشرة مرات، وتقلب الدار عاليها سافلها، ولاتبق شبرا في الحديقة، حتى يتدخل واحد مثلي طالبا منها الكف عن البحث، قائلا لها: ان الخاتم موجود في جميع ارجاء الارض. الخاتم يريد ان يدخل في كل اصبع ، لم يعد يرغب في البقاء في اصبع الطفل مصطفى ابن اختي. من المحتمل ان التقطه احد المارة وهو في طريقه الى مطار بغداد ومن هناك سيسافر الى الصين او امريكا، ولو سقط منه والتقطه رائد فضاء في وكالة ناسا، فمن المحتمل ان يصعد الخاتم الى القمر او يسقط في مركبة ستدور حول زحل. ومادام الخيال واسعا والاحتمال واردا والخمرة تدبي في العروق فسوف لن اتوقف عن التحليق والتوغل بعيدا في عالم الاحتمال. ساجد نفسي مرة اخرى مع صهري المفقود في الحرب. مصير العقيد هشام هو الآخر بين قوسين متباعدين. انه يترنح بين شتى الاحتمالات (اسير، قتيل، جريح، مفقود، معوق، تائه، مندس، خائن، متواطيء، عميل، مكلف بمهمة، ووو). كل ماتبغيه رضية هو ان يستقر على احد الاحتمالات، تريد لنظام الفقدان واللاتعيين ان يتوقف (ينهار)، لكني اؤكد لها ان زوجها لايريد ذلك، وهو يفضل ان يبقى في حالة السوبربوزشن، لانه الوضع الامثل له.

اننا في الوقت الذي نحرص على تحديد اية علاقة، فاننا نعمل في نفس الوقت على تقزيمها او نحدث ما نسميه انهيار للسوبربوزشن، اي عملية تحطيم للنظام الشمولي من اجل الفوز بعلاقة اصغر، وتحقيق غاية محددة (الجنس مثلا في العلاقة بين الرجل والمرأة). وفي حالة الجندي المفقود في الحرب، يحقق انهيار السوبربوزشن

عمليـة ايقـاف البحث عن المفقـودا، او توزيـع الارث، او فـك ارتبـاط الزوجـة، وفي احسن الاحوال هو المعرفة نفسها.

ومع تصاعد الخمرة ودبيب اللذة الفكرية الفائقة تتصاعد عمليات التحرش العلمي التي اقوم بها، والتي تهدف الى توسيع نطاق الوجود، بحيث تقدم تفسيرا للتصوف الاسـلامي (التصوف السـني على وجـه التحديد)، اي عـالم الخـوارق مثـل ادخـال سيف داخل البطن واخراجه من الظهر دون قطرة دم واحدة. هذه الظاهرة تسمى بالعربيـة (الدروشة)، والشـخص القـائم بالعمـل الخـارق يسـمى (درويش). ان حالـة الـدراويش وهم يطعنـون انفسـهم بالسـيوف تمثـل لي احـدى مظـاهر السوبربوزشـن، حيث يـذهبون الى الاحتمـالات الاخـرى للوجـود، ويقـتربون الى حـد مـا من اطروحـة العـوالم المتعـددة لهيـو افيريت. يـذهبون ب(طريقة) مـا الى وجـه (احتمـال) آخـر للانسان، وجود شـفاف جدا، يمكـن ان يدخل السـكين في جسمه دون ان يتعـرض للاذى. هـذا النظـام ينهـار في اية لحظـة للـوعي. هنـاك رغبـة للوقـوف عنـد فكـرة الحب، الـتي تمثـل في جوهرهـا فضـاءا ممتـازا للسوبربوشـن، فيمـا لـو احسـن ضبط المسافة بين المحبين بحيث لايحصل كشف تام يؤدي الى انهيـار المنظومة. اقـرب تبسيط للسوبربوزشـن هـو وضـع مسـافة مـع الاخـر، او بشـكل اوضـح تجنب معرفتـه، وتـرك مسـاحات كـبيرة من المجهـول تحيـط بـالطرف الاخـر بـدل معرفتـه. في ظـل غياب ادواة القياس او الكشـف يصبح كـل شـيء في حالـة السوبربوزشـن (الوضـع الفـائق). فاذا ضاع خاتم مثلا، فانه سيكون موجودا في كـل مكـان على الارض. واذا تـأخر شـخص عن موعـد، فسـيكون هنـاك عـدد لانهـائي من الاسـباب لتـأخره. بالامكـان النظـر الى العمـر من هـذه الزاويـة، بمعنـى: في ظـل عـدم وجـود اداة قيـاس فـان العمـر يكون في حالة ضبابية(سـحابة) مثـل اي اليكـترون حـول الـذرة. مـاهي اجهزة القياس بالنسـبة للعمـر؟ المـرآة اولا ، ثم العيـون الـتي تخبرنـا، وشـهادة الميلاد، والتقـويم المثبت على الحـائـط، وحفلات اعيـاد الميلاد، ....الخ. كـل هـذه الادوات تعمل على نسـف حالـة السوبربوزشـن، وتجميـد وجودنـا في رقم محـدد، والـذي يطلـق عليه علميا انهيار السوبربوزشـن (Superposition Collapse).

في ظل عدم وجود اية رقابة، فان الحوادث تكون فائقة الوجود، بمعنى انها تتخذ كافة الاشكال المحتملة داخل قوسين. ومنها نستلخص: اذا لم يكن هناك ادواة قياس او مراقبة، فسوف لن يكون هناك شيء اسمه العمر ، بل ان هذا (العمر) سيكون ممتدا من لحظة الولادة حتى اللحظة الحاضرة (العمر الفائق). العمر هو وهم تصنعه ادوات القياس (الرقابة)، فلو ازيلت المرآة والعيون والسجلات، فسوف لن يكون هناك عمر محدد. ولو عزل شخص في زنزانة باربعة جدران، فسوف يتعذر عليه تدريجيا تقدير عمره او حتى التفكير به.

سوف نؤجل الحديث عن الموت، الذي لانعرف حتى الآن: هل هو حالة سوبربوزشن؟ ام هو انهيار للسوبربوزشن؟



أسـرى الحرب

(العودة الى الاقفاص)

الاحتمال الاقوى في داخل رضية هو ان زوجها اسير حرب. هذا الهاجس نبت في رأسها منذ الاشهر الاولى لغيابه، واتصالها بدائرة شؤون الاسرى والمفقودين في وزارة الدفاع. اكدوا لها انه حي يرزق، لكنهم لم يحددوا طبيعة الحياة التي يتمتع بها. جلبت صورته الى المهرجان وهي شبه متيقنة انها ستعثر على من يعرفه. وعززت اللجنة الامل عندما فتحت ابواب المهرجان للاسرى بطريقة غير مسبوقة. لقد اخبروا رضية ان الاسير لايعيش خارج القفص، ومن المحتمل ان تلاقيه في المهرجان.

الاسرى العائدون تحولوا الى مشكلة لأهلهم. عودتهم الى الحياة الطبيعية امر صعب. لقد عاشوا فترة طويلة من حياتهم في حالة اخرى، هي حالة سوبربوزشن ثنائية. كل واحد منهم اصبح يملك هويتين (أسير ، طليق)، كلاهما يسكنان في داخله. بعد كم من المداولات توصلت اللجنة الى اقامة معسكر شامل للاسرى. وسعت الى الحصول على مجمع حكومي متروك من زمن الحرب في شرق البصرة يتألف من خمسة عشر جملونا، واستعانت بقسم الهندسة في الجيش الامريكي لأعادة تأهيله وجعله صورة لأقفاص الاسر السابقة. (قائمة باسماء معسكرات اسرى الحرب في كلا البلدين):

برندك، الحشمتية، التختي، قصر زندان، قصر فيروزة، كهريزك، كرج، رينا، سمنان، بندر انزلي، آراك مخصوص، آراك طريق القدس، جنورد — مشهد، تربة جام — مشهد، معسكر امام رضا — مشهد. معسكر مازدوان، معسكر ساري،

معسـكر منجيـل، معسـكر كوركـان، معسـكر امـام قلي، الـورار— رمـادي، الغزلاني— موصل، تكريت، بغداد.
امـام بوابـة المجمـع وقـف صـف من المتطـوعين لارشـاد الاسـرى والـزوار، ينـادون باصواتهم كأنهم يملؤون حافلات الركاب في كراج النقليات.
تحققت صحة التوقعـات، مـا ان اعلن عن فتح المجمع حتى بدأ الأسـرى يتقـاطرون بصحبة ذويهم او بمفردهم، عائدين الى الاقفاص التي خرجوا منها من قبل.
الصـورة المتخيلـة عن الأسـر اخلت مكانهـا لصـورة حيـة ناطقة. لم يعـد المهرجـان مناسبة لتقليب السجلات والبحث عن الاسماء، بل اسرى من لحم ودم. وبدأت عجلـة الانتظار تدور، فادخلت البهجة الى نفوس المخلوقات القردية، التي عـادت للجلـوس وراء القضبان والترقب. غير ان السؤال الذي لامفر منه:
لقد انتهت الحرب، وخرجتم الى الدنيا، فلماذا عدتم؟
فكان جوابهم الصمت. الدنيا لم تعد لهم، فهي اوسع من عـالمهم. اقـدامهم اختفت، وقصـر نظـرهم، ومـاتت شـهواتهم، ولم يبـق لهم سـوى متعـة النظـر في وجوه بعضـهم، واستحضار السنين.
شـهدنا عروضـا حيـة للحظـة الاستسـلام: يخـرج الاسـير من صـمته، من قفصـه، من وحشـته، يـرمي خوذتـه وكبريائـه الى الارض، يرفـع يديـه ويشـبكهما فـوق رأسـه، قميصه وفانيلته البيضاء، ويبقى نصف عار.
العقيـد صـورة عتيقـة معلقـة على صـدر اختـي. لا نـدري ان كـان سـيتعرف على نفسـه؟ هـل سـيقبل ان يعـود معـك؟ انظـري اليهم، انهم اشـبه بـالقرود. لم يبـق منهم شـيء للعـودة. لحظـة اللقـاء بين الاسـرى موجعة. دبت الحيـاة في الاقفـاص، وبـدأوا يتوسلون باللجنة لتلبية بعض المطالب. نقل لي حسن بلاسم طرفا منها:
(التمسوا ان نحيط المجمع بسياج، ونغلق ابوابه، ونقطع الزيارات عنهم، ونجـردهم من ممتلكـاتهم، ونمنـع عنهم الرسـائل و الراديـو، ونحـرمهم من الـدخان اونعطيهم خمسـة سـجائر يوميـا، وطلبـوا ان نجلـدهم بين الحين والآخ، ونقطـع المـاء، ونجلب

القمل والجرب والاسهال، ونحلق كل مئة رأس بموس واحدة. وكانت هناك حاجة لاتنسى، هي تجميعهم وابلاغهم يوميا ان: (الحرب تنتهي غدا)).
في اليوم الاول سجلت اللجنة اسماء عشرة آلاف اسير عائد الى الاقفاص. كان منظرهم وهم يلاقون بعضهم يفتت الصخر، فشلوا في الخروج الى الدنيا. صرحت فتاة من مدينة الكوت العراقية لاذاعة المهرجان انها جلبت ابيها بعد ان (اصبح من الصعب عليه ان يعيش معنا. بدأ يذوي، وتحول تدريجيا الى عبء. كنا نشعر انه شخص غريب يعيش بيننا، يستحم مرة واحدة كل اسبوعين، ويتناول طعامه في مخزن المؤونة مع اناس لا نعرفهم ولا نراهم. وفي يوم طلب منا ان نحفر له سردابا تحت الارض ليقيم فيه، ورسم صورة تخطيطية له، وسماه (المحجر).). زائر ايراني اعاد نفس الكلمات عن اخيه. جاءت سيدة من مدينة شيراز الايرانية تقود زوجها، الذي قضى سبعة عشر عاما أسيرا في معسكر الورار في الرمادي، الى لجنة المهرجان متضرعة ان تقبله اسيرا فقد حول حياتهم الى جحيم.
لم تقتصر الحرب على تناحر الجيوش، دخلت العقائد الى الاقفاص وصنفت الاسرى الى فئتين: (مغرر بهم) و (مجرمون). الفئتان في النهاية مدانتان، ولكن فئة (المجرمين) اعتبرت في عداد المفقودين، وتعامل على هذا الأساس: فلا رسالة، ولا خبر، ولا صلة بالصليب الاحمر. انهم خيرة المقاتلين من الطرفين، واشدهم ضراوة وقناعة بالحرب، وكانت سيرتهم متوجة بالالقاب، وصدورهم عامرة بانواط الشجاعة. وعندما توقفت الحرب، وتم تبادل الاسرى لم يتطرق اي من الطرفين اليهم. الانكار المزدوج اقرب ان يكون اتفاق مزدوج. جاءت سنة 2003 فسقط الطرف العراقي في الهاوية. وبقي الآخر يتابع الانفاس الاخيرة لخصمه، متلذذا بمصائر قطيع البهائم التي دجنها على مدى خمسة وثلاثين عاما: ذئاب، وافاع، وبغال، وفئران، وغنم، وقرود، واشباه البشر. في هذه السنة تحول (ابطال الحرب) الحاملين لانواط الشجاعة الى (مجرمي الحرب). اصبح كرسي (البطولة) شاغرا لبضعة ايام، فدخل رجال طهران، ومدوا اذرعهم. وصعد سقف

المطالب، فلم يعد حل الجيش العراقي كافيا، وكان لابد من حل الذاكرة، وملء الجزرات الوسطية في شوارع بغداد بصور الابطال الجدد العائدين الموالين لأيران، واقتراح ازالة كل النصب والجداريات التي شيدت لتمجيد الجيش العراقي السابق، والغاء رواتب الجند، وملاحقة المغنين والشعراء الذين غنوا او كتبوا للحرب. جرت عملية تبادل الاسرى المغيبين من طرف واحد فقط. خرج الى الدنيا (ابطال) ايران فقط، اما العراقيون فبقي مصيرهم مجهول، ولا يوجد من يطالب بهم رسميا. العقيد هشام كان واحد من اولئك. شهرته كبطل من ابطال الحرب عبرت السواتر الترابية لجبهة القتال، وانواط الشجاعة ونياشين الحرب وصلت الى الرقم تسعة. هذا هو السيناريو الاقوى الذي يدور في رأس اختي رضية.
علقت اختي صورته على صدرها وراحت تطوف بالمهرجان:

هل رأيته؟



جيش التوابين

(في هذا الفصل ننقل لكم رواية احد اسرى الحرب العراقيين، الذي يتحدث فيها عن لقائه بالعقيد هشام في احد معسكرات الأسر في ايران. يروي ماعاشه وشاهده من تحديات وتحولات خصوصا تشكيل (جيش التوابين) من الأسرى العراقيين، الذين يشعرون بالندم ويحاولون ازالة الشعور بالذنب عن طريق العودة مجددا الى جبهة القتال لمحاربة الجيش العراقي)

هذا الوجه ليس غريبا علي، رأيته في المعسكر الخصوصي لاسرى الحرب (آراك)، في يوم لاينسى نسميه (يوم الجرب)، الخجل يمنعني من ذكر جميع التفاصيل، سيدتي، كنا عراة، فقد امر الطبيب بحرق ملابسنا. وصل مرض الجرب الى ... الخجل يمنعني، سيدتي، فوضعونا تحت الشمس وراحوا يرشونا بالبنزول والكبريت.

كنت ضابطا في الفيلق العراقي الثالث، وقعت في الأسر. وجدت نفسي في معسكر آراك الخصوصي. منذ اليوم الاول حولوني الى جاسوس. اعطوني حزمتين من الورق الابيض وطلبوا مني ان ادون كل ما اعرفه عن الجيش العراقي. في هذا المعسكر، وضعوا امامي صفا من مئة اسير. حرصوا على حلاقة وجوههم ورؤوسهم، مما يقربهم من الشكل المعتاد للعسكري العراقي. سلموني ورقة فيها اسماء لخمسة ضباط بينهم اسم زوجك العقيد هشام. طلبوا مني ان اشخصهم. فاعتصرتني نكتة مثل مغص معوي، قلت لهم هذه يسمونها عندنا لعبة الخاتم (المحيبس)، فضحك العراقيون المئة، وواصل الايرانيون عبوسهم بعد ترجمة ما قلته. لكزني الضابط الايراني بعصاه ونبهني الى ان المزح ممنوع داخل القفص، ثم مررني من جديد على الوجوه، وطلب تحديد وجه العقيد هشام. قلت له: سيدي، اعذرني، انا لا امزح، كنت الأسوأ في لعبة (المحيبس)، وانت تطلب مني ان اخرج الخاتم من بين مئة شخص. انكرت اية معرفة به، فاخذوني الى غرفة اخرى. قالوا: (لقد وقع العقيد هشام بايدينا. خلع الرتبة من كتفه عند اقترابه من الأسر، خبأ تسعة انواط علقها رئيسكم صدام على صدره، وتنكر بوجه وزي جندي)، وكل ما يطلبوه مني هو التحقق من هويته. مرة اخرى انكرت معرفتي به، قلت لهم: كيف اتذكر وجه ضابط عراقي من آلاف الضباط الذين خدموا في الفيلق الثاث. كيف اتذكره وهو على هذه الحال؟ كيف اتذكره وقد فقد كل صفاته وامتيازاته، ثم اخترت الصمت، وتقديم المعلومات الهامشية، فزعلوا مني.

بعد هذا الاختبار تم اعتباري عضوا دائما في هذا المعسكر شبه السري، حيث يقبع اشد اسرى الحرب تصلبا وثباتا. وقفت امام مسؤول بلحية وقبعة وزي الحرس الثوري الايراني. اجلسني على الارض وسكب باذني قواعد المعسكر:

(من الان عليك ان تسير على اربع. ومن المحبذ ان تتصرف ايضا. اللوائح لاتسمح لنا بالتعامل معك كآدمي، نحتاج الى بعض الاختبارات للتحقق من ذلك. وقبل ان يحين الموعد، فبأمكانك ان تختار ما تشاء من البهائم لتكون صورة عنه. تحولك الى بهيمة سوف يساعدك في تحمل هذا النوع من السجن)

ثم رموني في قفص اشبه بممر للمجانين. فهم يأكلون مثل البهائم، وينبحون معظم الوقت. رأيت قططا، كلابا، خنازير، وخراف. كان العدد لايقل عن الفين. رحت اقلب ما سمعته قبل قليل، لم تكن العبارة مجازية، بل دعوة صريحة للسير على اربع.

سيدتي الحزينة، ياسيئة الحظ. سوف اخبرك الآن عن زوجك.

استقامة الجسد مشهد ممنوع هنا، لكني مع ذلك رأيتها. شاهدتُ زوجك العقيد هشام وهو يسير مرة على اربع ومرة على اثنين، نوع من المراوغة او المخاطرة للاحتفاظ بالآدمية، لقد اختار زوجك دور الاسد ليخفف حدة التحول. تعرفت عليه، واخترت ان اكون مثله، ورحت اقلده في مشيته. ابلغت الادارة بذلك، فسجلوني اسدا، لكنهم نبهوني ان طعامي لن يكون لحما كما الاسود. للامانة اقول ان الادارة التزمت بالشرط: فما دام الاسير يمشي على اربع فهذا يكفي. كان الطعام موحدا، يتألف من الحشيش وقشور البطيخ والتبن. وهم يعتقدون ان الحكمة تتجلى في التخلي عن االشعور الآدمي المزعج، الذي يتطلب شروطا وامكانيات غير متوفرة هنا. كنا بنظرهم رمز للخطيئة. و بدت آدميتنا بحاجة الى دليل قاطع: علينا ان نقدم انفسنا كمتطوعين للقتال الى جانبهم، وبتعبير ادق: علينا ان نقاتل انفسنا، رمزيا عبر الاقرار بالخطيئة، او حرفيا عبر اطلاق الرصاص في الاتجاه المعاكس.

★★★

استراحة قصيرة، شاي،

رضية في حالة لاتحسد عليها. كانت تستمع الى حديث الأسير بوجه مكفهر، تتنازعها شتى المخاوف.



الاسير السابق يواصل سرد ذكرياته

(مرض الجرب ضربنا سوية، فكنت امسح ظهره بالبنزول ويمسح هو ظهري. وشهدنا الزحار سوية، وواجهنا القمل سوية، حتى بدأ نظره يضعف فلم يعد يقوى على رؤية الصئبان ولا القملات البيض، فاخذت على عاتقي تفتيش ملابسه الداخلية)

بأي مصد كانت رضية تخفف الصدمات الموجعة، تركتها تواجه انثيالات الضابط الاسير، وقطفت من خدها دمعة قبل ان تسقط في حجرها:

(بعد ثلاث سنوات من البرسيم ذبلت قواي، ووجدت جسدي يذوي بحيث لم يكن قادرا على حملي. وقلت في نفسي: اي أسد يحتمل كل هذا الذل!، لابد ان اكون مغفلا تماما.)

مقابل عودتنا لحالة الآدمية، وزعوا علينا اقرارا، وطلبوا كتابته باليد، وامضائه:

(اقر بانني كنت اقاتل دفاعا عن الطاغوت، وانني معتد، ونادم على ما فعلت، واطلب التوبة، والله على ما اقول شهيد).

كنا نرى الشجاعة في رفض هذا الاقرار، لذلك عزلونا عن بقية الاسرى.

وكانت صلابة زوجك واستقامة جذعه تقاوم اعنف حملات التبشير والاذلال. لكي لا اميل مع الريح، فقد ربطت جذعي بالعقيد هشام، الجأ اليه كلما سحبتني موجات الوهن: ساعة جوع، او سيجارة، او خيال طفل رضيع، او حضن دافيء تركناه.

وفي يوم من الايام سحبوه من الغرفة، وبقيت لوحدي. مرت ثلاثة ايام ولم يعد، رحت افتش عنه: في الساحة، في مستودع الحشيش، في المراحيض، قرب صنبور الماء، فلم اجد اثرا في الساحة. كنت اظن انهم القوا به في محجر بسبب استقامة قامته، فقد كان ينسى القواعد ويسير على قدمين. لكنه عاد بعد اسبوعين. لم يتكلم معي، كان يتجنبني الى حدما. بقي صامتا لمدة يومين، ولم يجب عن سؤالي حين سألته، اين كنت؟ ماذا فعلوا بك؟ كان اغلب الوقت ينظر في موضع لا استطيع تحديده. حين نطق اخيرا كان كمن يكلم نفسه. بلا مقدمات فاجأني بتعريف جديد للشجاعة. اقترب من وجهي وسألني بقوة وحزم:

هل تعرف معنى الشجاعة؟

استغربت من سؤاله، قلت له: ما بك؟.

قال بحدة: اجبني على سؤالي اولا؟

قلت له: الشجاعة ان لا تهاب الموت، ان لا تهرب من خندقك حتى لو جاءك الموت.

قال: هذا ما علمونا اياه في الكلية العسكرية، ولزمن طويل، الشجاعة هي خرقة حمراء بحجم الاصبع مغروزة فوق صدورنا بدبوس رئاسي. ولكن الا يخطر ببالك وجود تعريف آخر للشجاعة؟ الا يخطر ببالك ان لها وجهان مثلا؟

قلت له : هات ماعندك؟

فنظر الي بعيون صارمة، صقرية، كأنه يريد مني ان اقرأ ما في وجهه. كان صوته خفيضا لكنه حاد الملامح، كأن هناك عبارة تدور في فضاء فمه منذ يومين وقد حانت لحظة خروجها. وضع حدا لتردده، واطلق العبارة في نفس واحد:

(الشجاعة مثل العملة المعدنية، لها وجهان: القدرة على الثبات، والقدرة على التحول)

لقد بث الارتباك في صدري، كمن يلقي حجرا في بركة راكدة. قلت له : ماذا تريد ان تقول بالضبط ياهشام؟

اجاب العقيد: قررت ان اتوب. **سوف أوقع على اعلان البراءة والتوبة.**

كنت اراقب فكيه وهما تخرجان هذه الكلمات، قلت له هذا ليس فكك، والكلمات ليست لك. من زرعها في فمك، اشعر انهم غسلوا دماغك؟

امتص استنكاري بقدر من التروي والهدوء: معك حق، انها ليست كلماتي، ولكن ما رأيك بها ؟

قلت له: دع رأيي جانبا، واحك لي ماذا جرى لك في الايام التي غبت فيها، فقال: لم يحدث الا ماهو خير، انظر، انهم لم يمسوا جسمي بسوء. لا استطيع ان اجزم من دخل علي، كنت نائما فايقظني، هل كان بشرا ام هو وحي؟ لم يمكث الا وقتا قصيرا، وبعد ان بث حكمته باذني، شعرت بتيار من الخدر العذب يتخلل كياني.

سألني برفق بالغ: ياهشام، انت تحمل على صدرك تسعة انواط شجاعة، اسألك: هل انت شجاع فعلا؟

اجبته: اليس هذا كافيا؟

فقال: ياهشام، هل انت شجاع ؟ بمعنى هل تملك ارادة حرة مطلقة، ام انك مكبل بما تم زرعه في مخك، اي انك مجبر ان تعيش في ضفة واحدة على الدوام. هل جربت الانتقال الى الضفة الاخرى، حتى ولو على سبيل التحدي؟ هل اختبرت نفسك؟ قد تكون بحاجة الى دليل قاطع لتثبت فيه شجاعتك. هل انت شجاع لدرجة ان تكون ضد نفسك؟

وقبل ان يتبخر الوحي ترك باب المحجر مفتوحا. وقال لي: عد الى غرفتك وفكر مليا.

هكذا فتح ثقبا في رأسي دون قطرة دم واحدة. وبدأت ادرك انه وحي فعلا، وانه جاء ليدلني على معنى الشجاعة، ويفتح باب التوبة لي.

★★★

لادري ياسيدتي ماذا حصل بالضبط لزوجك. بدأت اشك ان العقيد هشام خضع لعملية تخدير او غسيل دماغ، ولكني وضعت ذلك جانبا، وسألته:هذا يعني انك ستوقع على الاقرار؟

فهز رأسه بنعم.

هل انت جاد، يا هشام ؟ هل تدرك معنى التوبة؟

وكيف نبرر او نعتذر عن كل الارواح التي دفعناها للموت دفاعا عن الوطن؟

والانواط التي تملأ صدورنا.

ومامصير الأسرار التي أخفيناها عنهم؟ لقد كذبت عليهم في الاستجواب. هل يجب علي التقيؤ مرة أخرى؟ كيف اندم على الدفاع عن مدينة البصرة بعد أن عبرت القوات الإيرانية الحدود وقتلت آلاف الجنود. ماذا أقول للجنود الذين سقطوا في معارك شرق البصرة؟ ماذا أقول لعائلاتهم؟ هل اقول لهم انني كنت مخطئا والجنود كانوا على خطأ ايضا؟

هل حسبتها جيدا يا هشام ؟

فهز رأسه بنعم ، واضاف قائلا:

لا تهتم، كل شيء سيكون على مايرام، ما دمنا نملك الشجاعة الحقة. وما صنعته هناك تمحوه هنا. كلما صعدت درجة في سلم التوبة كلما غطس قدر من ماضيك. وبامكانك ان تقفز لو اردت. ومع كل استبسال في الاتجاه المعاكس يختفي نوط وتقترب من التوبة. حتى الخطايا الكبيرة لها كف اكبر منها. هناك كف المرشد الاعلى التي تمسح الخطايا جميعا بلمسة واحدة.

في اليوم التالي، توجهنا سائرين على قدمين نحو غرفة المسؤول، دخلنا عليه دون استئذان وركعنا. قبلناه في ركبتيه، طالبين المغفرة، سائلين عن اسرع وسيلة للتوبة.

وصلت اولى البشائر الى المعدة، وضعوا صحنا يحوي بطاطا مسلوقة. التهمناها بقشورها، لكن المعدة لم تقبل واعادته على شكل سائل اصفر. وضحك المسؤول قائلا انه امر طبيعي، فمعدتكم قد تعودت على الحشائش. سوف نشطف جدرانها بالخروع فتعود الى سابق عهدها.

وزعوا علينا زيت الخروع، اوصوا ان نشربه دفعة واحدة. تقيأت البرسيم المترسب منذ سنوات.اسعفني احدهم بقدح ماء ورغيف خبز، فقبلته قبل ان اقضم حافته. شعرت بدفق من الشعور الانساني يخرج كعرق مالح. دخلت السجائر، والماء المعقم، والصابون. ثم جاءت بقية المغريات: استميحك عذرا سيدتي، لا حياء في سرد البلاء، خصوصا حين يصل الى اعناق النخيل. علفونا جيدا، جلبوا تمرا خستاوي من عبادان، كل تمرة بحجم قنفذ، حين وضعناها في افواهنا ذابت، واخذت طريقها الى مستودع الشهوة ونفشت ابرها. هناك لحم ابيض (حلال) ومفروش فوق سجاد فارسي اصلي ومغطى بعباءة سوداء يسمونها (جادور)، لحم يحمل ختم الشريعة الاسلامية. علمنا لاحقا انهن ارامل الشهداء في الحرب. قالوا ان زواجنا ميسر اذا رغبنا)



كانت الفكرة هي تشكيل جيش من الأسرى. (لن تستردوا آدميتكم كاملة الا اذا كفرتم عن غلطتكم الكبرى). وصار هناك وصف جديد للحرب: انها بين فسطاط الحق وفسطاط الباطل. اصبحت المهمة الآن هي تقطير الشعور بالاثم وايصاله الى مرتبة الجرم الذي يتوجب غسله بالتوبة. تضاعفت الدعاية اليومية عن نقاوة النهج الايراني، وان الاشجار تسبح، والابقار تصلي، والماعز يؤذن، وكل شيء يكبر باسم الله في هذه الجمهورية الفاضلة. وكانت هناك فواصل لأمهات يبكين علينا، ويتضرعن للمرشد الاعلى ان يضع كفه فوق رؤوسنا. اثمرت سنوات العزل الاعلامي عن تحطيم القدرة على وزن الامور. كان الجرم الاكبر في معسكرات الاسرى هو العثور على راديو لمعرفة مايجري في العالم. تم اغراق الاسرى ببرنامج يومي مؤلف من الصلاة، ابتهالات التوبة، ومحاضرات عن كيفية غسل الذنوب. وكلما تشكل جحفل من التوابين كلما ضاقت الدنيا بحياة الأسرى الآخرين (المعاندين او المجرمين).

تخرجت الدفعة الاولى من التوابين، وتم توزيعهم على معسكرات الأسر، واطلقوا عليها عنوانا مستلا من القرآن: عملية (الفتح المبين) اي الانتصار الواضح، فراحوا يعيدون ما تعلموه في دورات جديدة لتحويل العصيان الى قبول، وسحق الموانع التي تحول دون الشعور بالندم، وسد الثغرات التي ينفذ منها الماضي، ويعمل على تلوث المخ. سوف تكثر الغارات التبشيرية على انصاف التائبين، وسوف تتخلص معسكرات الأسر تدريجيا من الصفة الدولية لتلحق بالمؤسسات الاصلاحية وملاجيء الاحداث. وعند اكتمال برنامج الشطف العقائدي يكون الاسير جاهزا للانتقال الى معسكر (ورمين) جنوب طهران للتدريب مجددا على القتال. ومن (ورمين) سوف يعود الأسرى الى ذات الخطوط الامامية لجبهة القتال التي خرجوا منها قبل سنوات، ولكنهم سوف يكمنون في الساتر المعاكس، وسوف يستعدون للهجوم على ذات الخنادق التي رفعوا ايديهم فيها. انها لحظة (التوبة) والطريقة الوحيد (لتطهير) النفس، وغسل الارواح مما علق بها من نجاسة.

كانت الهوية القديمة تتعرض لضربات موجعة، فلقد حرص مصممو الفكرة الجهنمية على وضع الأسرى في ذات المواقع، في سعي لتحطيم ماهو بديهي، شطب المشاعر الوطنية، وجعل التوبة هي البديل. اكمال شروط التوبة تتطلب العودة الى جبهة القتال ولكن في الخندق المعاكس. وكانت هناك احصائيات دقيقة لحجم الذنب، بحيث تتم مساءلة الاسير العراقي التائب عن عدد الكيلومترات التي تخطاها في الاراضي الايرانية اثناء المعركة، قبل ان يتم أسره، ويسأل عن عدد الاطلاقات، وهل قتل ايرانيين؟ وكم عددهم؟ بهذه الارقام يتوجب عليه ان يعود بالاتجاه المعاكس ليقتل عراقيين، ويزيحهم من مواقعهم. وبموجبها عبرت طلائع التوابين في (عمليات كربلاء) الى شمال البصرة، واقتحموا بساتين النخيل حتى وصلوا نهر دجلة.



لايمكن استيعاب ماجرى الا عبر منظار شمولي مثل فكرة السوبربوزشن (Superposition): الذين منعوا سابقا سقوط البصرة يتقدمون الآن لاحتلالها، والذين حملوا انواط الشجاعة للدفاع عن المدينة، يقفون في صف بانتظار كف المرشد الاعلى لينزع الانواط والشارات من صدورهم. في شمال طهران، وفي ضاحية شمران، حيث يستقبل المرشد الاعلى الامام الخميني جموع التائبين، كان العقيد هشام ينتظر دوره باسم مستعار، وبدلة الحرس الثوري، ودموع التكفير عن الاثم، ولحية كثيفة غزاها الشيب، امتدت فغطت على موضع الانواط في صدره. وحين وقف بين يدي الامام سقطت جبهته فوق ذيل العباءة المقدسة، ثم رفع رأسه ودفنه بين ركبتي الامام، واطال ركوعه قبالة بئر التوبة. كان عطشه بعيد الغور، وحبله قصير. وضع الامام كفه فوق هامته، رفع وجهه، وازاح قدرا من لحيته، ليصل الى موضع الدبابيس الرئاسية المغروزة في صدره. استلها برفق وتمتم بكلمات ربانية، فخرجت النجاسة من جسم العقيد، وشعر بارتياح بالغ. وكان هناك موقد مشتعل اعد خصيصا لهذا اللقاء، يلقي الاسير التائب بانواط الشجاعة والاوسمة التي يحملها، لتلتهمها النيران، وتكون الطهارة كاملة قبل اداء صلاة

الجمعة وراء الامام. بعد ذلك تتم قراءة لائحة الدرجات التي وصلها الأسير في سلم التوبة: انتهى من الكتب المراجع: بحار الانوار، وتحرير الوسيلة، ودعاء السحر، حضرعشرين جلسة لدعاء كميل، ختم كتاب التيجاني (ثم اهتديت)، وزار مخيمات الارامل والمهجرين، ثم انتقل الى مرحلة العمل الميداني: حفر الخنادق، ومداواة الجرحى، وتشكيل ثلاثة افواج من التوابين، والاشراف على تدريبهم في معسكر (ورمين). وهو الآن يعد نفسه الى الخطوة التي تطفيء الديون كلها: القتال في خندق الحق ضد خندق الباطل. وضع بكفه درع علي وسيفه، وراية المهدي. سوف يكون غدا مع الضياء الاول للفجر في معركة (والفجر).

★★★

ارجوك لاتتوقف، قل كل شيء؟ قالت اختي رضية.

★★★

اجاب الأسير السابق وقد بدت على محياه غيمة سوداء، وانه يوشك ان يمطر وقائع مفزعة. قال انه لم يفارقه حتى بعد اعلان التوبة، وخروجهم من القفص. لقد سكن مع العقيد هشام في عمارة واحدة قريبا من معسكر (ورمين)، وكان يلتقي به بشكل دوري سواء في البيت او ساحات التدريب. حتى مجيء عمليات (كربلاء)، تلك السلسلة من المعارك الطاحنة،التي يطلق عليها العراقيون (الحصاد الاكبر) في اشارة واضحة الى الحجم الكبير للخسائر الايرانية بالافراد. ابلغني انه سجل اسمه ضمن المتطوعين. وانه سيلتحق بقوات الاحتياط الايرانية. وودعني قائلا: من يدري، فقد لا القاك ثانية، وتعانقنا، وذرف كل دمعته على كتف الآخر.

انتهت المعركة ولم يعد. مضت ثلاثة شهور ولم اره، فذهبت بنفسي الى مقر فيلق بدر، وسألت عنه. فاخبروني ان وضعه لا زال مجهول، مؤكدين لي انه قاتل ببسالة واخلاص. هل استشهد ؟ سألته، فقالوا: لم نعثرعلى جثته، فتشنا في كل السواتر

والخنـادق، لم يكـن هنـاك اي اثـر لحياتـه او مماتـه، فسـجلناه مفقـودا، نسـال الله ان يلطف به، فقد اثبت بالدليل القاطع توبته.

★★★

سـوف اتجـاوز الألم الـذي خلفـه هـذا اللقـاء على شـقيقتي، طالمـا انـه بلا توقف. في نفس اليوم سـمعت اختي عن زوجهـا ماهو اكـثر غرابة. فبينمـا نحن نشـق طريقنـا في الممـر الرئيسـي لمجمـع الاسـرى اذ خـرج احـدهم من معسـكر الأسـرى الايرانيين في العـراق– محافظة الانبـار ويسـمى معسـكر (الـورار) . قطع هـذا الاسـير طريقنـا وهـو يرتـدي الـزي الاصـفر المعتمـد في العـراق كلبـاس للاسـرى. اشـار الأسـير الى الصـورة المعلقـة في رقبـة اخـتي. قـدم نفسـه باقـل عـدد من الكلمات: انا اعـرف صاحب هـذه الصورة، انـا ايراني من اصفهان.(كان يتكلم اللهجـة العراقيـة بطلاقة) : كنت اسـيرا في العـراق لمـدة عشـرة سـنوات. وكـان صاحب هذه الصورة معنا في معسـكر الورار. اسمه (حامد الزركاني)، هل هـو اخوك؟



العقيد هشام أسير في العراق

يـا الهي، مـاذا يحـدث. هـذا يـوم مكـتوب بلغـة الاسـاطير الاغريقيـة، تتحـرك فيـه المصـائر مثـل بنـدول السـاعة. احتـاج هنـا ان اتوقـف تماما.العقيـد هشـام الخوصـر محارب في كلا الجانبين العراقي والايراني، مرة مع هذا ومرة مع ذاك، يقاتل هنا ويقاتـل هنـاك، بطـل هنـا وبطـل هنـاك، مجـرم هنـا ومجـرم هنـاك، اسـير حـرب هنـا وأسير حرب هناك.

المعلومـات الـتي انفجـرت في المهرجـان عـززت في داخلي فكـرة الوضـع الفـائق (السوبربوزشـن) . احتاج الى جلسة مع نفسي لاربط هذا بذاك. اما اختي فالله وحده يعـرف حجم الاضـطراب الـذي تعيشه. لقـد سـألها الاسـير الايـراني ان كـانت هي

اخت (حامد) صاحب الصورة. فاجابت رضية: (انا زوجته، واسمه هشام وليس حامد). قال الاسير الايراني: (قد يكون غير اسمه، لسبب ما). كان الأسير سعيدا بانه يتكلم مثلنا. قال ان الوجه وجهه لكن الاسم مختلف، والقميص الذي يرتديه غريب، فصاحب هذا الوجه كان جنديا ايرانيا من الاحواز، اي انه بالضرورة يتحدث اللهجة العراقية ولكنه ايراني في كل الاحوال، فكيف يرتدي لباس الجيش العراقي؟ الامر غريب. كان لابد ان اتدخل، ان اقص عليه ما سمعته قبل قليل. بدأت بفرضية ان العقيد هشام تم أسره من قبل القوات الايرانية وتم سجنه في معسكر خاص، ثم حدثت (التوبة) وتوقيع الاقرار والانتساب الى جيش التائبين (فيلق بدر) لمقاتلة الجيش العراقي. وبعد شروحات طويلة مكررة عن (التوبة)، وشروحات اخرى لفك الاشتباكات اللاعقلانية وعمليات التواجد في جبهتين متحاربتين استطاع الاسير الايراني، بصعوبة بالغة ان يتقبل مني قصة وقوع العقيد هشام أسيرا بيد العراقيين، رغم انه عراقي اصلا. هل استسلم الى انه قبلها فعلا؟! لا ادري. ولحسن الحظ فان هذا الايراني كان مرنا بعض الشيء ليتقبل فكرة ان يحارب العراقي ضد جيشه، اي يحارب في خندقين متقابلين، مرة هنا ومرة هناك، يمارس القتل هنا ويمارس القتل هناك، يتأسر هنا ويتأسر هناك. لا ادري ان كان هذا الايراني قد تقبل فعلا هذه الرواية او السلوك الغريب الذي يتسم به زوج اختي. اخذ مني خيط الحكاية واستكمل لظم نهايتها السائبة بخيط آخر طرفه معسكر الورار في العراق. قال الاسير الايراني:

الآن عرفت لماذا كان يحمل اسما مستعارا، لماذا كان صامتا طوال السنين، يتحدث باقل عدد من الكلمات، لماذا كان منزويا، لماذا اشيع عليه انه مجنون، يحمل شظية برأسه؟ هل كان يتعمد ذهوله، صفناته، سيره المستقيم، وعيونه المثبتة بالارض؟ و لماذا كان بلا رسائل ولا يتحدث عن اهله؟.
جلسة الخمر تقترب من ذروتها، ولم يبق سوى ان نعثر على من رأى هشام وهو يعبر مجددا الى ايران كواحد من اسراهم في عملية التبادل الرسمية. هل تم تسليمه

الى ايران؟ نحن امام وضع متداخل الى ابعد الحدود، وضع فائق حقا. هل يكون قد عبر ثلاث مرات ؟ مرة اليهم (ايران)، ومرة الينا (العراق)، وثالثة اليهم (ايران). هل يمكن ان يكون في ايران بهوية أخرى؟

هل كان العقيد سيء الحظ الى هذه الدرجة. ففي اللحظة التي اصبح فيها تائبا، وجد نفسه أسيرا في العراق (معسكر الورار__ الرمادي). وفي اللحظة التي اغلق فيها معسكر الورار كليا لم يعد بامكانه البقاء في العراق وعليه اما العودة الى ايران او الاختفاء. انه يحوم حول هويته، حذر ان يمسها. متورط خائف متردد. يريد ولا يريد. لاشك ان حالة الفقدان هي الحالة الوحيدة التي تضمن له وجوده. اي عملية كشف، واية جهة لاتمثله. لقد اختار الحالة المثلى (Superposition) اي جمع كل الخنادق. طالما كان العقيد مفقودا فهو موجود في كل شيء، وأولها قلب رضية. واغلب الظن انه يبحث عنها دون ان يعثر عليها، ذلك انه تائه اصلا.

اين نضع عيوننا يا ترى؟ نصحونا في اللجنة ان نراقب اولئك الذين ينتقلون بين الاقفاص الايرانية والعراقية. **الاسير المزدوج:** ينام هنا، وينام هناك، هو المقاتل المزدوج، هو العدو والصديق. المشترك في الجيشين المتحاربين، والمخلص لكليهما.

اصبح العقيد مثل بندول الساعة يتأرجح بين بلدين وجيشين وجبهتين، ومعسكرين لأسرى الحرب، بطل هنا وبطل هناك، مجرم هنا ومجرم هناك، قائد هنا، وقائد هناك، مفقود هنا، ومفقود هناك. هل يوجد اعظم من هذه اللحظة لنشرب نخبه، تعال يا حسن. تركنا رضية تندب حضها وشربنا الكأس الثانية. انها الوضع الفائق(السوبربوزشن Superposition) لهذا العقيد. انظر اليها وهي صافية مثل خمرتنا. العقيد لم يعد مقبولا في اي مكان فقد اصبح موجودا في كل الامكنة. لابد ان نغمض اعيننا لكي نعترف بوجوده وما انفتحها حتى يتجمد في وضع لايرحم. فلو بقي اسيرا في ايران فسوف يقضي بقية عمره وهو يؤدي دور الأسد المحبوس، يأكل العشب، ويمشي على اربعة اقدام ، و لو كشف امره اسيرا في العراق فسوف يجد من يشنقه، انواطه تهمه وشجاعة، وكف الرهبر تهمة وبركة.

الشيء الوحيد الذي يحميه ويحافظ على كينونته هو الفقدان . وطالما انه مفقود فان من حق كل المتناقضات ان تجتمع فيه، دون ان تمحو بعضها، ولا تتصارع بينها. لكن حالما نفتح اعيننا (نعثر) عليه، او نجمده في صورة واحدة، عندئذ تبدأ المحنة، وينهار الوضع الفائق (السوبربوزشن) ونطلب منه تفسيرا لما يفعله.
لا تنام رضية الا اذا فركت اسنانها بالفرشاة والمعجون، ووضعت قطرة لعينها، ومضمضت فمها ببضعة ادعية، ومحلول ازرق لاذع من صنع ديتول، ثم تدس كفها بين خدها والوسادة، وتسألني: يا الهي، ماذا يجري؟

احدق في عينيها، اقرأ فيهما الحيرة، ماذا اقول لها؟ كيف اجعلها تنام دون كوابيس؟ كيف ابث الخدر في جفونها؟

سنوات طويلة وانا اقوم بهذه المهمة كي اضمن لشقيقتي نومة هانئة. في تلك الليلة مزجت الخمرة بصوت ام كلثوم. فتحت جهاز التسجيل واخترت لرضية جملة موسيقية من اغنية (رق الحبيب)، تعيدها ام كلثوم 22 مرة دون ان تمل:

(سهرت استناه ، وأسمع كلامي معاه).

سوف اعيد الجملة الموسيقية عليها حتى تنام.

في تلك الليلة بكت رضية طويلا، ولم تنم.

★★★

عين رضية

دخل العقيد حياتنا بالصدفة، فسرق منا رضية ورهن عمرها. انتزعها من الباص الخشبية التي ضمت كل المحبين الذين كانوا ينتظرون طلتها وهي تحمل اطباق الزمرد. كل واحد من هؤلاء يتمناها شريكة لحياته. حتى اشرسهم حبا للحرية والعزوبية يطلب يدها من النظرة الاولى، مقدما كل مايملك من حرية مهرا لها. كل من يراها يعيد النظر في معتقداته عن المرأة. رضية هي منعطف، ونقطة ضوء، ولحظة انبهار دائم. يقرعون كؤوسهم في صحة معبود محلي جدا، ارضي، يرونه بالعين المجردة، تبدد رؤيته ظلمة الليل، ولحظات الخوف. اختي رضية اقرب اليهم من نجوم السماء، او الجنة الموعودة، وقد تكون هي التجلي لتلك المعاني الخفية. وحين يستبد بهم الوجد يجمعون قلوبهم على الطاولة، ويذرفون دموعا من عسل بري، ويحتفلون بعظمة الحب حين يكون بلا نتيجة.

عاشت رضية وهي محاطة بالمحبين والخطاب حتى آخر يوم من عمرها.

كل من يقترب من رضية يراها تكبر، بحيث يتعذر عليه رؤيتها عن قرب، ولابد ان يتراجع الى الوراء، لابد ان يترك مسافة كافية ليراها بوضوح. رضية رقم غريب، تقبل القسمة على كل الارقام الا الرقم واحد.

احبها سعدون الحريشاوي قبل ان يسقى (عصير البرتقال) في مديرية الأمن العامة ببغداد. كان يساريا ثوريا من طراز حاد، في سنته الاخيرة في كلية الطب. دخل علينا حاملا قلبه الخالي من الشوائب ووضعه بين يديها، لكنها رفضته. تركته رضية يواصل نقاوته الثورية حتى وصل الى غرفة التحقيقات في مديرية الامن العامة ببغداد بفم متخشب من العطش، بعد ان ابقوه يومين كاملين بلا ماء ولا نوم. حين حلت ساعته وضعوا قدامه قدحا من عصير البرتقال الممزوج بسم الثاليوم. كان عطشانا جدا، فسكبه في جوفه مرة واحدة. لم يعمر بعد هذا

العصير سوى ثلاثة ايام، حيث غادرنا حاملا عشقا مؤجلا حتى الموت. وعندما مر نعشه امام دارنا، بقيت تنظر من وراء النافذة اليه ثم اسدلت الستارة. شقت صرختها و ثوبها نصفين، ولبست السواد بقية العام. اخبرتني لاحقا انها قتلته بيدها. كان الدكتور سعدون على استعداد للتخلي عن الحزب الشيوعي واليسار الثوري وماركس بكلمة واحدة من رضية.

ذهبنا معا رضية وانا الى سجن (ابو غريب) لزيارة (فالح رضا) الذي حكم عليه (عواد البندر)، رئيس محكمة الثورة، بخمسة عشر عاما لأطفاء سيجارة في صورة جدارية للسيد الرئيس صدام حسين. حين اقتربت اختي وسلمت على السجين، ندم على فعلته، وبكى على حظه، ذرف دموعا بللت قميص السجن القهوائي اللون، وقال حرفيا (لو كنت قد رأيتك يا رضية لأطفأت السيجارة في عيني او اذني او لساني، يالغباوتي. في الحياة هناك ماهو اجمل من اية نزوة ثورية).

في الزيارة التالية قبل كفها، وذرف دمعة ساخنة تحولت الى ندبة سوداء، وهمس بتضرع: لا اريد منكم سوى زيارة واحدة لي كل ستة شهور، لو فعلتم ستكون السنين اقصر. أكل اصابعه، وضرب برأسه جدار السجن محاولا ان يمسك بعنق اللحظة التي وضعته في هذا المأزق، لاعنا الخمرة والسيجارة والذكريات، متمنيا زلزالا او اعصارا مدمرا. ثم عرض شيئا من قبيل اليأس: ان تعيش اختي رضية وتتزوج ماشاء لها في السنوات الاربعة عشر المتبقية مقابل وعد ان تكون زوجة له بعد نهاية سجنه. بعد ثلاثة زيارات طلبت مني رضية ان اذهب لوحدي. فهي لاتريد ان تزيد من عذابه.

حضرنا (رضية وانا) عرضا مسرحيا في بغداد، يخرج فيه الممثل (يوسف زامل) تماما عن النص بسبب اختي رضية. هذا الممثل الشاب والمبدع يؤدي دور (صن وانغ) في مسرحية (الانسان الطيب في سيتسوان) لبرتولد بريخت.

في المسرحية يذهب (صن وانغ) الطيار العاطل عن العمل الى صاحبة الدكان (شين تي) ليستلف منها مالا وتقع في حبه، لكن الممثل لدور صن وانغ يرى شيئا

في القاعة يجعله يخرج عن النص المسرحي. ما ان يقف امام الجمهور ويتطلع في الصف الاول حتى ينسي دوره. ينزل من الخشبة، وكمن رأى ثعبانا غليظا واحب ان يتأكد من حقيقته. خطا يوسف في الممر بضعة خطوات، ثم تجمد ازاء رضية. فتح ازرار قميصه واخرج قلبه وانزله برفق عند طرف ضفيرتها، وقال لها نصف الكلام المفروض ان يقوله لصاحبة الدكان (شين تي). اختلط المشهد على الجمهور كليا، انهار الجدار الرابع، وكان لابد من تدخل المخرج (عوني كرومي) لأنقاذ المسرحية من هذا التغريب المتطرف. طلب من الممثل ان يعود الى دوره، لكن الممثل لم يتزحزح من مكانه. لاشك ان مسرح بريخت يشجع على احداث صدمة توقظ المتفرج وتمنع اندماجه، ولكن ليس على هذا النحو، فقد التبس المشهد على الجمهور، فاضطر المخرج الى سحب الممثل من يديه ليعيد للمسرح واقعيته. بعد ان انتهى العرض المسرحي لم يفارقنا يوسف لحظة واحدة. كان يركع كل خمس دقائق، ويلقي تحت قدمي اختي سوناتات من شكسبير. لم تكن هي تعرف بماذا تجيب، وكانت تطلب النجدة مني كل مرة بوجه تضرب الوانه السبع ببعضها، وتجرني من كفي لأقف مكانها. تسألني بعينيها عن رأيي: (هل هذا جزء من المسرحية؟)، فأقول لها: لم اعد اميز، خمني ذلك بنفسك. عشقها وتقدم لخطبتها بكل مايملك من مواهب، وخفة دم ، وماحفظه من نصوص. اطلق عليها كل الاسماء التي احبها على خشبة المسرح (اوفيليا، دزدمونة، جولييت). تحيته لها تثير فيها الغبطة والمرح وتقف حائرة ازائها، يضع كفه اليمنى على صدره وينحني (تماما مثلما يفعل كبار رموز المسرح في بغداد او موسكو او لندن). كان من الصعب على رضية الفصل بين ماهو مسرحي وماهو جدي. كان يستوقفها دقائق ليلقي عليها مقطعا من هاملت او عطيل. كل الايماءات التي تعلمها، والبانتومايم، وكل ما اتقنه من ايحاء. صار الممثل واحدا من ركاب باص ابي حتى بعد توقفها. بقي يقبل قبضة الباب التي تفتحها اختي لتحمل لنا اطباقها الذهبية، يضع قبلاته على الصحون والملاعق والاقداح والمواضع التي

تمس ضفيرتها، كلما رآها يوصوص ويرفرف مثل عصفور صغير ينتظر امه في العش .

★★★

هي توأم روحي وجسدي. قضينا تسعة اشهر سوية في بطن واحدة، وبقينا حتى بعد خروجنا الى الدنيا ملتصقين، حتى جاء العقيد وجلس بيننا. كان حبي لرضية اكبر من اي حب يمكن ان اتخيله، او يمكن ان يحدث لي، لذلك عزفت عن الزواج. وكلما مر خيال الموت التفتت الي لتذكرني بالوعد والامنية: ان يضمنا قبر واحد.

رضية مخلوق محير. تعبد الله، لكنها ليست بالضد ممن ينكر الله. نصف عشاقها من الملحدين. تبادلهم شتى الخواطر والاحاديث دون ان تتصادم معهم. رضية لاتشرب الخمرة لكنها تسقينا اياها، وتصنع لنا المقبلات التي تحيط بالخمرة وتزينها. رضية مخلوق ارضي من طين حر. هناك خيط رفيع من الحب يشبه خيط العنكبوت، لكنه يكفي للتعلق الى الابد. تقول لي وهي غافية ان في قلبها ثقب بحجم الابرة. احيانا اصدق ما تقوله هي، واحيانا تنظر في وداعة مفرطة وتطلب مني ان لا اصدق اي شيء تقوله. كانت اختي تزداد غموضا مع الايام. من يسمع عن رضية يظن أنها وهم يمكن أن يختفي في أية لحظة. كانت تعرف كل عيوب المرأة، وكان حلمها الأكبر هو التخلص منها.

حين اتكلم عنها يستمع الي شركائي في طاولة الخمر بحذر، يريدون أن يتأكدوا أن كانت رضية وهما صنعته بنفسي ليكون النموذج المستحيل للمرأة. المرأة التي تحب الجميع ولاتكون لأحد.

رضية شعور مباغت يغذي اعز الأسرار. ابتكرت نوعا من الحب بلا شروط وبلا نهاية. شيء ليس له صلة بالمسافة (قريب، بعيد)، ولايضعف بالفراق، ولايحتاج غذاء من الخارج كي يعيش. الاستحالة اجمل مافيه. رضية هي حب بلا نتيجة، لكنه لايموت. كل شيء في رضية مؤجل. معصومة من البذاءة، وذروة غضبها الصمت. ومن النادر ان ترفع صوتها حتى لو لدغتها عقرب. لاتتنازل عن الخجل، و

تهـرب من الاطـراء. محتشـمة دون تكلـف، حشـمة لا دخـل لهـا بـالممنوع (حـرام) والمسـموح (حلال)، بـل بمضـاعفة الجاذبية. تـؤمن ان الجسـد ينبغي ان يبقى سـرا كـي لايمـوت. العـري يقتـل الجسـد ويـدمر قـوة الجـذب فيه. تتجنب رضـية لقـاء الاعين، وربمـا انـا الوحيـد في الـدنيا الـذي تنظـر اليـه بعينها. أبتسـامتها تشـفي أعمـق الجـروح. الشـعاع الـذي يخـرج من عينيهـا يشـبه الـدواء المخـدر. هـي مجموعـة ملامـح مغطـاة بـالف طبقـة وطبقة. الـنزر اليسـير من أطلالتهـا يـكفي لبحـر من الخيـال. وعنـدما وقفت قبالـة موظـف السـجل المـدني للحصـول على بطاقـة الهويـة الجديـدة سألها ان كانت متزوجة ام لا، ثم طلب منها ان تقترب،

حدق الموظف في وجه رضية ليحدد العلامـات الفارقة، فارتبـك تمامـا، وضيـع القلم، وحين اسـتعاده كتب بخـط يـده في ذلـك الحقـل المخصـص، وعلى مسـؤوليته :
(**العلامة الفارقة: نقرة في الحنك ، تدل على وجود الله**).

كنت الى جانبهـا عنـدما سـمعتْ هـذه العبـارة، فـاطلقت ابتسـامة مخمليـة عذبـة، وشـكرته، فـازداد اضـطراب الموظـف، وحـاول جاهـدا ان يتماسـك ليضـع الاختـام الرسـمية مـع امضـاءه فـوق عبارته. وقبـل ان يسـلمنا البطاقـة، تشـجع قليلا ليقـول ان هنـاك علامـات فارقـة اخـرى مهمـة، لكن حجم البطاقـة لايسـمح بتـدوينها، فـاحبت رضـية ان تسـمعها، فقـال ان هنـاك مسـاحة شـاسـعة من البللـور بين الجفن والحـاجب تضـيء سـواد العيون. وفي الوجه لون الرغيف واسـتدارته. وهنـاك ضفيرة بطول الليـل وسـواده، يصعد بهـا المتعبدون ليروا وجه الرب. لاشك ان الموظـف الحكـومي نسـي مهنتـه ووقـع في حب رضية. وقـد ظهـر لاحقـا انـه شـاعر سـتيني منسـي بين اضـابير مديريـة السـجل المـدني ، ويخيـل الي انـه نشـر جميـع قصـائده في حقـل العلامـات الفارقة .

كتب علينـا انـا ورضـية نكـون تـوأمين على اكـثر من صـعيد. قرأنـا سـوية كـل الكتب الموجودة في البيت. زرنـا كـل ماهو جميـل في بغـداد: متاحفهـا ومسـارحها وقاعـات السـينما ومعارضـها التشـكيلية ومكـتباتهـا ومقاهيهـا وانـديتها الاجتماعيـة وجسـورها واسـواقها، وعبرنـا نهرهـا بـالقوارب، وزرنـا عتباتهـا المقدسـة وجوامعهـا

واضرحة الاولياء والمتصوفين، وجلسنا قبالة مائها طويلا. اخذتها معي الى المقهى البرازيلية في شارع الرشيد لتشرب قهوة وهي محاطة بكتاب وصحفيين عراقيين من الصف الاول. تذوقتْ وهي الى جانبي الشاي في جميع المقاهي البغدادية التي كنت ارتادها : مقهى البرلمان، الشابندر، حسن عجمي، الشط، الزهاوي، ومقهى ام كلثوم. وحضرنا عروض نادي السينما التابع لوزارة الثقافة عندما تولاه الفنان محمود ابو العباس شاهدنا معا (الرؤيا الآن) لكوبولا، و(كارمن) لفرانسيسكو روسي، والعصفور ليوسف شاهين. كنت حريصا على ان تكون لنا ذاكرة واحدة فيما يخص المسرح العراقي، الذي يمثل محطة هامة في خريطة الثقافة العراقي، حضرنا عروضا كثيرة اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: حضرنا مسرحية (البيك والسايق) لابراهيم جلال المأخوذة عن برتولد بريخت، و(ترنيمة الكرسي الهزاز) و (الانسان الطيب) لعوني كرومي، و(بغداد الازل) لقاسم محمد.

كانت رضية هي اول امرأة في العائلة تلبس البنطرون وتخرج الى الشارع. نزعت الحجاب (العباءة البغدادية) مع بدء (الحملة الوطنية لمحو الامية) ولم تعد لها حتى بعد انتهاء الحملة. ازالت رضية الامية اكثر من مئتي ربة بيت وبائعة خضار في القاسمية.

يبدو أن وصف الجمال الرباني لرضية هو أمر غير ممكن. ولأننا توأمين فقد اصبح شبه متعذر على اي منا ان يرى الآخر. كل الاوصاف التي تخص رضية كانت تصلني من الآخرين. لم اكن اصلح ان اكون مرآة. الكل يؤكد ان جمال أختي يفتت الصخر، ويبلبل العقول.

توسلت بها زميلاتها في الجامعة ان تدخل مسابقة ملكة جمال بغداد في نادي الصيد العراقي وسط العاصمة، الا انها رفضت رفضا تاما. كان (عدي) نجل الرئيس صدام، المعروف برغباته التي لايمكن ايقافها، يتربع على عرش ذلك النادي حاملا سنارة لا تخطيء ابدا، ولا يتورع عن اصطياد أية سمكة تمر حتى لو كانت برفقة فحلها، وتجر وراءها نصف دستة من الاسماك.

يصعب تحديد العناصره التي تؤلف سحر رضية. وجه يصلح للتأمل والجدل. حين رآها استاذ الآثار بهنام ابو الصوف في حفلة للطلبة في جامعة بغداد قال ان هذا الوجه يعود الى العصر البرونزي. يمكن تتبع جذوره في منحوتات الوركاء (اوروك). سألها لو تقبل الوقوف امام طلابه ليريهم وجه المرأة العراقية قبل اربعة آلاف سنة. لاتعرف رضية مساحيق التجميل او صالونات الحلاقة، وكان من النادر ان تتكلم عنها. كانت النصائح والكلمات الاولى والاعشاب والزيوت البرية التي استعملتها امها في حياتها كانت هي مستحضرات التجميل لرضية. اما ضفيرتها فلم تفتحها او تعقدها كف بعد موت امها (سوى يدي العقيد). وكانت تتعمد لبس قمصاني فتظهر بشكل جذاب صعب فهمه. وفي أحد الايام ذهبت الى الجامعة بجاكيت والدها الذي كان يرتديه وهو يسوق الباص. في الاسبوع نفسه تحول قميص والدي الى موضة جامعية، وحضر الكثير من الطالبات وهن يرتدين جاكيتات آبائهن.

لايجرؤ جميع العشاق على الاعتراف لرضية، فيلجأ البعض منهم الي، وبدل ان يعترفوا لها، يعترفوا لي. اعتقد ان هذا الاعتراف يحمل في داخله فكرة غنوصية.

قال لي حسن بلاسم:

(رضية هي الوجه الانثوي لك. الفرق بينك وبينها يتمثل في منبع الخوف: رضية تخاف الله، وانت تخاف الرئيس صدام)

★★★

اسهل ما في رضية هو نزول دمعتها .

في ذروة نهمها للقراءة وضعت في يدها مجموعة دستويفسكي. قرأتْ (الليالي البيضاء) و(الجريمة والعقاب). كنت استيقظ في منتصف الليل فأجد صفحات مبللة بدمعها، فاسألها على من تبكين؟ تخبرني: (على سونيا وراسكولنيكوف). وحين انتهت من (الاخوة كرامازوف) وزعت شخوصها علينا نحن الثلاثة

الذين كنا ندور حولها . كانت حصتي هي ايفان كارامازوف، اما العقيد فقد احتل مكان ديمتري كارامازوف، وكان حسن بلاسم هو اليوشا كارامازوف.
بكت بحرقة، وسالت دمعتها على خدها في مسرح الستين كرسيا وسط بغداد، اثناء عرض مسرحية (الكرسي الهزاز) لعوني كرومي، فقد ذكرتها بكل النساء اللواتي ينتظرن بلا طائل. بكت على عشاقها الذين حملوا قلوبهم على اكفهم قرابين فلم تقبل منهم هذه القرابين: طبيب سقته مديرية الأمن العراقية بسم الثاليوم، وثلاثة ابتلعتهم الحرب، وممثل نسي دوره، وآخرون مصائرهم مجهولة. لم يبق في السلسلة صامدا سوى حسن بلاسم، الذي قضى نصف عمره وهو يدفع باص ابي الخشبية كي لايتوقف محركها، وما تبقى من عمره فسوف يقضيه عانسا بكرا وفي الطريق الى الرهبنة.

★★★

منذ زمن طويل وحسن لايفارق دارنا، يطرق بابنا منذ كان شابا غضا. يحمل قلبه بكف وبالاخرى يواصل الطرق على الباب. لا احد يفتح له. تركته رضية يطرق بلا طائل على قلب مغلق. كنت انا اراقب ذلك المشهد المنقوش في باب بيتنا طوال تلك السنين، انظر من ثقب في جدار السطح فأرى عاشقا تخلى عن كبريائه، واقفا على باب الدار مثل عمود النور. ليس معه ولا معي مفتاح، فالقلب ليس قلبي.
مع كل طرقة غير مستجابة يدعوني للشراب في ركنه.
كيف تفتح هذه الابواب؟ يسألني.
اقول: لابد ان هنالك كلمة سر.
يقول: انت توأمها ولابد ان ان يكون سرها سرك.
حسن بلاسم لا يفارقني، فأنا الخيط الوحيد. لايعرف أيهما هو الأصل رضية ام انا. قدم كل يملكه في دنياه من اجلها. ستوديو التصوير هو مسكنه وعمله. في مؤخرة الدار، الى جانب ورشة التحميض، صنع حانة صغيرة لشخصين فقط كي يبوح بحبه لي يوميا.

في شبابه عمل مصورا فوتوغرافيا لحساب احد الاستوديوهات في بغداد. قام بتصوير نخلتنا منذ ان كانت فسيلة، واطول قليلا من الطفلة التي تقف مبتسمة الى جوارها بشرائط بيض وضفيرتين تمتدان الى تحت الركبة وحقيبة مدرسية عند القدمين. راقب بعدسته ذلك السباق المحموم بين نمو النخلة وضفيرة رضية من عمر العاشرة الى السابعة عشر. التقط ما يزيد على مئة صورة لرضية وضفيرتها. في ارشيف حسن صور لبيتنا من اول طابوقة ألى آخرها. بدخول التصوير الملون التقط صورة للواجهة واقترح تغيير لونها ليتلاءم مع النخلة وسياج الورد. بقي معلقا ثلاثة ايام على سلم طويل يخلط الألوان ويعيد الصبغ حتى اخرج اللون الشذري، وخط على جانبي عروة الباب(هذا من فضل ربي) بعد ان حفر اسماءنا جميعا واضعا اسم رضية في قلب العروة، حيث يمسك به كلما اراد ان يدق بابنا.

يقف حسن في طريق النسمة ليحملها مافي قلبه، يخترع الاسباب ليضع قدمه فوق عتبة الدار.

مع موسم البطيخ (الرقي) يتحول حسن الى حمال خصوصي لعائلتنا. يقف في سوق الخضار، يراقب عربات البطيخ، يعرف موعد امي مع ثمار البطيخ. تنتقي امي اكبر بطيخة في سوق الخضار كله. البائع يتحمل المسؤولية في لون باطنها: احمر ام ابيض. هذا الامر متفق عليه. والآن جاء دور الكتف التي تحمل البطيخة(الرقية) الى البيت، وهل هناك كتف غيره؟ يقف حسن الى جانب امي طبعا: كيف حالك عمتي؟ ثم دون ابطاء يضع كل ماتشتريه امي على ظهره. كادت البطيخة العملاقة المرقطة المستوردة من سوريا (بطيخة الشام)ان تحدث انزلاقا غضروفيا في ظهره، فقد اعادتها امي الى البائع بعد ان شقت بطنها فوجدتها بيضاء اللون. حمل حسن البطيخة البيضاء واعادها للبائع ليستبدلها بواحدة اخرى. لم ينتهي الأمر من مرة او مرتين. كان عليه ان يسير حاملا صخرة سيزيف بين سوق الخضار وبيتنا حتى بزوغ فجر البطيخة الحمراء. لم ينس ان يلتقط صورا لما جرى، ويحتفظ بها كدليل على قدرة الحب على كسر الظهر. بقي راقدا اشهرا في الفراش يحيط جذعه بدعائم من خشب، وممنوعا من الحركة.

عند موسم الشتاء، يستعمل اهل الحي اوراق شجرة النخيل (السعف) كوقود لفرن الخبز. لحسن الحظ فان حزمة السعف اقل خطورة من البطيخ. كان حسن لايسمح لأحد غيره بحمل حزم الحطب من قلب السوق الى مكانها المحدد الى جوار فرن الخبز.

وحين اضيفت غرفتتان الى بيتنا نقل على ظهره ولوحده، خمسة آلاف طابوقة، ومئة وخمسين طاسة اسمنت، ومثلها من مادة الجص. كان عليه ان يصعد سلما من خمسة عشر درجة. ظل يصعد وينزل دون كلل، حاملا في عينه عدادا يسجل المرات التي رأى فيها رضية. كانت تلك احلى ايامه رغم التمزق الذي تعرض له قفاه.

في العادة ان الماشي هو الذي يسلم على الواقف، لكن حسن بلاسم قلب السياق. يتحرك حسن قبل ان تصل امي او ابي. يتحول فجأة من واقف الى ماشي ليمطر اهلي بكل ماعنده من كلمات الود. يركع امام امي ويقبلها في ركبتيها.

في سنواتها الاخيرة لم تعد باص ابي تعمل بزيت الديزل، بل بالدفع الذراعي لحسن . لاتتحرك الباص من تلقاء ذاتها الا اذا وقف حسن وراءها ليمنحها تعجيلا يكفي لكي تعطس وتشتغل. في البدء كان هناك جيش من المتطوعين يعاونه، لكنهم بمرور السنين بدأوا يسحبون اذرعهم ناصحين ابي بمنح الباص حق التقاعد. لم يبق سوى حسن، حيث ظل يوصلها الى قلب بغداد ثم يعيدها الى مدينتنا (القاسمية) لوحده.

قام حسن بتصوير كل الاطفال الذين يمتون لنا بصلة قرابة حتى الدرجة الرابعة. كان يبحث فيهم عن وجه محبوبته. يعترض طريقهم وهم يعودون من المدرسة. وحين سأم ألاطفال وجوههم المتكررة وهم يعانقون بعضهم، لم يعودوا يهتموا به، ولم تعد الكاميرا تغريهم، فراح يجتذبهم عبر الحلوى. قدم لهم اصابع العروس ولقمة القاضي بشكل مفرط. صار يشتري شهريا نصف ماموجود من اصابع العروس الموجودة عند البقالين.



الحلاق الصامت

تفتقر رضية الى أهم شرط في مهنة الحلاقة وهي الثرثرة. حين اضع رأسي بين يديها تصمت مثل مصلح الساعات. من المحتمل ان ذلك له علاقة بالخوف من بتر الأذن. فرغم انها تحلق رأسي لسنوات طويلة، الا انها لم تكتسب عادة الحلاقين، حيث يمزجون قص الشعر بالكلام في تلازم تلقائي عجيب، حيث يتحرك الفم او يتوقف بالتزامن مع حركة وتوقف المقص. في كل مرة تنتهي رضية مني اتلمس اذني لأتأكد من وجودهما في مكانهما الطبيعي. تجرني رضية جرا، تأمرني بالجلوس على مقعد حديدي يشبه كرسي تنفيذ الاعدام. تطلب مني ان لا اتحرك اطلاقا حتى لو رأيت افعى امامي. من الممكن القول انها تحلقني بالقوة. تضع علي صدرية سوداء، وترشني بالماء كل خمس دقائق. كان لابد أن امارس دور الثرثار لتكتمل دورة الحلاقة في الطبيعة. اهمس باصوات التشكيك في قدرتها، اتعمد اضافة المزيد من الارتباك في اصابعها، يسرني ان اراها حلاقة في قمة التوتر والصمت. اتحرش بها، تخرج كلماتي بتأن، لا اريدها ان تهرب وتتركني. اقطرُ لها مكابدات حسن بلاسم قطرة بعد قطرة. اقولُ لها أنه تقدم ليخطبك للمرة المئة. لا تردُ رضية علي، تتجاوز ما اتفوه به، تضرب المقص بالمشط عدة مرات لتبدد كلامي. اعودُ من جديد. اقول لها انه مستعد ان يأتي زحفا على يديه الى البيت ليخطبها. تزيح اذني لتصل الى الشعيرات المختبئة، تتظاهر بانها لا تسمعني، لكني لا اكف. اقول لها:

(بعد ساعات سوف اسهر معه، وسيعيد علي نواحه. حسن يسكر بسرعة فائقة، حين يعبر خط النصف (نصف لتر من الخمرة العراقية). يبدأ بالغناء، يعقبه البكاء، ثم يتقدم لخطبتك، كأنه لم يفعلها من قبل، ومن قبل، ومن قبل. أصبحت لذته في التكرار).

تضع رأس المقص على جبيني. تحذرني:

(اذا لم تسكت، فسوف أبتر حاجبك)

تسرع رضية في القص فترتكب اخطاءا جسيمة، تفتح شارعا عرضيا، وتترك حفرا ومطبات في رأسي. تقول لي اذا لم أكف، فسوف تتوقف وتتركني بهذا الحال، لكني لا أكف، فتخرج منها ضحكة خجل وتهرب. تتركني اركض وراءها بروب الحلاقة الاسود، ورأسي بلونين. الاحقها الى غرفتها.

اقولُ لها انه جعل من نفسه دابة لأطفالنا. في هذا الشهر تناوب على ظهره ثلاثون طفلا، طاف بهم حول السوق وهو ينضح عرقا، محبة، واصواتا يحاكي بها الحيوانات كي يرضى عنه الاطفال. تهرب من غرفتها. ابحثُ عنها في زوايا البيت، تظل مختبأة وراء كيس الدقيق، تهمس من هناك:

(لماذا لا تخبره بالحقيقة؟ لماذا تجعله ينتظر بلا طائل ؟)

اروي لها المزيد، اقول لها انه ظل يدفع الباص من اطراف المدينة (القاسمية) حتى اوصلها الى قلب بغداد، ثم عاد يدفع بها مساءا وهي تحمل عشرين راكبا.

تقول لي رضية:

(مسكين، انه ضحيتك)

تهرب من زاوية المؤن، وتترك وراءها ضحكتها البلورية، الاحقها، اجدها وراء تنور الخبز.

اقول لها: لقد اشترى كل مافي السوق من حلوى (اصابع العروس) ووزعه على اطفالنا. اذا بقي على هذه الحال فسوف يبيع الكاميرا.

اواصل سرد معاناة العاشق:

(آه لو ترينه وهو يحمل حاويات الغاز، ويوزعها على بيوت جيراننا)

لاتود ان تخرج من مخبئها، ترددها، وبراءتها، التي تجعل منها حمامة البيت المدللة. تريد رضية ان تظل حبيسة لنشوة خجولة يصعب البوح بها. تتخلل ضحكتها سكرة بلا انتهاء تشبه طفل تدغدغه أمه حد الموت.

تقول رضية: (انت الذي ورطته)

انا: (ماذنبي؟)

تقول رضية: (دناءة نفسك هي السبب، لقد فتح لك جرار الخمر المعتق في دكانه، صنع لك حانة خصوصية، فتركته يعمر قصورا في الهواء لكي تشفط الخمرة معه. انت تبحث عن نديم في الشرب)
وقع الكلمات النابية مثل العسل حين تخرج من فمها، ذلك انها لا تعني سوى الدلال، و لا تنطقها الا لي وحدي. من وراء تنور الخبز يتواصل حواري مع توأم الروح. اجد لذة قصوى في مداعبة جميع اوتار هذه القيثارة السحرية:
(اسمعيني رضية ، الولد ينتظرك منذ اربعة عشر عاما، ماذا اقول له؟)
(لا تقل شيئا، أغلقوا البار وسينتهي الموضوع)
وضعت رضية خلاصة مدوية لدوافعي، جمعت كل ماعندها من سحر، واطلقت ضحكة عامرة بالمسامير:
(انت تريد ان تجمعني بحسن لكي تكتمل طاولة الخمر، حسن يقدم لك الخمر، وانا اقدم لك المقبلات)
خرجت من فم رضية عبارة حادة. مسامير فولاذية بطول اثني عشر انجا أصابتني في فكي فوقعت الى الجانب، وانفجرت في ضحكة عرجاء حاولت ان احبسها بقوة كي لا تختلط بمكابدات صديق الطفولة والعاشق الابدي.
تأكدت رضية ان مسمارها وصل الى العظم، فخرجت من وراء التنور دامعة العينين، تجر وراءها اذيال ضحكتها وبيدها مقص مفتوح الساقين.
(هل تحب أن تبقى هكذا، أم أكمل لك شعرك؟)
تتوقف عن الضحك وتستعيد ملامح الجدية:
(كل من يأتي من طرفك أراه أخا لي، مثلك تماما)
هل كانت تمزح، ام تعني ما تقول؟ لقد كتبت العبارة بخط يدها.
ثم تفتح عينيها لتسكبهما مثل صبح ابيض في عيني:
(أنت الذي فتح هذا الباب، وانت الذي تغلقه؟)
لو نقلت هذا الكلام الى حسن بلاسم فسوف يموت في الحال.

كل مرة تخرجين سببا للرفض، تقولين انك لاتفكرين بالزواج، وان كل مايشغلك بعدي هو الدخول الى الجامعة، وتقولين شيئا موجعا:

(قل له اننا مازلنا توأمين. ولن ننفك عن بعض ابدا)

ثم تغرقين في نوبة من القنوط، وتكتبين عبارة مدوية:

(كل من يلجأ الى باص أبي يصبح أخي)

ثم اراك تضربين بقوة، وتغضبين، وتمسكين بي، وتذرفين دموعا سخية، وتضعيني في حجرك كما تفعل مريم العذراء بالمصلوب.

ثم يختنق صوتك وتمسحين عيوني بعيونك:

قل له ان يوجه حبه الى فن التصوير، ادفعه لحب الطبيعة، حب الكتب، حب الفقراء، او يهيم حبا بالخمرة مثلك.

رحت اقلب كلماتك الدامية، كيف افهمها وكيف انقلها؟

قلت لها: (انت تقترحين على حسن ان يحب الكتب والتصوير والفقراء، الا تلاحظين انك لم تطلبي منه ان يحب امرأة غيرك؟)

سكتت رضية ولم تعلق بشيء.

★★★

وحين سألها العقيد هشام عن شروطها لقبوله، قالت له:

(لكي نتزوج عليك ان لاتحبني وحدي، هناك من يسكن قلبي منذ الولادة. لا ادري كم سيطول ارتباطي بأخي، كنت اظن اننا سنفترق حال الخروج من بطن امي، ولكن يبدو انني لا اعيش بدونه. الشيء الذي لم نختبره حتى الآن هو انت يا هشام. لقد اخترتك من بين العالمين، ولا اعرف ان كنت ستقبل هذا المثلث. عليك ان تتقبل ان ما يحدث لأخي يحدث لي، فاذا مرض فسوف امرض، واذا برد فسوف ابرد، واذا جاع او عطش او فقد نومه، فسوف اجوع واعطش وافقد نومي، واذا رحل، فسارحل معه. هل تقبل؟)

وافق العقيد هشام الخوصر بكل جوارحه، ووقع بكل اصابعه.

فقالت رضية: (اعدك ان احب بيريتك، نطاق النسر الاخضر الذي يطوق خصرك، ورجة جزمتك العسكرية وهي تحفر الارض وتكسر البلاط، اعشق رتبتك وكتفك والتراب الذي يطوقك، وان اصونك في حضورك وفي غيابك مهما طال الزمن)

مرة سألتُ رضية: (لماذا اخترت محاربا وتركت جميع العشاق الهاربين من الحرب؟). اجابت:(لم اكن انظر الى الرجال على هذا النحو، هذا التقسيم في رأسك فقط). سألتها: (ما الذي اعجبك في العقيد؟). رضية لم تجب مباشرة. ادارت شريط تسجيل حتى وصل الى موضع بعينه. قالت: هل سمعت الاغنية التونسية (**خذوا عيني، وشوفوا بيها**)؟ رفعتْ الصوت قليلا وتركتني وحدي في الغرفة مع الاغنية. بعد سنوات طويلة من فقدان العقيد، سألتها ان تعيرني احدى عينيها لكي ارى ماتراه. حين نظرت بعينها وجدت بيرية، وحزام، وجزمة عسكرية، ولمعان نجوم ونسر ذهبي فوق اكتاف ممتدة مثل جناحي طائر على وشك الاقلاع. سألتني: (هل هذا كل ما تراه ؟). لم اكن صادقا تماما. فقد كنت انظر بعين واحدة مني، واخرى بعين من رضية. فالى جانب البيريه والنطاق والبجزمة التي تشد جذع العقيد وتمنحه استقامته كانت هناك اشلاء تتطاير من حوله: وجماجم تتكدس، وشظايا تعبر لتقطع الاقدام، وبيوت مدمرة يطأها بجزمته، وبساتين تحترق فتغطي بدخانها خوذته. واصلت رضية استدعاء طيف زوجها: (في الرجل جمال لايرى الا بعين المرأة. صلابة الرجل تقابل ارتخاء المرأة. بيرية المحارب تقابل شعرالمرأة المفتوح مثل طاووس، ونطاق المحارب يوازي خصرها الضامر، وجزمته السوداء تخفف وقع خلاخلها ورنينها الفاتن، الا ترى كل هذا الجمال ؟!).

قلت: (هناك دخان كثيف يحجب العقيد، ارى معارك بلا انتهاء. هناك صور لا اجرؤ ان ارويها لك).

قالت: (لابد ان تغلق عينك يا اخي، وتنظر بعيني فقط).

★★★

بيرنطال

(بيريه، نطاق، بسطال)

فوق جبيبني خصلة شعر تطاولت حتى وصلت الى ارنبة انفي. امسكت بها رضية مثلما يمسك بالمجرم، وجرتني اليها قائلة: (بخصلتك هذه تشبه الحمار الوحشي). استعدتْ رضية لتعيدني الى الحضيرة البشرية. اخرجتْ عدة الحلاقة. اجلستني على علبة صفيح، مثل سجين سياسي، والبستني فوطة سوداء شدتها بقوة حول عنقي، وبدأت بالكلام:

(سأكون ثرثارة بما يكفي لكي تعترف بي كحلاقة محترفة)

قلت لها: (سوف افتح لك اذني، ولكن انتبهي كي لا يأكلها مقصك)

قالت: (سوف اكلمك عن شيء يحدث لي منذ مدة)

تحدثت عن شابين يتناوبان على ملاحقتها هي وزميلتها مثل الظل. كل خميس يقضيان نهارا كاملا وراءهما. لا تعرف رضية ان كانا يعرفان بعض او يجريان وراء غرض واحد. الشخص الاول ضابط في الجيش والثاني طبيب. كل يفقد وقاره، ويهرول مثل صبيان المدارس. جربنا ان نخرج في يوم آخر، فوجدناهما ينتظران في طريقنا قرب جسر (باب المعظم) في الشارع الفاصل بين مستشفى المدينة الطبية ووزارة الدفاع: الضابط ينتظرنا عند بوابة وزارة الدفاع ببدلة خاكية وثلاثة نجوم على الكتف، والآخر بصدرية بيضاء وكتاب تحت الابط، عند بوابة المدينة الطبية. رغم ان زميلتي شيماء من مدينة كربلاء الا انها تعرف كل الدروب الملتوية في بغداد العتيقة. كنا نسلك كل مرة دربا مختلفا من باب المعظم الى الباب الشرقي، ثم راقت لنا الملاحقة، فرحنا نلف وندور في الازقة والحواري الضيقة، فنراهما وراءنا يمشطان الدروب التي دخلناها. احيانا ينقطع الخيط فيتيهان منا، او نتيه منهما. ندلف في سوق نسائي صرف، نقلب كل

الاحذية النسائية ومساحيق الزينة، وهما واقفان ينتظران، الله وحده يعلم اي حرج يعيشانه، يبحثان عن مخرج عند عربة فلافل، وبائع شاي متجول، يتوقفان هناك، يأكلان الفلافل بوجوه نحونا، ويشربان الشاي بلا انقطاع. فتركنا محل الاحذية ورجعنا الى سوق السراي، ثم دخلنا مطعم (كبة السراي) وكان ممتلئا تماما ، فبقيا هما في الخارج. بعد انتظار وصلت اطباق الكبة، فبقينا نأكل ببطء فاحش، وتركناهم يطلبون الكبة للمرة الثالثة، فهمست شيماء في اذني: (رضية، الا تخافين الله!، قبل قليل دفعناهم نحو الفلافل، والآن كبة ثلاثة مرات، ارحميهم، بطونهم امتلأت مصارين).

هناك سؤال مؤجل: من منا هي المقصودة؟ من منهم يقصدني، ومن يقصد شيماء؟ او كلاهما يقصدان واحدة منا؟ ومن هي ؟ هل يعقل ان يسير رجلان وراء امرأة واحدة دون ان يشعر احدهما بالآخر؟ او يتجاهل احدهما الآخر؟ بماذا يفكران؟ هل سيصارح احدهما الآخر ؟ فلكي نجيب على هذه التساؤلات، اتفق ان نفترق مؤقتا، وان نسير في دربين مختلفين. عند ساحة الميدان افترقنا. دخلت شيماء في (شارع الرشيد)، اما انا فسلكت طريقي في شارع الجمهورية. وبعد ثلاثين خطوة التفت فرأيت الاثنين ورائي. بعد نصف ساعة اجتمعنا (نحن الاربع)عند ساحة الخلاني. اختبار واحد لايكفي، ولابد ان نعيده مرة اخرى. عند سوق الصدرية افترقنا من جديد، فاخذت دربا ضيقا في العوينة، فسار كلاهما ورائي. نعم هما ورائي، في تزامن واضح، انا اسرع في خطوتي هم يسرعون، انا ابطيء في خطوتي هم يبطئون، اتوقف فيتوقفون. يا الهي كم هو لذيذ هذا التلازم، هذا الخيط الذي يربطنا. وجدت نفسي اسير من زقاق الى آخر وهما يلاحقاني من بعيد مثل مخبرين سريين. عندما وصلتُ تمثال الرصافي، رأيت شيماء تسير لوحدها، عيناها على الارض، ولا تتلفت الى الوراء، بخطوات متثاقلة لايتبعها سوى ظلها النحيف. وما ان اصبحتْ قريبة مني حتى هتفت: (مبروك عليك رضية، كلاهما يريدانك، لكن بصراحة الله يعينك، الاختيار صعب). شعرت بحرج

شـديد، وضـغطت على اصـابع شـيماء بحرقـة وأسـى، ثم سـحبتها الي وضـممتها الى صدري، فقالت لا تحزني سوف اجد من يلاحقني يا رضية، انا مازلت صغيرة.

★★★

هناك اثنـان، وليس واحدا، يريدان الفوز برضية. نسيت شعري المبلل، ورحت اتابع اختي رضية وهي على مفترق طريق العمر.

سرحت رضية بعيدا ونسيت المقص يسير لوحده في شعري، سألتني:

(ماهو الفرق بين ان يكون الرجل ضابطا او طبيبا ؟).

قلت: الفرق بينهما يتوقف على الحرب.

سألتني: ومادخل الحرب بذلك؟.

قلت: بلا حرب سوف يتساوى الاثنـان، كلاهمـا يلاحقانـك في دروب بغداد. امـا اذا نشبت الحرب فسوف يفترقان، يتجه الضابط الى الجبهة ليضع رصاصة في صدر بشري، بينما يذهب الطبيب ليخرجها منه.

وقبل ان يأخذ كل منهما مكانه فلابد من تمارين اولية: طالب الطب يشق بطن ضفدعة قبل ان يفتح بالمشرط بطنا بشرية، بينما الطالب في الكلية العسكرية يتدرب بالتسديد على كيس الرمل، املا ان يكون لاحقا صدرا بشريا.

★★★

وعدتني رضية ان تكون ثرثارة لتكتمل شروط الحلاقة، امسكتْ بخصلة من شعري ووضعت تحتها المقص. كنت انتظر ان تسقط فوق انفي، لكن اصابعها توقفت، راحت تعيد رسم صورة اللحظة الحاسمة عندما اشرق ذلك الضابط المتعالي الاكتاف والشامخ مثل نخلة وهو يطوق كيانه من فوق الى تحت بثلاثة اقواس سوف تسلب من رضية اتزان خطوتها، ثلاثة اقواس، ثلاثة علامات، ثلاثة كلمات: (**البيريه**) التي تشد على صدغيه لترفع جبينه وتجعله مائلا مثل شراع سفينة،الحزام (**النطاق**)الزيتوني المدرع بالنسر الوطني الذي يشد خصره فيقطع جسده الى نصفين، والجزمة العسكرية السوداء(**البسطال**)، االتي تحجب قدميه

عن التراب، وتمنع عنه فرط الحساسية حين يدوس على كل ماهو طري في الارض، بما فيها جثث القتلى، واعناق النخيل المذبوحة بشظايا القصف المدفعي، والمخلوقات الصغيرة المختبأة في العشب. هذه المفردات العربية الثلاث (بيرية، حزام، جزمة)، لها مقابل باللهجة العراقية (بيريه، نطاق، بسطال)، وقد عملنا منها (حسن وانا) عملية توليف، اقتطعنا ثلاثة حروف من كل مفردة ونحتنا منها مصطلح (**البيرنطال**) الذي يمثل وعاء الجندية وعلامات الضبط فيها. هذه التوليفة العسكرية سوف تكون هي عناصر الجذب الاولى التي خطفت عيني شقيقتي. وقد تعلقت بها، فعلقتها بدورها في الصالة الى جانب البدلة الرسمية المفرغة من جسده، وهي تأمل ان يعود يوما فيدخل فيها من جديد، تماما كما رأته قبالة بوابة وزارة الدفاع بنجومه الثلاث فانحرف اليها وقد ارعبه ثعبان اسود يتدلى على كتفها حتى يصل ركبتها. كانت رضية قد سحبت الضفيرة من مؤخرة رأسها، وتركتها تنساب على صدرها لتشكل تباينا خارقا، وثقبا اسودا لا مفر من الوقوع فيه. ثم يواصل السحر نزوله مثل ضربة القدر الموجع ، فلا يقطعه سوى ذراعها الايمن حيث تمسك بكتبها، وقد خلعت سترتها الجامعية الزرقاء، وتركتها تنساب على الساعد، فغابت الضفيرة بضعة سنتمترات ثم عادت للظهور عند خصرها اكثر توترا وعنفوانا. السحر الاسود يلتف حول نفسه حتى ينتهي عند الركبة في تقاطع تنورتها الرصاصية ذات الطيات، وقميصها الابيض الذي يفضي الى منجم من الكرستال. كان الانحراف متزامنا، وتقابلت الاعين عند عمد مروع، فاعماه شعاعها الثاقب. حاول الضابط الشاب ان يضبط نفسه فلم يقدر، تبخرت في ثانية واحدة كل دروس الضبط التي تعلمها في سنوات الكلية العسكرية، وقد فقد كامل السيطرة على جسده ويقظته ووجهته. في تلك اللحظة البالغة العمى كان هناك شخص ثالث عالي الاكتاف يريد ان يدخل وزارة الدفاع، ضابط برتبة كبيرة، وتقتضي السياقات العسكرية ان الضابط الاصغر رتبة يؤدي التحية العسكرية للضابط الاعلى منه رتبة . كانت رضية تقف على مسافة واحدة من الضابطين: الاول برتبة نقيب، والثاني هو اللواء داود الجنابي آمر الكلية

العسكرية. اختلطت النجوم والاكتاف بالضفيرة، واحدث وجه رضية التواءا في عنق النقيب الشاب ولعثمة في مفاصله، وبدل ان يؤدي التحية الى اللواء داود الجنابي فقد اعطي له ظهره و**ادى لرضية تحية عسكرية كاملة الابعاد**، لم تسجل قبلها ولا بعدها في تاريخ العسكرية العراقية، ذلك ان القدم اليمنى المدرعة بالجزمة الرومانية السوداء صعدت، فارتفعت معها الركبة حتى كادت تمس الحنك، ثم نزلت مثل صاعقة، فضربت بلاطة الرصيف التي تقف عليها لتحطمها اجزاءا مع رعدة مدوية جفل لها كل من كان قريبا. بقيت هذه التحية (الانقلابية) معلقة في الهواء لثانية واحدة بانتظار ان يسجلها تاريخ البوابة المتخم بالانقلابات: بوابة وزارة الدفاع. استدارت وزارة الدفاع برمتها نحو رضية. سوف اترك مؤقتا (الانقلاب) الذي حدث في حياة اختي رضية، واتوجه لسرد ما جرى في نفس المكان، منذ تأسيس الدولة العراقية على يد الانجليز في اوائل القرن الماضي. في تلك الفترة كان الجيش العراقي والضباط ، القوة الفجة عموما، هم العنصر الحاسم في اي حدث.

استدارت وزارة الدفاع برمتها بعد مرور ستة واربعين عاما على انقلاب، اللواء بكر صدقي 1936، واربعين عاما على انقلاب 1941 حيث علقت، بعد بضعة سنوات، جثة العقيد صلاح الدين الصباغ، احد الشركاء في الانقلاب. في عام 1958، وفي نفس المكان بالضبط، كانت تتدلى جثة عبد الأله خال الملك، والوصي على عرش العراق، بعد القضاء على الحكم الملكي واعلان الجمهورية. بعد بضعة سنوات، امام نفس البوابة، وقفت دبابة العقيد مصطفى نصرت يوم 8 شباط 1963 بانتظار استسلام الزعيم عبد الكريم قاسم واعدامه في نفس اليوم، وصعود حزب البعث في انقلاب فاشي دموي تماما.

لاشك انني امارس هنا نوعا من التقابل بين حدثين مختلفين تماما: اضع ماجرى لاختي، امام ماجرى من حوادث تتسم بالخسة وطغيان الدم والبرود الانساني المطلق. شخصيا لا اعرف لماذا افعل ذلك، ولا ادري ان كانت اختي تقبل ذلك. ولو طلبت رضية مني تفسير ، فانا لا املك حتى الآن تفسير.

عذرا للقاريء، لقد خرجت عن النص قليلا، ولكن لابأس.
والآن نعود الى ماتبقى من تلك اللحظة (الانقلابية) في حياة اختي رضية. هناك عينان صقريتان تجمدتا في تحية عسكرية، واصابع الكف اليمنى تلامس الصدغ قريبا من العين اليمنى، وكانت هناك شرارة تومض. عينا الغزالة هي الاخرى جامدتان، والضفيرة مثل بندول الساعة تتأرجح و تدق في الخفاء لتعلن عن تلاق من نوع نادر. لقد حفر العشق اسمه في هذه بوابة وزارة الدفاع، ولم يعد هناك من مخرج سوى قبول اللحظة بكل مافيها، فتقدم آمر الكلية العسكرية ليسعفه. حاول الضابط الشاب ان يلملم نفسه، ان يقول شيئا، لكن تعرقه ولسانه المعقود قالا كل شيء. وضع اللواء الجنابي حدا لغرقه، امسك بذراعه وهزه بود قائلا: (لا عليك، سوف تؤدي التحية لي في المرة القادمة مضاعفة، اما الآن فعليك ان تهرول وراءها، لاتدعها تفلت منك).

في اللقاء الاول بين رضية وهشام طلبت منه ان يسلمها جميع ماكان يرتديه في ذلك اليوم وخصوصا الحذاء (الجزمة العسكرية) الذي ضرب به الارض حتى انشقت فاخرجت كل ماتحتها من عشق و شرار. طلبت منه ان يأخذها الى بوابة وزارة الدفاع ، واشارت اليه ان يوقف سيارته بمحاذاة في موضع التحية العسكرية، تماما عند تلك القطعة الرخامية المحطمة. فتحت باب السيارة، ترجلت وهي تحمل حقيبة جلدية، ورفعت القطعة الرخامية المحطمة باجزائها الثلاث ووضعتها في الحقيبة، لتحتفظ بها الى الابد في رف زجاجي خاص في صالة الاستقبال. من حي القاسمية الشعبي الى حي الضباط الارستقراطي سوف تذهب رضية كزوجة ابدية. كان علي ان اوزع يوم عرس اختي الى نصفين: نصف لفرحتها العارمة، ونصف لحزن العاشق الابدي حسن، ومشاركته خمرة المواساة. كان علي ان اضيف الماء الى خمرته المحلية (العرق) كي لايشربها مثل سم قاتل، في نوع من الانتحار البطيء.
لم تشهد المدينة الشعبية (القاسمية) عرسا بهذا الحجم. تواصلت الافراح لثلاث ليال. الفيلق الثالث حل في القاسمية. اشتركت قطعات من الفرقة الثالثة، و ممثلون عن ثلاثة الوية مشاة راجل، وفوج مشاة آلي، وكتيبة مدفعية ميدان، وممثل عن الفرقة 11، وحضر ضباط من الفرقة الخامسة والسادسة و التاسعة عشر. وقد

ذبح في ذلك اليوم ثلاثون خروفا، وخمسمئة دجاجة. زفاف رضية تم بطائرة سمتية حلقت بها فوق المدينة، وكانت تلوح للناس، وترمي لهم الزهور والحلوى، بينما كانت اصوات الفرح والابتهاج والزغاريد تتعالى من السطوح وهي تصارع صوت المروحية.

عدا الخط العربي والتصوير الفوتوغرافي يمتلك حسن بلاسم موهبة العشق من طرف واحد. الموهبة الاخيرة ربطته بالخمرة المحلية (العرق)، وجعلت مني نديما لامفر منه. كلما امتد الزمن به يزداد عشقا لرضية. يشبه عشقه قمرا يدور حول زحل، او نجمة لا تنطفيء. تقدم لخطبتها مرارا، واعترف بحبه امام كل كأس شربناها سوية. وبتراكم السنوات اختلط الخمر بالدمع، فصار عذابه ألذ مايمكن. التقط لها صورة وهي طفلة لم تبلغ السادسة، ثم راح يلاحقها بقية العمر. صورها في اول يوم في المدرسة الابتدائية بشرائط وضفيرتين، صورها وهي في ذروة شبابها: حورية تحيط بها الفراشات والورود والطيور السابحة في السماء، جعل من ضفيرتها جسرا للعبور الى الجنة. التقط لها صورة وهي بحضن امي تمشط لها خصلات الليل المحير في سواده. التقطَ لها صورا وهي تحمل سلاطة الليل، وشاي العصاري، وخبز الفرن الفخاري (التنور) الأسمر، صورها وهي تقلم الباميا، وتغسل الرز، صورها في لحظات غموضها ولهفتها و ذهولها وحيرتها وابتسامتها وقنوطها، صورها وهي تحمل طفلا ، طفلين، وثلاث. بكى حسن كثيرا وشرب كثيرا، نام قليلا وسهر كثيرا، صبر كثيرا ويأس قليلا. صور حسن كل الجدران التي تكلمها رضية في ايامها الخوالي، سجل انتظارها المر، وتحولات محنتها من الألف الى الياء، واحسب انه يحفظ عن ظهر قلب كل مايخص هذا المخلوق دون ان يشعر لحظة واحدة بانها له. لكن حسن هرب من يوم رضية الموعود، اليوم الذي تم تثبيته في الف وخمسمئة بطاقة دعوة لحضور العرس. لم يصورها وهي تضع يدها بيد العقيد، بل دفن عينيه في ذلك اليوم في باص ابي، وشرب حتى بللت دموعه الخشب، واقفل حواسه كي لاتصله بهجة القاسمية واحتفالها المهيب. اقفل عينيه كي لا يرى مشاعل التنوير المحمولة على مظلات (تستخدم في الحرب)

لتحيل الليل الى نهار. سد اذنيه عن اصوات المدافع والرشاشات الرباعية التي ملأت سماء المدينة. اغمض عينيه عن رؤية رضية وهي في ساحة المدينة بثوب الزفاف تنتظر هبوط العريس بالمظلة مع صيحات الصبايا وزخات الزغاريد في الحي التي تخرج من كل بيت، من افواه النسوة اللواتي تخفق السنتهن كاجنحة مجنونة .

★★★

الطلقة الاولى

عوضا عن البحث عن العقيد، وجدت نفسي ابحث عن اولى الرصاصات التي وضعها في صدر (العدو). لم يكن ذلك مطلوب مني. واحسب اني لم اعد امينا للمهمة التي كلفتني بها شقيقتي.

كلما توغلتُ في سيرته كلما اصبحت في مواجهة مع صورة اخرى غير تلك المحفورة في وجدان رضية. حين اسير معها لتعقب آثاره اجدها تسبقني على الدوام، فقد كنت اتقدم خطوة واتراجع خطوتين، متوجسا من فكرة العثور على كل ماهو مدمر لاختي. وكنت اوطن نفسي بالقول: مادام العقيد مفقودا فهو بحر شاسع من الاحتمال، هذا يعني انه يقبل جميع الصور المحتملة، فما قيمة الحقيقة؟ وما نفع الحقيقة اذا كانت اكثر ضررا من الوهم؟ احيانا اعثر على عينين مفتوحتين في جثة هامدة، وحين ادقق فيهما ارى صورته بكامل قيافته العسكرية. كنت اختلق الاعذار لابعدها عن الدهاليز التي الج فيها، وفي مرحلة لاحقة صرت اخفي عنها جولاتي. الافضل ان اتركها تعيش بقية عمرها وهي تحتضن صورة للعقيد خالية من البقع السوداء.

سوف امر على حياة هشام عندما كان صبيا يحضى برعاية خاله (اثيل الخوصر). سوف انبش الماضي البعيد. هناك طير صغير جدا يطلق عليه اسم (الزرزور)، هذا المخلوق لايسكت صوت الجوع ولايملأ المعدة، حتى لو نأكل منه مئة، لكن السيد اثيل الخوصر كان له رأي آخر. لايمكنني ان اغض النظر عن اسراب الزرازير وهي تتزاحم على اعمدة الكهرباء وخطوط الضغط العالي، فقد كانت المقبلات المفضلة للخال الثري تاجر الاصواف المعروف في سوق الموصل. كان التهامه للزرازير مع اقداح الويسكي يمثل مزاجا فائقا لم يتنازل عنه طيلة حياته، وكانت لذته تتضاعف حين يصطادها بنفسه. وهو الذي وضع بيد

ابن اخته اول بندقية صيد (طشارية)، واشار الى اسراب الزرازير المتجمعة على خط الكهرباء المتدلي. سوف اغفر له هذا العبث الصبياني. كان هشام مازال غضا لم يبلغ الثانية عشر من عمره، وكانت تلك واحدة من عطله الربيعية. اخضعه الخال لاول درس من دروس قبض الارواح :

(اغمض عينك اليمنى، وافتح اليسرى، هل ترى ذلك الشق؟ هذا هو الفرضة، وهذه هي الشعيرة. ضع الفرضة داخل الشعيرة، اسحب بيت الترباس، احبس نفسك، لا ترمش، ولا تسمح للبندقية ان تجرك. ضع الفوهة في قلب ذلك الجمع من الزرازير. اطلق النار)

كل ربيع تأتي الزرازير وتقف على ذات الخط الناقل للكهرباء باعداد تسد قرص الشمس، واحسب ان هشام قد اجهز على الآلاف منها قبل ان يدخل الكلية العسكرية، واغلب الظن انه يعتقد انها بلا روح او تحمل روحا من ورق السجائر، وبالامكان مصمصتها وقرط عظامها مثل لب الجوز. ولا اعرف كيف تمكن من اقناع رضية بطبخها عندما زاره خاله وهنأه بوسام الرافدين. جلب خاله مئتين منها، وكان عليها ان تضعها في قدر مع ماء مغلي لتعزل عنها ريشها، وتبقي تلك السيقان الدقيقة التي تشبه اعواد البخور. سوف نعبر هذا المزاج الفائق اذ يمثل نزهة بريئة قياسا الى الثعابين التي التهمها هشام في الدورة التدريبية للقوات الخاصة، ولايمكن مقارنتها بيرابيع الصحراء التي أبتلعها في الدورة التدريبية للمظليين، اما دورة التدريب لصنف الضفادع البشرية فقد كانت اسما على مسمى، اذ كان امتحان التخرج يتطلب التهام الضفادع وهي حية في الماء.

هل كانت تلك هي المقدمات؟

وكان لابد ان نرفع في باص الخشب الكأس الخاصة بابتلاع ماهو حي. نحن نقف امام قدرة النفس البشرية على هضم ما هو حي. كيف يمكن ان يبتلع الحي مخلوقا حيا مثله؟ ماذا تفعل المعدة حين يدخل اليها شيئا يتحرك بارادة حرة مثل الضفدع؟ كيف تهضمه؟ ماذا لو رفض الاستسلام لعملية الهضم؟

كنت مشغولا بتتبع لحظة التحول من اكياس الرمل الى صدور الرجال، من الشواخص الخشبية في ساحات التدريب الى الصدور المعبأة بالقلوب والآمال العذبة، وتلكما الرئتان اللتان لاتمل ابدا من سحب الهواء واخراجه، وانت ياشقيقتي، يا توأمي الحائر، الا تعلمين باستحالة اصلاح الرئة عندما تثقب بالرصاص؟ ماهو رأيك بمن هو ماهر في وضع الرصاصة في الصدر؟ ماهو رأيك بمن لايخطيء الهدف؟ كيف تسنى لفارس احلامك ان يعبر هذه الحاجز ؟ هذا العقيد المتطاول الذي وهبته نفسك،هل كان مدركا انه ذاهب لقبض الانفس قبل موعدها الرباني؟ ماذا قال لك، عندما ودعك، هل كان مترددا؟ هل ارتعشت اصابعه وهو يطلق اول رصاصة. هل توقف، او تلعثم وهو يعطي اول امر بالهجوم؟ هل تردد ولو جزء من الثانية، ام كان متلهفا عجولا لملاقاة (العدو) ووضع الطلقة الاولى في صدره؟ هل كان يتسابق مع رفاقه للوصول ام العكس؟ كل هذه الاسئلة كانت تراودني لكني احجم عن التفوه بها امام رضية.

المحمرة (خرمشهر) المدينة الايرانية المفصولة عن مدينة البصرة العراقية بنهر عريض يسمى (شط العرب). هذه المدينة هي بوابة الدخول لسيرة العقيد هشام الحربية، و اول امتحان له في الدنيا. قبل ذلك كان هشام احتمالا مؤجلا، يتساوى فيه مع من لا علاقة له بالحرب. كانت رصاصاته في دمية خشبية، او كيس من الرمل في ميدان التدريب. وحين يتحداه رفاقه، ينصبون زجاجة كولا للتصويب عليها، فاما ان يصيب الزجاجة فتخرج (الروح) على شكل رغوة ارجوانية تسيح على التراب دون صراخ او الم، او يخطيء الاصابة، فيخسر الرهان.

في المحمرة اجتمع خمسة ضباط بينهم العقيد هشام ليصنعوا تاريخا لم يكتب بعد، تاريخا سيكون مثير للجدل قطعا. سوف نهمل الرتب العسكرية لأنها تتبدل:

صلاح القاضي ، قائد الفيلق الثالث.

جواد شيتته ، قائد الفرقة الثالثة.

كامل ساجت ، آمر لواء قوات خاصة،

احمد زيدان ، آمر مدفعية الفيلق الثالث.

هشام الخوصر ، آمر مغاوير الفيلق الثالث.

هذا الخماسي سيشكل طليعة الفيلق الثالث، ويقررون مصير المعركة الاولى (**المحمرة 1980**). وسوف يحملون على اكتافهم تكاليفها: ثمانية آلاف (مدني وعسكري) من الايرانيين، وسبعة آلاف قتيل عراقي، اي خمسة عشر الف ضحية من الجانبين، يضاف لها خمسة واربعين الف جريح، فيكون المجموع ستين الف ضحية، وبذلك تكون حصة العقيد هشام اثني عشر الف ضحية. هذا اول الغيث.

★★★

1980

معركة المحمرة

(من خلال مهرجان الحرب قمت بزيارة لمدينة المحمرة، لأكون احد الشهود والرواة. واستطعت عبر ناشطين هناك ان اجمع الكثير من المعلومات عما جرى،اضافة الى ما رواه الضباط المشاركين في العملية)

هجم الفيلق العراقي الثالث بعشرين الف مقاتل، بينما لم يدافع عن المدينة من الايرانيين سوى ثلاثة الاف (رغم اعلان النفير العام) معظمهم من المتطوعين: الحرس الثوري، والبسيج، ومجاهدي خلق، وفدائيي خلق، والشيوعيين. هذه المجاميع المختلفة يقودهم (محمد جان آرا) من الجامع الكبير في الجهة الشرقية من المدينة التي يقطعها نهر الكارون. لن يبق من هؤلاء الفدائيين في الايام الاخيرة سوى مئة.

الجيش الامبراطوري الايراني شبه غائب عن المعركة رغم اسلحته ومقراته في المدينة. هناك حامية (ديج) المؤلفة من خطين دفاعيين: الاول على بعدعشرة كيلومترات من مركز المدينة يشغله المتطوعون، والثاني ستة كيلومترات تشغله دبابات جفتن التابعة الى الفرقة المدرعة 92 بواقع فوجين، يقودها الحرس الثوري بدلا من الجيش النظامي. اما مقر الحامية فسيكون في حي الطالقاني وسط المدينة بقيادة حاكم المدينة (محمد رضا عباسي) حيث يتوزع ماتبقى من شرطة المدينة (الجندرمة) وافراد (الشهرباني) المحلية باعداد هزيلة لا تتجاوز المئتي مسلح. وهناك فوج كوماندوز بحري (تاكاوار) بامرة الادميرال

(هوشنك صمدي) سوف يهبط بالمظلات بعد تطويق العراقيين للمدينة . يحاول هؤلاء المظليون ان يكونوا سندا للمتطوعين، لكنهم لن يحققوا شيئا.
بسبب النقص الكبير في عدد المقاتلين الايرانيين فقد لجأوا الى اسلوب (اضرب واهرب)، ولم يكن بينهم اي تنسيق، كان هناك متطوعون للقنص يعملون لوحدهم، او حملة (ار بي جي) ينتظرون وصول دبابة عراقية ليحرقوها. هذا التشرذم الايراني كان عاملا مهما في سقوط المدينة وفي ذات الوقت كان فعالا في مضاعفة خسائر الفيلق العراقي بالارواح، وزيادة التكاليف.
في معركة المحمرة (خرمشهر) الاولى 1980، لفت نظري البطء الشديد في حسم المعركة، رغم الفارق الكبير بالعدد لصالح العراقيين. قمت بقياس سرعة تقدم القوات العراقية. المسافة من الحدود الدولية الى المحمرة عشرين كلم (20.000 متر). بدأت المعركة في 22 سبتمبر 1980 وانتهت في 26 اكتوبر ، اي (**34**) يوما، و بالساعات (800) ساعة، وبذلك تبلغ سرعة تقدم القوات العراقية (25) مترا بالساعة، وهي ابطأ من سرعة الحلزون (سرعة الحلزون 47 متر في الساعة). هذا البطء يؤشر حجم المقاومة داخل المدينة. بعد ست ساعات على اعلان الحرب صرخ الناطق العسكري: (دخلنا المحمرة)، فدخلنا في فقه اللغة. ماذا تعني (دخلنا ؟)، هل دخلنا المدينة؟ ام ضواحيها؟ ام محافظة خوزستان؟ رحت اقلب ما جرى، فتبين اننا دخلنا المخفر الحدودي في الشلامجة، وثقبنا بالرصاص وجه المرشد الاعلى (الخميني) المنتصب في جدارية على البوابة. ثم توالت البيانات رغم عدم وجود التحام، ولا قتال بري، ما عدا القصف الجوي الايراني لتعويق قطعاتنا، يقابله قصفنا العشوائي للمدينة بغية تفريغها من السكان. لم يبدا القتال الفعلي الا بعد مرور ثلاثة اسابيع، حين اصبحنا على مشارف المدينة. كانت هناك نية ايرانية لاستدراجنا الى داخل المدينة والبدء بالكر والفر. ايقنوا ان المدينة ساقطة لا محالة، فلم يبق سوى رفع تكاليف المعركة، لكي يتحول النصر العسكري الى شيء باهت. وضع الايرانيون في بالهم حتمية دوران الارض حول الشمس ومجيء فصل الشتاء، فتغمر المياه المنطقة

المحيطة بالمدينة لتصبح حركة القطعات العسكرية متعذرة عند المناورة، ويلزمها في البقاء في مواقعها، عرضة للشلل، وصيدا سهلا للضربات الجوية الايرانية، وتحويل المحمرة الى مقبرة للغزاة. ومع اول اشتباك سقط خط (ديج) وهو الدفاع الاول عن المدينة، ومع بدء اوكتوبر سقط الخط الثاني. كانت ضراوة القتال مؤجلة حتى تضيق الدائرة. تراجع الايرانيون الى داخل المدينة دون تنسيق عسكري واضح. في الرابع من اكتوبر دخلت قواتنا المدينة وامسكت بالميناء. لم نجد سوى الاشباح، فلا ماء ولا كهرباء. النهار اصبح عيونا تتلصص لتقنص بعضها البعض، والليل كوابيس حية، والنوم مستحيل. اعلنت القيادة العراقية وقف اطلاق النار من طرف واحد، وطلبت الدخول في مفاوضات. العرض السلمي ظل واقفا ينتظر الرد الايراني الذي جاء على شكل (عفطة) خالية من اي وقار دبلوماسي، فانهار بعد يوم واحد من اعلانه. مازال هناك شريان بين المدينتين الايرانيتين عبادان والاحواز يؤمن للمدافعين قدرا من الحياة، ومع حلول السادس عشر من اكتوبر وصلت دبابات الفرقة الثالثة العراقية بقيادة **جواد شيتة** نهر الكارون من الشمال، وتسللت سرية مدرعة عبر الميناء لاحاطة المدينة، فتشكل هلال من نار حول النصف الغربي، ثم راح يتحرك ليشكل طوقا محكما، وشنت المدفعية العراقية بقيادة **احمد زيدان** ضربات متلاحقة على وسط المدينة دون تاثير حاسم، فلم يبق امام قواتنا سوى قطع ماتبقى من الشرايين التي تربط المدينة ببقية ايران، فاشتدت ضراوة القتال، ودخلت الطائرات لافشال تلك المحاولات. استطاعت دبابات جواد شيتته ان تعبر الكارون من شمال المحمرة، واندفعت شرقا لتقطع طريق عبادان الاحواز، وعبادان شيخ بدير، وبذلك امنت الجزء الشمالي من المدينة.

★★★

يتطلب وصف ماجرى في المحمرة افراغ عيون القتلى مما سجلته. وصلت المسافة بين وجوه المتحاربين الى الصفر، فاختزن كل وجه قاتله. حين تنفذ الذخيرة يبدأ السلاح الابيض، او قتال الاذرع، او يعضوا بعضهم بعضا. في العيون وجدنا آخر الصور المختزنة، وفي فضاء الفم آخر صيحات الاستغاثة . سمعنا صرخة الحياة

حين تسكت فجأة. يحتفظ متحف المحمرة بالكثير من العيون التي هربت من محاجرها اثناء مواجهة الموت، تركت المقاتلين يواجهون بعضهم وهم عمي. هذه الظاهرة رسمت صورة واضحة عن قدرة الهلع على فصل الاعضاء الجسدية، واعفائها من مهامها.
وضعت في قاعة العيون اجهزة تكبير (مجهر)، بامكان زوار المتحف رؤية شبكية العين مكبرة عشرات المرات. كنت على موعد مع صور مرعبة، كلما حاولت تكذيب ما اراه يرتد الي طالبا مني زيادة درجة التكبير، رأيت وجه العقيد مطبوعا في الكثير من العيون. رأيته بكل سطوته وهو يعطي اوامره بازهاق الارواح. يقتل دون تردد، كأنه يتسابق مع نفسه لتحطيم، ما يربطها بالقعر الانساني، ويحررها من اي عائق يمنعها من كسب المعركة. سوف اراه خاضعا لفكرة الضربة الاستباقية. من الضروري ارسال اكبر كمية من النعوش. يريد ان يكون حاضرا في كل المواقع، مقداما في كل لحظة. كان سخيا في اعطاء الحرية في تدمير العدو، في نفي الرحمة. وكلما ازدادت مقاومة العدو كلما ازدادت شراسة العقيد، وزاد صرف الذخيرة وسقوط القتلى.

دخل جند العقيد هشام المسلخ وسط المحمرة فتركوا القتلى معلقين مثل الاغنام. وفي الطريق الى محطة القطار مشطوا سطوح الابنية فعثروا على نائمين، فامر العقيد بمد نومتهم دون احتمال اليقظة ثانية، قضى على ست وثلاثين نائما دون ابطاء. وجد خمسة وعشرين ايرانيا مختبئين في دائرة الغاز فامر بفتح النار عليهم، وشب حريق في المكان حول القتلى الى رماد. وفي مطحنة المدينة وسوق الخضار خسر المقاومون الايرانيون اربعة وسبعين، وخسر العقيد نصف سرية ، وحوصرت مجموعة ايرانية في بناية مدرسة وانتهت عند الطعن بالحراب.
كانت هناك تراجعات بقدر عدد الاندفاعات، وتقدم وابادة ثم اعادة تنظيم. كان هناك ثلاثة خطوط عراقية:(الدفاع والوسط والهجوم) تتحرك سوية، وبتنسيق

محكم، وجده الدارسون انموذجا للكرة الهولندية الشاملة، حيث الكل يهجم، والكل يدافع.

وحين دخلتْ المناظير الليلية زادت القدرة على ازهاق الارواح. دخل جند العقيد على البيوت المعباة بالمقاومين واحالهم الى صمت مطبق. كانت مؤشرات الاجهزة الحرارية والمغناطيسية تتيح تحديد البيت الذي يأوي المتطوعين (الباسداران). بمعونة هذه الكشافات تم تدمير اكثر من ثلاثين مقرا للمقاومة، وكانت الحصيلة مئات القتلى.

اثناء التجوال في المحمرة انتبهت الى مواقع الالتحام، وجدت الجثث مدلاة من حائط مقر الحكم المحلي، لم يتلاعب بها احد بعد تحرير المدينة، فتحولت بمرور الوقت الى برونز. الشارع الذي طرقته مزدحم بالتفاصيل: مقاتلين معلقين في الهواء، او على شفا السقوط من السطوح ، او يصرخون من وراء الشبابيك المفتوحة، عيونهم واسعة واصواتهم مكبلة بالبرونز، اسماؤهم اكثر من الشوارع نفسها، فلجأت السلطة المحلية الى تسمية الشارع ب (بلوفارد مقاومت).

★★★

سوف تبتلع الازقة المهدمة رتل التوابيت الملفوفة بالعلم الوطني الايراني او العراقي. دقيقة الصمت وقوفا على ارواح الضحايا سوف تؤجل الى اشعار آخر. لايوجد فرح في المدينة. لايوجد فم مبتسم سوى فم الرئيس صدام حسين وهو يستقبل ابطال معركة المحمرة. هؤلاء الضباط كانوا الجسر الكونكريتي الذي عبر عليه ليصل الى حالة النرفانا. كان الرئيس يحلم ان يضع قدمه فوق صدر المرشد الاعلى (الخميني): صورة تنتمي الى زمن بعيد، انتقلت بشكل ما الى نزال الملاكمة:

بعد سقوط المحمرة التقى الرئيس بالضباط الخمسة الذين حملوا على اكتافهم العبء الاكبر في هذه المعركة، وكشف عن دواخله:

((انتم تقفون فوق صدر العدو، العالم هو الحكم في مثل هذه النزالات، انه يبدأ العد لخصمكم الساقط ارضا، العد تجاوز الرقم عشرة والخصم لم ينهض (لم يقم باي هجوم مقابل)، وهذا يعني السقوط بالضربة القاضية)).

والواقع ان الرئيس تجاوز في حلمه الوردي الرقم (10)، الرقم يتصاعد، والعد مستمر حتى بلغ مكوثه فوق صدر خصمه (**575**) يوما هي الفترة الممتدة من دخول المحمرة في 22 – 09- 1980 ولغاية الخروج منها في 24-5- 1982. لكن غاب عن بال السيد الرئيس ان النزال لن ينتهي كما اراد، وان المحمرة لم تكن سوى الجولة الاولى في نزال طويل سوف يمتد لاكثر من **2876** يوما.

★★★

الثور الايراني

اليوم الثالث عشر في المحمرة كان هادئا، لم يعكره سوى حادث عرضي. اتصل العقيد برفاقه، ودعاهم لتناول العشاء في بناية المسلخ (المقر المؤقت للواء المغاوير). اخبرهم عن ثور حي متروك في المسلخ. كانت قرون الثور تمنع التحرش به، ويبدو عليه الغضب والرفض لاحتلال المدينة من قبل (الغزاة)، ويبدو انه ادرك ان مصيره لن يكون افضل من الجنود الذين كانوا يحمون المسلخ. اتصل العقيد هشام برفاقه وابلغهم عن وليمة بحجم ثور . الرائد كامل ساجت وافق على الحضور بشرط ان يشرف بنفسه على الذبح. جواد شيتته وصلاح القاضي وصلا بمدرعة واحدة وهما متشوقان لرؤية عرض حي لمصارعة الثيران يقدمه مغاوير الفيلق الثالث. اما آمر المدفعية احمد زيدان فقد احتج (لاسلكيا) بان الثور يعتبر أسير بحكم القانون الدولي ، ولا يجوز قتله، ناهيك عن اكله. عندما سمع صلاح القاضي ذلك ارتمى على كرسيه من الضحك، وكشف ما لم يسمع عن احمد زيدان ، قال : (انكم تسمعون دوي مدافعه الثقيلة فقط ، اما فضائحه فلا يصلكم منها شيء. لقد استولى احمد زيدان على مزرعة غزلان في منطقة دربند شرقي، وحقل للديوك الرومية في شارع رجايي، فلم يعد يستطيب

لحم آخر). لقيت هذه النميمة الرفيعة المستوى ترحابا من البقية، وكانوا في ذروة مزاجهم وبهجتهم وهم يسمعون صلاح القاضي (قائد الفيلق الثالث) وهو يتحدث باللاسلكي وبدون جفرة: على احمد زيدان (آمر مدفعية الفيلق الثالث) ان يختار بين تناول لحم الثور او تسليم ما لديه من الغزلان والديوك الاسيرة الى مقر الفيلق. ولم تمض سوى ساعة حتى وجدنا آمر المدفعية في المسلخ يحاول دفع التهم دون جدوى. وبينما انشغل الضباط بالضحك واغراقه بالاسئلة عن الغزلان والديوك الرومية، خرج الى الباحة ثور بقرنين واتجه صوبهم. ولولا القفزة الخاطفة لكامل ساجت، وغلق الباب لكان الثور قد فتك بهم جميعا. راح الثور يخور ويطرق الباب بقرنيه، لكن لم يفتح له احد. تكاتف الضباط وسندوا الباب كي لا يسقط عليهم. حاول احدهم ان يخرج مسدسه ويطلق عليه الرصاص، لكن كامل ساجت منعهم من ذلك. تراجع الجنود الى الغرف المحيطة بالباحة واغلقوا عليهم الابواب. واطل البقية من الشبابيك يراقبون الثور وهو يدور لوحده في الباحة يفتش بقرنيه عن شيء يبقره. وقد سأل احد الجنود الاذن باطلاق الرصاص فاعترض الرائد ساجت قائلا ان أكله وهو مقتول غير جائز في الشريعة الاسلامية. وبدا ان قائد المعركة المقبلة(ضد الثور) سيكون كامل ساجت نفسه. أمر بتهيئة فصيل وحبال لتكتيفه. تم العثور على حبال المسلخ، وشراشف غارقة بالدم. تم تقطيعها وتوزيعها على الغرف لتكون معادل للخرقة المهيجة للثور. وكما هو معلوم فان الثور مثل كل الحيوانات مصاب بعمى الألوان، ولكن هل يستطيع تمييز العدو من الصديق؟ هل يستطيع تمييز الايراني من العراقي؟ هذا السؤال كان يدور في رأس جميع الحاضرين في ذلك اليوم. تحول ميدان المسلخ الى حلبة لمصارعة الثيران. كان المطلوب انهاك الثور عبر التلويح بالخرق الملطخة بالدم من الشبابيك. لم يجرؤ اي من الحاضرين على لعب دور (التروبادور) الاسباني. مغاوير الفيلق العراقي الثالث يمكن ان يأكلوا الافعى وهي حية، لكن لم يجربوا مصارعة الثيران. ولكي يهون الأمر عبر الرائدكامل ساجت عن رأيه قائلا: اعتقد ان هذا الثور سيفتك بفوج كامل لو ترك لوحده دون

انهاك، انه يقاتل لاسباب وطنية محضة، ومن الجائز انه يميز لغتنا. اصبحت الشبابيك المطلة على الباحة هي المنفذ الوحيد لشجاعة لواء المغاوير، فراح الثور يدور من شباك الى آخر حتى فقد قواه، نجحت خطة الرائد، ولم يعد قادرا على الركض، حبات العرق تلمع في جبينه، تواضعت اقدامه فلم يعد قادرا على الجري، ذبلت قرونه، فقد الجزء الاكبر من كبريائه، فوقف مادا لسانه مثل شحاذ جائع، عندئذ اعطى الرائد كامل ساجت الأمر بالهجوم عليه. صعد العريف شمران فوق ظهره وامسك بقرنيه، وارتمى اربعة من المغاوير تحت اقدامه، فبدأ الثور يخور بألم وخجل. وضع احد الجنود خرقة وسد فمه، لكن الرائد كامل اعترض قائلاً لاينبغي ان يموت الثور مخنوقا، دعه يخرج كل مافي باطنه. تم ربطه من اقدامه، انهالوا عليه بحراب البنادق. كان الضرب عشوائيا. احدهم غرز حربة البندقية في صدره، آخر راح يبحث عن قلبه ليوقفه، يقطع الهواء عن رئته، يستعجلون موته، فعلق الرائد كامل ساجت قائلا: (ماهذا! انه ثور، وليس قائد الحرس الثوري، يتوجب نحره على الطريقة الاسلامية الشرعية، وليس التنكيل به). ازدحمت السكاكين وحراب البنادق في جسده، فكان يصدها بالمزيد من الصراخ والزبد. صعدت في العريف شمران موجة من الزهو، فوقف على ظهر الثور بكامل قامته حاملا حربة البندقية وهي تقطر دما. في تلك اللحظة دوت الطلقة الاولى فتهاوى العريف شمران، وانقطعت اغنيته الوطنية، وتدفق الدم فورا من موضع قريب من اذنه. انبطح الجميع وراحوا يزحفون بعيدا عن الثور الى الغرف، ثم دوت الطلقة الثانية، استقرت في رأس الثور لتجهز عليه كليا، فسقط واغمض عينيه في نفس اللحظة التي اغمض العريف فيها عينيه. صاح احد الجنود على الفور: (الرصاصة جاءت من منارة الجامع). بعد وضع هدف مزيف امام القناص، تم التأكد من المكان الذي خرجت منه الرصاصة. اعطى العقيد هشام أوامره:

(اتركوا جثة العريف شمران حتى نحضر القناص الى هنا، اريده حيا).

بدأ الليل يغمر المكان بسواده، ممتدا الى جثة العريف شمران المتروكة لحين جلب القاتل. تم تكليف النقيب مجبل البصري ومعه سبعة من المغاوير،لجلب

القناص. طوقوا الجامع، اغلقوا كل المنافذ، تسلقوا جدران الجامع، صعدوا فوق اكتاف بعضهم. دخلوا عليه، فرفع يديه على الفور. كان يجلس وراء قناصة امريكية (ريمنغتون) بمنظارها ودعامتها الثنائية الى جانب صناديق الذخيرة. كان شابا لم يتجاوز الثلاثين، ملتحيا، رث الثياب، برائحة من لم يستحم منذ مدة طويلة. كان الى جانبه بضعة ارغفة من الخبز، وابريق شاي مسود، وذخيرة تكفي لانهاء فوج. لم يبد اية مقاومة، و نزل السلم دون ضجيج، لكنه لم يخف امتعاضه واستنكاره من وجودهم، سألهم ماذا يفعلون هنا؟ فاجابوا انهم في حالة حرب. حين احضر امام العقيد لم يبد خوفا. حرص العقيد ان يريه فعلته. كانت جثة العريف شمران غارقة بدمها الى جانب الثور. ابدى القناص وجها عبوسا، ولم يظهر الندم، وتلفظ بالفارسية كلمتان (بَدَر سُخته)، سرعان ما ترجمت، وظهر انها شتيمة بذيئة. سحب العقيد مسدسه من خاصرته، ووضع في رأس القناص الايراني الرصاصة الاولى، ثم تقدم بقية الضباط، فوضع كل منهم طلقة في رأسه، فسقط الى جانب الجثتين، وتقدم احد المغاوير وافرغ رشاشته في صدره. حملت الجثث، وغسلت الباحة من الدماء، واستكمل سلخ وتقطيع الثور. تأخر العشاء بضعة ساعات، لكنه وضع نهاية دسمة لذلك اليوم المليء بالترقب.



في يوم 14 اوكتوبر استأنف الهجوم باستخدام المناظير الليلية، وتحقق عنصر المفاجأة، واستولى الفيلق الثالث على نقاط عديدة تشرف على المدينة، ثم زحفنا الى الداخل، فواجهت قواتنا من جديد دبابات جفتن يقودها هذه المرة المتطوعون وقوات الباسدران بعد مقتل طواقمها الاصلية، واشتبكنا معهم في معارك طويلة دامية، من بيت الى بيت، ومن غرفة الى غرفة، وقد استخدم فيها كل مايخطر في البال، من البنادق، الى السكاكين، والعصي، وحتى قبضات الكف، والاسنان، تمكنت بعدها قواتنا من السيطرة على دائره المرور، والميناء، ومقر ثكنة (ديج) في حي الطالقاني. في اليوم التالي احكمنا سيطرتنا على الطريق السريع المؤدي للمسجد الكبير، حيث مقر القيادة العسكرية الايرانية.

بحلول يوم 21 اكتوبر 1980 اصبح مركز مدينة المحمرة على مرأى قوات الفيلق الثالث. في الايام التالية وضعت الاستعدادات للسيطرة على مقر الحكم المحلي، وعلى الجسر الرابط بين المحمرة وعبادان بغية عزل المدينة من الجنوب، ومنع وصول الامدادات اليها. في يوم 24 اوكتوبر خاضت مغاوير الفيلق بقيادة هشام الخوصر والقوات الخاصة بقيادة كامل ساجت واحدة من اشرس المعارك، استغرقت خمس ساعات دامية، حتى تم انتزاع الجسر الرابط بين المحمره وعبادان من ايدي الايرانيين.

اما من جهة مقر الحكم المحلي فقد كانت المعارك اكثر عنفا، واستطاعت قوات الفيلق عصر نفس اليوم من الاستيلاء على المبنى لفترة وجيزه، لكن المقاومة الايرانية حاصرت قواتنا واستطاعت طردها من المبنى بعد ان ابادت نصفها. لم ينفع هذا النصر الايرانيين بشيء، اذ سرعان ما عوضنا خسائرنا وقمنا بشن هجوم معاكس على مقر الحكم المحلي انتهى بمجزرة دموية، حيث لم يسلم الايرانيون المبنى الا بعد مقتل كل من تواجد فيه. بحلول يوم 25 اكتوبر 1980 لم يتبق للايرانيين في المدينة الا مقر القيادة العسكرية في المسجد الكبير. كان عدد المقاتلين هناك لايتجاوز مئة مقاتل معظمهم من الباسدران المدربين والقادة الميدانيين. كانت مسألة ابادتهم مسألة وقت فقط. لذلك ارتأت القيادة الايرانية سحبهم من المدينة وتركها تسقط بيد الفيلق العراقي الثالث. من جهتنا فقد تركنا للايرانيين ممرا للانسحاب عبر نهر الكارون. يوم 26 اكتوبر 1980 سجل الايرانيون في ذاكرتهم سقوط مدينتهم بايدينا.

اخيرا سقطت مدينة المحمرة (خرمشهر)، واصبح نهر الكارون هو الحاجز بين الطرفين، واصبح لدى الفيلق العراقي الثالث خطان دفاعيان متوازيان: الاول ممتد من المحمرة الى الاحواز بطول 130 كيلومترا تمسكه الفرقة 11، والخط الثاني خلفه، على امتداد سكة حديد المحمرة – الاحواز، وهو مسؤولية الفرقة المدرعة الثالثة بقيادة جواد شيتنة، حيث يتوجب على هذه الفرقة التمسك بمواضعها، ولا تنسحب، حتى لو حدث خرق او عبور لنهر الكارون.

انتهت المعركة، وحلت لحظة استرداد الانفاس. نحن الآن في قلب مدينة المحمرة. انسحب آخر المقاتلين الايرانيين. المدينة في قبضتنا. اعطينا الاوامر بتمشيط المدينة، واجتمعنا (نحن اركان الفيلق العراقي الثالث) في مكتب القائد العام للحرس الثوري الايراني (محمد جهان آرا) بعد احتلال المقر. المكتب كان في ذات الوقت غرفة نوم لهذا القائد الثوري، الذي كان نموذجا للمقاتل الجسور. قاتل (آرا) ببسالة وشرف، وكان آخر من غادر المدينة. وجدنا حاجيات بسيطة تخصه: صوره العائلية، ثيابه، دفتر يومياته ,راديو صغير، ادوية مسكنة، وسجادة الصلاة، ومجموعة كتب بالفارسية. اطلقنا سراح احد الاسرى بعد ان وضعنا بيده حاجيات جهان آرا واوصيناه ان يوصل اليه هذه الرسالة:

((العزيز آرا: نأسف لما حصل ايها القائد الجسور، الذنب ليس ذنبنا ولا ذنبك، هناك رأس في طهران مليء بالعفاريت هو الذي دفعنا الى هذه المواجهة. مرة اخرى نؤكد تقديرنا الشديد لفروسيتك، ونأسف لعدم وجود خيار آخر. سوف نزحف الى عبادان، فلا تزعج نفسك بموضوع المقاومة، لأنها لن تكون مجدية ولن تثنينا. واذا احببت ان تسلم نفسك ومن معك فسوف تكون اذرعنا مفتوحة .. مع تحيات قادة الفيلق العراقي الثالث))



مرسوم جمهوري:

تقديرا للاداء المتميز وروحية القيادة العالية والتنسيق الفائق الذي ابداه الضباط الخمسة المدرجة اسماؤهم ادناه في قيادة معركة المحمرة، قررنا منحهم وسام الرافدين من الدرجة الثانية والنوع العسكري. على وزير الدفاع تنفيذ هذا المرسوم. صدام حسين رئيس الجمهورية .

الاسماء:

اللواء الركن صلاح القاضي قائد عمليات المحمرة.

العميد الركن جواد شيتنه قائد الفرقة المدرعة الثالثة.

العميد احمد زيدان آمر مدفعية الميدان في الفيلق الثالث.

العقيد هشام الخوصر آمر مغاوير الفيلق الثالث.
الرائد كامل ساجت آمر اللواء 33 قوات خاصة.
★★★

في احد القصور الرئاسية جرى استقبال قادة معركة المحمرة الاولى وتقليدهم شارات النصر. عرض التلفزيون العراقي اجزاءا من وقائع ذلك اليوم. المشمولون بالتكريم وقفوا في صف طويل دافعين صدورهم الى الامام بانتظار نزول الكف الاثقل في البلاد لتغرز فيهم انواط الشجاعة. انها اللحظة القصوى في حياة المحارب. يتخذ المرسوم الجمهوري شكل رمانة يدوية تتفجر في صدر المحارب لتملأه بالفخر والعنفوان. يهبط النوط مثل نسر بجناحين، يغرز مخالبه فوق الجيب الايسر للبدلة الخاكية، في موضع القلب تماما. بعض المحاربين لايقوى على هذا الشعور المباغت فيغمض عينيه عند التماس باصبع السيد الرئيس في لحظة شك الدبوس . الدمعة تنساب، ويتعرق اللسان، فتخرج حروف سائلة من تحت اللسان.

في نهاية الصف الطويل وقف الضباط الخمسة الاكثر بلاءا في المعركة. كان زوج اختي العقيد هشام يونس الخوصر واحدا منهم . ينتظر الرئيس تلاوة المرسوم الجمهوري لكي يهبط بكفه على اكتفاهم، ويملأ صدورهم باعتراف رسمي بشجاعتهم. وخلافا لبقية المقاتلين في الفيلق فقد منح كل واحد منهم ثلاثة انواط شجاعة، فتحولت صدورهم الى جبل من الثقة والفخر، وكان من الصعب التعبير عن كل ما يجول بخواطرهم في تلك اللحظة التي بدت وكأنها تعادل العمر كله. وفيما عدا الانواط فقد وضعت خمسة اوسمة رفيعة في صينية فضية سوف تطوق اعناقهم. لقد منح كل واحد منهم وسام الرافدين من النوع العسكري، وهو اعلى وسام في البلاد. من هؤلاء الضباط الخمسة سوف تتشكل نواة القلادة الفريدة للفيلق العراقي الثالث، ويصل اللقاء الى الذروة.

لقد غمرت السيد الرئيس موجة من النرجسية الفائقة، نوع من الدخان الابيض يتصاعد من اكتافه ولايراه سوى اولئك الذين يعرفون بالغريزة ما يود سماعه في تلك اللحظة. في باحة القصر الرئاسي وعلى طاولة عريضة فرشت خارطة

عسكرية للقاطع الجنوبي توضح الموقف بعد معركة المحمرة. كان هناك نهر بلون ازرق يمتد من الاحواز ليصب في شط العرب يسمى نهر الكارون. لقد عبره العراقيون ليضعوه وراء ظهورهم متقدمين الى المدن والقرى الايرانية. لقد حول الرئيس اتجاه اللقاء، ساحبا كاميرات التلفزيون العراقي نحو نهر الكارون، وبدا انه يريد ان يقول شيئا. الضباط الخمسة كانوا يحيطون به. نظر الرئيس في وجوههم واحدا بعد الآخر، ثم وجه اليهم سؤالا شبحيا الى حد ما:

من هي القدم الاولى التي عبرت عبرت نهر الكارون؟.

تتطلب الاجابة على هذا النوع من الأسئلة التأني والتشاور وربما الرجاء لمنحهم اشارة خفيفة تساعدهم في تخمين الأجابة. لقد ادرك الضباط بشكل غريزي انهم يتعرضون الى اختبار من النوع الثقيل. كان هناك اتفاق ضمني بين الطرفين (السائل والمسؤول) على الاجابة الصحيحة والوحيدة، فكان على الرئيس ان يقدم ايضاحا يسهل على الضباط هذه الاحجية اللطيفة:

(خبروني عن القدم الاولى التي عبرت الكارون، واجتازت النار المجوسية، وداست فوق تلك اللحى الخسروية المجعدة حتى بلغت الضفة الشرقية للنهر؟)

كان هذا السؤال من نمط اسئلة برنامج (من يربح المليون). كان على الضباط ان يتشاوروا بينهم قبل تقديم الاجابة. اي اختلاف في الاجابة ليس في صالح أحد. لقد بدا واضحا ان الرئيس يعيش هذه اللحظة بمزاج فائق. ومن النظر الى اكتافه التي تنفث دخان الغطرسة حدس الضباط الاجابة، فهتفوا بفم واحد:

(القدم الاولى هي انتم سيدي).

كانت الاجابة صحيحة تماما، ومنعشة للغاية، فقد شع وجه السيد الرئيس وبانت اسنانه البيضاء بابتسامة عريضه، فراح يطبطب على اكتافهم واحدا بعد الآخر.

ثم اندفع الضباط الخمسة كل يخرج ماعنده في تلك اللحظة. كان النسيج واحدا رغم تعدد الاصوات، وكان بالامكان جمع ماقالوه في عبارة موحدة:

(هل تسمح لنا سيدي ان نضع على صدرك كل ما نحمله من اوسمة فنحن لسنا سوى اذرع لك. كنا نسير بقدميك، ونتحرك بقلبك، ونصول بجرأتك، ونفكر بعقلك. خطوتك توحدنا، وحبك يقربنا. وحين انشطرنا الى ثلاثة محاور كان قوس توجيهاتك يجمعنا، وكان بريق عينيك مشاعل تنوير تسبق صولاتنا، وسواد حاجبيك يستر عبورنا، وكان غضبك المالح يمتد في اذرعنا فلا تتثني الا لأرادتك وحدها.)

لقد التهب الكتف الرئاسي من نشوة النصر. سحبته عبارات الضباط الى تلك المنطقة المنعشة من محو الانكسارات ولحظات الضعف التي عاشها مع ايران سابقا. كاد الرئيس ان يتبخر من فرط اللذة، وقد اناخ بجناحيه مثل حمامة البستان:

اعترف الرئيس ان الخميني انكر الجميل والحماية التي تمتع بها في العراق لسنوات طويلة، وتعمد اثارة الفتنة الطائفية في محاولة لقلب نظام الحكم في العراق. اعترف الرئيس لاول مرة بان الشاه (رضا بهلوي) قد تعمد اذلاله في الجزائر. (حين قمت من مكاني كان المفروض ان يقوم هو الاخر في نفس الوقت، ونلتقي في منتصف القاعة، لكنه ظل في مكانه، وكان صعبا علي ابتلاع صلافته، فتداركني الرئيس الجزائري (هواري بومدين) وهمس باذني بضعة كلمات رطبة:

(اعذره انه شاه سليل شاهات، وليس ابن الشعب مثلكم).

كان لابد ان اصافح تلك الغطرسة كي اتفرغ لسحق العصاة الكرد.

★★★

فوق مدينة عبادان وضع الرئيس اصبعه فوق مدينة عبادان. الخارطة العسكرية تشير بلون احمر. هناك مقاومة ايرانية شرسة ونفير ايراني لمنع سقوط المدينة. وكانت عدسة التلفزيون العراقي تتابع اصبع الرئيس وهي تتحرك لترسم اتجاه المعركة القادمة. لقد بدا واضحا ان الرئيس ينوي الذهاب الى ابعد من المحمرة قائلا:

(اذا وصلنا الى عبادان، او دمرناها بالقنابل، فسوف نمنعهم من انتاج النفط، وسوف يرضخون لمطالبنا)

ثم خاطب آمر المدفعية: اسمع يا زيدان، هنالك رسالة من البارود اريدك ان توصلها الى الرؤس المتعفنة في طهران، سوف تضعها لهم في عبادان، ولابد ان تجد من ينقلها الى طهران. هذه الرسالة مؤلفة من مئة وخمسين قذيفة، واذا ضاعت في البحر او في مكان مهجور فكرر الارسال:

((سوف نطرق على الرؤوس العفنة في طهران (بالقنااااااااااااااااااااااااااااااااااااابل) حتى يستجيبوا لمطالبنا)).

حين لفظ الرئيس كلمة (**قنابل**) تعمد مد حرف الالف وتأجيل النصف الثاني من الكلمة للايحاء الى كلمة اخرى عامية المحتوى والشكل وخالية من الاحترام هي (**قنادر**) التي تعني بالعراقية احذية، فيكون معنى العبارة (سوف نضربهم بالاحذية، حتى يستجيبوا لمطالبنا).

للاسف فان هذه البذاءة الناتجة عن اللعب بالالفاظ العربية، لم يفهمها الاعلام العالمي في وقتها بسبب مشاكل الترجمة واختلاف الثقافات، حيث ان الكثير من الشعوب تعتبر ضرب العدو بالاحذية امرا مضحكا، وهو بالتأكيد اقل ضررا من الضرب بالقنابل. على اية حال فقد كانت هذه العبارة هي اهانة متعمدة وجهها السيد الرئيس صدام حسين الى القيادة الايرانية امام وسائل الاعلام. وقد اوصى مصوره الخاص ان يقرب كفه وهي ترسم صورة الحذاء، ويسجل وقفة فمه عند حرف الألف الممدود بكل فضاعته. كان التلفزيون العراقي حاضرا في تلك اللحظة، فسجل هذا المشهد بكل مافيه من (وقار دبلوماسي)، و(دعوة للسلام) معززة بزخات القنابل والقنادر.

★★★

اما نحن الجالسون في الباص الخشبية العتيقة فكنا نسير عكس اتجاه الحرب، وكنا نراقب مايجري من خلال نوافذ صغيرة مموهة بطبقات متعددة من الحذر، واشجار اليوكالبتوس الكثيفة، وسياج الحصران والطين، وكل التحوطات اللازمة

للمحافظة على وجود غامض، مهدد في كل لحظة بالفناء. كان مبدأ الشك المنقوش في شبكية العين يمنعنا من رؤية الاشياء مثل بقية الناس. كنا نرى كل مايقدم خال من العفوية، ونفسر مايجري بعيدا عما يسمع او يرى. وكنا نعقم بالخمرة كل مايدخل الينا عبر تلك النوافذ الصغيرة.



جدارية المحمرة

قدر لي الدخول الى **المحمرة** (**خرمشهر**) بعد اكثر من عشرين عاما من دخول العقيد هشام اليها، بعد تجريدها من ثيابها وتركها عارية طوال هذه السنين. عاد اهلها فلم يجدوا بيوتهم، فقد تم تفكيكها الى عناصرها الاولية ونقلها على ظهور سيارات النقل العسكرية (**ايفا Eva**) لبناء ملاجيء للجنود وغرف لضباط الفيلق الثالث. العيون التي تحرس بيوتها اقتلعت. الاذرع التي تطوق حوانيتها قطعت بحراب البنادق. مرة اخرى وجدت نفسي احيد عن المهمة التي كلفتني بها اختي. كنت حريصا ان اتعرف على طلائع الجناة، ودور كل منهم. رحت ابحث عن اصابع صهري العقيد هشام في هذا الخراب المبجل. اهل المدينة عادوا اليها لكنهم لم يدخلوا بيوتهم بعد. مازالوا واقفين فوق الاطلال. تركوا مايكفي من الخراب للذكرى. العيون المقلوعة والاذرع المبتورة مازالت ترقد هناك. الوجوه المغيبة والسراديب التي اختبأ بها الاهالي هربا من القصف العشوائي تتنفس تحت اقدام السائرين. مازالت هناك وجوه تتطلع من ثقب صغير ولاتخرج الى النور. كرهوا الشمس والهواء الطلق. الخوف الفاحش عطل عودتهم.

من فعل كل هذا الدمار؟

بعد ان استولى الفيلق الثالث على المدينة راح يؤكد في كل متر قدرته التدميرية مثل سيل مغولي. كيف لي ان امسح عن عيني ما أراه؟ هل الحل في اغماض العين، ام في فتحها وتركها تشبع من رؤية الخراب؟ الدلائل على الجريمة تتحرك مثل اعلانات ضوئية. اشار احدهم علي ان اقترب، فاقتربت، ثم سمعته يردد(هذه داري). نظرت الى الناحية التي يشير اليها فلم اجد شيئا، كانت هناك مساحة خالية وبقايا جدار. قبل ان يخرج منها كانت ثلاثة غرف للنوم وغرفة للضيوف ومنافعها، فكتب على السياج :

(اتوسل اليكم، من اجل الله ومحمد وعلي، اتركوا بيتي، ليس عندي غيره).
حين عاد لم يجد الغرف ولا منافعها. لم يبقوا له سوى جزءا من السياج الذي يحوي ذلك الرجاء المكتوب بالتوسل. منذ عشرين عاما وهو واقف هناك. زوجته واطفاله تركوه ينتظر لوحده.

سألته:ماذا تنتظر؟

قال: (انتظر ان يمر بي شخص مثلك لأحكي له، اريد ان احكي فقط، لااريد شيئا، اريد اذنا تسمعني، اريد ان اقص لكل عابر ماجرى مرات ومرات، بنفس عدد القرميد الذي بنيته بيدي ولم يبق منه شيء).

وضعت يدي على خده ومسحت دموعه، ثم رحت اطوف بالحي المفرغ من البيوت، واسجل العبارات التي لم تشفع، ولم تؤثر ، ولم تمنع احدا:

فيما يلي عينات من عبارات طلب الرحمة، والتوسلات التي كتبها اهل المحمرة على جدران او ابواب بيوتهم بقصد منع الجنود العراقيين من السرقة او التهديم. كتبت هذه التوسلات بخط اليد قبل دخول الجيش العراقي، ومغادرة سكان المدينة. تضمنت التوسلات ذكر اسماء مقدسة لدى المسلمين (خصوصا الشيعة): الله، محمد، علي، الحسن، الحسين، فاطمة، العباس، وغيرهم. يعتقد اهل المحمرة ان تلك الاسماء المقدسة سوف تقف حائلا بين العراقيين وبين نهب او تدمير ممتلكاتهم.

(اتوسل اليكم، باسم فاطمة، اتوسل اليكم، باسم الحسين. باسم العباس، باسم ام البنين. باسم زينب. اتوسل اليكم باسم عبدالله الرضيع. اتوسل اليكم، باسم شرفكم، عرضكم، ناموسكم، اتركوا بيتي، لا تقتلعوه، بنيته في خمسة عشر عاما. هذه الغرفة لابني كي يتزوج بها، الله يبارك ابناءكم. هذه عيادة للفقراء، لا اتقاضى اجرا، لا تنهبوها. هذا الكرسي هو مصدر عملي وعيشي، احلق رؤوس الفقراء مجانا، اذا تركتموه سوف اكون ممتنا. هذه الباص هي كل ما نملك انا وعائلتي، محركها عاطل لاينفعكم، اتركوا العجلات لا تفككوها ، دخيل الله ونبيه والأئمة، وكل من يفعل ذلك فسوف يكون خصمي يوم الحساب. الايادي

التي تمتد على ورشتي لن ترى الخير، هذه الورشة تعيل خمسة بيوت فلا تمسوها. كلوا كل مافي البستان، ولكن لا تقطعوا عنه الماء. ان كنتم عربا فنحن مثلكم، وان كنتم مسلمين فنحن مثلكم ، وان كنتم بلا دين فنحن اخوانكم في الانسانية. اتركوا لي بيتي. هذا المخبز يطعم الحي. هذا هو حمام المدينة، فيه يوم مجاني للفقراء كل اسبوع، ايها الجنود العراقيين: ادخلوا، واستحموا، تجدون صابون ومناشف، ولكن لا تهدموه)

وجدت العبارة الاخيرة التي تشير الى حمام المدينة لازالت شاخصة على ماتبقى من جدار. التقطت لها صورة طبعا. العبارة باقية لوحدها وسط فسحة من الدمار. اين الحمام؟ اين المناشف والطاسات والصابون؟

وانا اطوف في المدينة المستباحة امتلأت جمجمتي بالتساؤلات عن هوية المشاركين في هذا العمل:

من يستخدم ليفة حمام تعود لشخص غريب؟ وكيف بيعت صحون مازالت تحمل حساء الامس؟ من يشتري ملابس داخلية مازالت تحمل عرق المتزوجين؟

من يشتري البومات صور عتيقة؟ كيف تباع ذكريات الناس؟

تُركتْ جميع التوسلات بأمر رسمي. التقطت لها صورا، ووضعتها على طاولتنا الخمرية في الباص الخشبي لنضاعف سكرنا. كانت هذه التوسلات اليائسة المهملة تماما تعضد الكثير من معتقداتنا حول (الحصانة الاخلاقية) للجيش العراقي، وربما المجتمع برمته.

وجدت ان الناس في المحمرة لايرغبون بالنسيان، يريدون رؤية ماحل بهم على الدوام، كأن دواء النفوس المحطمة هو في رؤية الفاعل عاريا ومنعه من ستر عورته. حين اخرجوا الفاعل (**1982**) من مدينتهم لم يقتلوه، بل طلبوا منه ان يخلع ثيابه، خاطبوه بمكبرات الصوت: **العري مقابل الحياة**، ان يخلع ثيابه لينجو من الموت. جمعوا ثيابه، وصنعوا منها حبلا طويلا ظل يدور في طرقات المدينة مثل نشرة عرس او مأتم باذخ. كانت عورة الجيش المطرود (1982) وملابسه الداخلية تطوف ارجاء المدينة. هنا مخالبه. هنا فكيه العطرين. هنا بوله ومخاطه.

هنا قذف حليب شهوته للخراب، مجنزراته، غائطه الاصفر. كل شيء ترك كما هو كي لايندمل الجرح. لذلك بكيت، بكيت بحرقة، وتركت خطواتي العمياء تسير على خطى العقيد هشام، متوجسا ان اواجه في اية لحظة على حبل الغسيل بدلته العسكرية، ترفرف حاملة بداخلها ذهب اختي رضية، مصوغاتها الذهبية المسروقة من المحمرة، الرتبة الذهبية المصاغة نسرا ونجمتين على كل كتف من كتفيه، يال الهول. الرتبة المصنوعة من ذهب مسروق، اربعة وعشرين قيراطا من الغطرسة المعفرة بالهزيمة. اللمعان الذي سرى في شرايين اختي فعطل كل شيء. النجوم الذهبية جعلته يهزمنا جميعا ويستولي على قلبك يا رضية. ايتها السحر العذب والنشوة المستحيلة. ايتها الغدير الفائق النقاوة، كيف تسنى لهذا البريق ان يخطف عينيك. انا ابكي يا رضية، يا احب المخلوقات على هذه الارض. كنت اتمنى لو كنتِ معي وانا أطوف في خراب المحمرة. تعالي ايتها الرحم الابدي، يا توأم الروح والعقل، خذي عيني ولو للحظة واحدة لترينه، عاريا من ثيابه، عاريا من حزام النسر ومخالبه الذي طوقك به، وبيريته التي ادارت عنقك، ومجردا من جزمته التي ضرب به الارض يوما ففجرها عشقا وخطف قلبك. هذه المدينة هي نقطة العبور من اللعب الى الجدية. هنا يتحول موضع الرصاص، من اكياس الرمل، من الشواخص الخشبية، من زجاجات الكولا، الى اللحم البشري الحي.

هل يعجبك ان تري رئة بشرية مثقوبة بأوامره. العقيد يصيب الهدف بشكل اخاذ ومحكم. هذا الاتقان في ازهاق الارواح، هذه القدرة في تعطيل الانفاس البشرية لم تخطر على بالك يا رضية.

كم احبك يا رضية ياجسدي الآخر،

كم اود لو تدوسي باقدامك على هذا الوعي الحاد المفرط الذي يجتاحني، و يهدد بابعادك عني. انقذيني من هذه اليقظة الغير محتملة. انقذيني من هذا الالحاح والسعي لتحطيم صورة عقيدك.

★★★

عثرت في المهرجان على **النقيب مجبل سوادي**، من اهالي البصرة، **دخل المحمرة بساقين وخرج منها بساق واحدة**. كان واحدا من مغاوير الفيلق الثالث. عمل بأمرة العقيد هشام، ورافقه في معركتي المحمرة (الدخول 1980، والخروج 1982). وقبل ان يفقد ساقه فلت من الموت عشرة مرات. نال نوط الشجاعة لمشاركته في اصطياد قناص ايراني حيا. وهو واحد من 60 مغوارا (من اصل الفين) ظلوا احياء حتى آخر يوم في معركة المحمرة الاولى 1980.
مازال مجبل يختزن كل الخطوات التي سارها، يعرفها خطوة خطوة. كنت اظن انه فقد جميع خطواته اليسرى، وانه سوف يضيع ويضيعني معه. قال ان ذاكرته مازالت تسيرعلى قدمين. شعرت بالحرج، كأنني فتحت جرحه. قال انه حاليا لايحس بفقدان ساقه الا اذا نظر الى الاسفل، او سأله احدهم عنها. اما اذا اغمض عينيه، او نام ، او تعود الناس على رؤيته دون فضول، فسوف تعود قدمه اليه. ولقد مرت فترة طويلة، كان فيها يصحو من النوم ناسيا انه بساق واحدة، فينزل من السرير، ويفقد توازنه، ويسقط على الارض. عندئذ نقل فراشه من السرير الى الارض. واظنه لم يخف الكثير عني. قال ان الله هو الذي ارسل القذيفة التي بترت قدمه، وهو الوسام الرباني الذي يناسب عمليات تفكيك مدينة المحمرة التي شارك فيها. عاش لوقت طويل دون شعور بالذنب، يوطن نفسه ان ماجرى لايخرج عن السياقات العسكرية. زودني باسماء الصفوة من المعوقين الذين ساهموا في عمليات النهب والتفكيك. وهو يعتقد ان العقاب الآلهي يقف وراء تسعين بالمئة من معوقي الفيلق الثالث. لقد وصفهم بطريقة تشبه الاحياء المجهرية في عملها في تفتيت الجثة الميتة وتحويلها الى تراب.
اما نحن (حسن وانا) فقد اخترنا مصطلحا مقتبسا من الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا: (**التفكيكية**). لقد اطلقنا عنوان (التفكيكيون) على مجاميع الجنود التي تشكلت فور دخول مدينة المحمرة، وظيفتها (تفكيك) كل شيء الى عناصره الاولية ونقله الى الجهة العراقية. لقد كان هذا المصطلح رائجا في ذلك الوقت بين اوساط المشتغلين بالثقافة والكتب في العراق. هذه المجاميع هي

نفسها التي سوف تفكك دولة الكويت باكملها لاحقا (1990) باوامر رسمية عليا، مع تطور جديد هو دخول متطوعون مدنيون، ومؤسسات حكومية عراقية مدنية. هذا المصطلح (التفكيك) مازال حيا، ولكنه موضوع آخر لكتاب آخر.

★★★

امنت لنا ادارة المهرجان سيارة بيكب مع سائق للذهاب الى المحمرة. في الواقع اننا قطعنا ذلك الطريق في نصف ساعة، بينما احتاج مغاوير الفيلق الثالث (تحت قيادة العقيد هشام) الى اربعة وثلاثين يوما. الآن سوف نتتبع خطوة بخطوة حركة سير العقيد ومن معه في طريقهم الى المحمرة عام 1980. هؤلاء الجنود لم يخوضوا حربا نظامية من قبل. كل خطوة الى الامام تقربهم من المحمرة، وتبعدهم عن البصرة. تقربهم من الجدية وتبعدهم عن اللعب. تقربهم من الرصاص الحي وتبعدهم عن الرصاص المزيف. اما العقيد هشام فكان استعداده افضل بالضرورة. كان اداء العقيد يتصاعد مع زيادة الخسائر في الارواح. الصدمة الاولى. مع كل اشتباك تزداد صلابة القلب، ويصبح اكثر كفاءة ، وقربا من المهنة.

في الطريق الى الالتحام الاول بالعدو قربني الدليل **مجبل** من اللحظة التي ابحث عنها: عبور الجنود من هدف وهمي الى هدف حي. لقد انتهى زمن الرصاص الموجه الى كيس الرمل في ساحات التدريب،

والآن بدأ ميدان المعركة، زمن الرصاص الموجه للصدور الحية.

(اخبرني يا مجبل: كيف رأيت العقيد؟ هل كان يعجل الاشتباك، ام يؤخره؟)

مجبل: قبل الاشتباك بالعدو، العقيد هشام جمعنا (نحن الضباط)، وجس صدورنا باصابعه، راح يعد دقات القلوب. شرح لنا معنى الالاشتباك:

(**الاشتباك ليس عناقا، ولا لقاء الاحبة، بل لقاء الضواري بالضواري**)

طلب ان نضع هذه العبارة في آذان الجنود. سوف تتحول الكلمات الى رصاص حي، ومعها كل التسهيلات اللازمة لازهاق الارواح من الصدور وكسب المعركة

. اعطانا الاوامر بدقة. كل رصاصة توجه لتصيب صدرا حيا. لا اريد رصاصا في الهواء، او بعين مغمضة. (اطلق النار لتقتل).(اذا لم تَقتُل، تُقتَلْ).

★★★

اتاح لي مهرجان الحرب العراقية الايرانية فرصة التعرف على الدكتور (**شاهبور فروغي**) رئيس لجنة الحفاظ على تراث المحمرة، وهي مؤسسة خرجت من صدمة الغزو، وتحمل المزاج الذي تولد عنها. لقد وقفوا بوجه ازالة مخلفات الغزو، ولم يسمحوا الا بالحد الادنى من اعادة بناء ماهدم. وفروغي طبيب من سكان المحمرة يتكلم الفارسية والعربية، كان مشرفا على اسعاف الجرحى، وهو من اواخر الذين غادروا المدينة بعد دخول الفيلق العراقي الثالث اليها. تحدث عن تلك الايام كأنها البارحة، لم يكن حذرا معي، قال ان الدولة لم تأمر بتفريغ المدينة من السكان. حصل مايشبه اللعب بالارواح. القيادة الايرانية كانت تفكر على النحو التالي: (دع الغزاة يتورطون بالمزيد من الجرائم. غدا نفتح ابواب المدينة الى وكالات الانباء العالمية). مدفعية احمد زيدان تقصف المدينة لتقرر مصير اهلها. القذائف التي انهالت على الطوابق العليا ضغطت على الطوابق السفلى فحولتها الى سراديب ارضية. سوف تراها بعينك، بيوت لم يبق لساكنيها سوى فتحة لشم الهواء، ودخول الماء والطعام، والبريد. اثبتت مدفعية زيدان ان مدينتنا شيدت على ارض رخوة. طاقم موظفي البلدية والمهندسين استبدلناهم. لدينا الآن مجلس بلدية جديد، وشروط قاسية لأجازات البناء. فروغي سار معي في تفاصيل المدينة، شوارعها الرئيسية: حي الطالقاني، وبلوار امير كبير، وخيابان بهارستان، ومولوي، وشابور، وداريوش، وحافظ ، وشقايق. طلب ان اضع اذني على ثقب في الارض، جاءتني اصوات من عالم مدفون تحت الانقاض منذ عشرين عاما. استغاثات بلغتين، وصيحات بعيدة خافتة ممزوجة باصوات الانفجار. حين تسكت القذائف تصعد صيحات بترددات موجعة، تضرب السقوف ثم تسكت. من نغمة الصوت واللغة واللكنة تعرفنا على هوية المدفونين. هذا الثقب يفضي الى عائلتين، فارسية وعربية، كانا يسكنان في شقتين متجاورين في الطابق الارضي. تعرضت

العمارة الى القصف، فغاصت في الارض، وانهار الجدارالفاصل بينهما، فاصبحا في بيت واحد. من تحليل الاصوات عرفنا عددهم الكلي (سبعة عشر شخصا)، وعرفنا اعمارهم. قدمت شركات انقاذ اجنبية ومقاولون محليون عروضا لأستخراجهم، لكننا رفضنا ذلك. انظر ختم المؤسسة، انظر القفل، وشمع البلدية الاحمر، فنحن لا نعرف بالضبط ماهية الوجود الذي يعيشون فيه. قد يكونوا موتى، لكن اصواتهم لاتموت، محبوسة في السرداب، مثل عنصر غير مستقر، يشع استغاثة، بلا انقطاع. قال فروغي: تعال لأريك ماهو اغرب، فمشيت وراءه الى شارع فردوسي. وضعني امام مبنى حكومي نجا من آلة التدمير العراقية. قال ان الناس نزلوا الى سرداب المبنى هربا من القصف. ويبدو ان صاروخا ذكيا عرف مكانهم فدخل عليهم عند منتصف الليل. امسك بيدي ووضعني عند ثقب في اسفل المبنى كأنه فوهة لمرصد فلكي. (انظر، هل ترى زعنفته، انه لازال حيا)، لم ينفجر.ينفث رائحة زنخة، ويطلق شخيرا مزعجا. انه ساكن مثل تمساح وهم يحيطون به، معلنا في كل لحظة حضوره، وقدرته على ان يحولهم الى غبار. ضع اذنك هنا لتسمع تكات الساعة المزروعة فيه. لا احد منهم يجرؤ ان يلمسه. استسلموا ، وقبلوا ان يكبلهم الى الابد.

قضينا الليلة في بيت اهله. وَضعَ فراشين على الانقاض. لم يأتيني النوم. اسمع عواءا يصعد الينا من تحت، سألته اين اهلك؟ فقال انهم نائمون في السرداب. صدمتني كلمة (السرداب)، سألته: من يطلق هذا الصوت المر؟ أجاب: هذه امي، طمرتها رشقة قذائف محكمة، صوتها لايطرب، هل تسمع صدأ الحنجرة؟ ثم نهض من الفراش، وراحت انفاسه تتدحرج مثل كرة ملتهبة من قمة جبل. سوف اريك العائلة. كشف الغطاء، فرأيتهم موزعين بلا انتظام على ارضية السرداب، نائمين الى الأبد. لا تؤاخذهم، قال لي، اعذرهم ان لم يتمكنوا من الوقوف للترحيب بك.

طلع الصباح ولم تشرق الشمس على المدينة. سألته عن الشمس، قال:

(الشمس تصل الى هنا متأخرة، فهي تشرق اولا على جدارية وسط المدينة تحمل كل ما خسرناه. لم يعد لدينا حاجة للشمس الا لتنير لنا هذا الحائط. انه عزاؤنا الاكبر). سوف نذهب اليه الآن.

يبلغ طول الجدارية اربعمئة متر، تمتد بين حي الطالقاني ومسلخ المدينة مرورا بشارع امير كبي، خطت في الجدار جميع اسماء الضحايا، وفي الجهة الاخرى من الجدار اسماء الضباط العراقيين الذين شاركوا في غزو وتدمير المدينة. بحذر، وخطوات مترددة كنت اسير الى جوار الدكتور فروغي وهو يأخذ بيدي مثل طفل في اللعب، حاولت ان اغمض عيني، فنصحني ان افتحها جيدا. استجبت لأرادته. فتحت عيني على اسماء، ووجوه، وصور، واعضاء حية، جماجم، واصابع، وضفائر، وعيون، واذرع، واقدام، ورماد لجثث محترقة، سوائل واخلاط بشرية، ولعاب معبأ، ودمع في قناني، وبقايا عرق الخوف . قافلة الضحايا تسير قدام عيني، الجدار معزز بالارقام. عبرنا الالف السابعة للضحايا. تخلت المدينة عن اسمها، واصبحت (**خونينشهر**) اي مدينة الدم.

تعبأت عيناي وانا الاحق الاسماء، والوجوه، ورماد القتلى ومقتنياتهم المعلقة في الجدار. بدا الأمر بلا نهاية، وقد رأف الدكتور بحالي، فتركني اسير على هواي، يملؤني شعور عارم بالخزي، حتى شعرت باصابعه تضغط على حاجبي، وقال افتح عينيك الآن لترى ماتبحث عنه. فتحت عيني فوجدت اسمك ايها العقيد بحروف قرمزية غامقة وبالخط الفارسي. كل حرف محفور بعمق رصاصة، ومنقوش بلون الدم. جاء اسمك مسبوقا بثمانية الاف روح ازهقت، فماهي حصتك من هذا الجدار الباذخ؟

هل الجدار لك ام لهم؟

ماذا سأقول لاختي رضية؟

هل املأ فمي بالرمل، ام اضعك يا رضية وجها لوجه امام الجدار. واترك لك اختيار الجزء المحترق؟ ما الذي سيحترق فيك يارضية: عينيك، ام قلبك، ام ذاكرتك؟

يقول الدكتور فروغي: (ان العقيد هشام لم يكن لطيفا معنا، انه واحد من خمسة ضباط مطلوبين للمدينة). وجدت الاسماء محفورة في الجدار: **هشام الخوصر، احمد زيدان، كامل ساجت، جواد شيتته، وصلاح القاضي**، مع ملخص لاعمال كل واحد منهم. سوف اتابع صهري العقيد هشام. قدام اسمه وجدت حصته النظرية من الضحايا (بعد قسمة ثمانية آلاف على خمسة)، وحجم الخراب الذي احدثه في المدينة: ثلاثين بالمئة من سكة الحديد، مستشفى الولادة، المسلخ، قرية دار خوين، ثلاثة جوامع، عشرين بالمئة من المنازل، بساتين نخيل، حقول دواجن، ومحطة تعبئة وقود.

في جانب الضحايا الايرانيين، كان من الصعب على العين ان تمر دون ان تقف عند صورتين لأكبر واصغر القتلى سنا، وقراءة ماكتب عنهما:

الاكبر: (غلام محسن اصفهاني– 79 عاما)، قتل في الايام الاولى للحرب بعد ان خر صريعا في اشتباك مع مغاوير الفيلق الثالث، ويعني نظريا انه قتل على يد العقيد هشام.

الاصغر: (**محمد حسين فهميده**)، عمره (13) سنة، صبي من مدينة قم، خرج دون علم اهله بعد اعلان التعبئة العامة. ركب القطار، وظل يتنقل من باص الى آخر حتى وصل المحمرة. عبأ جسده بالديناميت، ووقف عند معبر ضيق ينتظر دبابات الفرقة الثالثة. اكثر من عين رأت هذا الصبي. وصل رتل الدبابات الى المعبر. ركض الصبي وتسلق الدبابة الاولى، دخل من فتحتها، بعد لحظة واحدة خرجت من الفتحة شعلة نار. الكابينة صارت بركان غاضب، قذفت الصبي وطاقم الدبابة، شبت فيهم النيران، فصعدوا لهبا ودخانا اسودا. توقف رتل الدبابات، وحضر قائد الفرقة الثالثة (جواد شيتنة) بنفسه. حين سمع ماجرى تصدع شيء فيه، وتلفظ بكلمات كردية بالغة المرارة، لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه ليجد مخرجا للرتل. اما(فهميدة) فقد اصبح هو دلالة المعبر، ووضع اسمه على كل الدروب التي سار بها قبل ان يصل الى ذروته.

★★★

القدم اليمنى للنقيب مجبل

(عزيزي القارئ: أرجو ألا تنسى أن النقيب مجبل البصري دخل المحمرة بقدمين وخرج بواحدة. لقد فقد قدمه اليمنى في مكان ما أثناء الانسحاب من المحمرة 1982)

يحاول مجبل ان يسير بخط مستقيم لكنه لايقدر. الميلان يتعلق بوجود تعارض لم يحسم بعد بين ذاكرته وجسده. الجسد يسير بقدم واحدة، بينما الذاكرة بقدمين. الساق الاصطناعية (اليمنى) تنحرف عن السير عند كل موضع تستيقظ فيه ذاكرته. وكان علي ان اتحاشى التصحيح المتكرر كي لا ادوس على جرحه، وفي ذات الوقت اتبع خطواته. كنت احاول حصره في الطريق الذي سلكه زوج اختي ، بينما هو يبحث عن قدم فقدها بعد الخروج من المحمرة. كان مجبل يتحرك مستعينا بخريطة عسكرية عتيقة محفوظة في غلاف بلاستيكي شفاف. حين لايصل الى شيء يطويها، ويضعها في جيبه، ويسير بخط مائل. بعد ثلاثة مرات صرت اخجل ان انبهه. فتركته يسير على هواه. وقف عند دبابة (جفتن) محترقة قبالة مسجد مثقوب القبة ومثلوم السياج .بدأ يكلم نفسه: اتصلت بالعقيد طالبا منه الانسحاب. قلت له العدو يضغط بشدة. الفرقة الثالثة انسحبت، والفرقة الحادية عشر تدمرت، ولم يبق سوانا. رفض العقيد ان نترك مواضعنا. ثم اتصل بي بنفسه قائلا انه لايأمر بالانسحاب ولكن يعطيني الحق في تقدير الموقف. جاءت المروحيات الايرانية وراحت تحوم حولنا، فاتخذت بنفسي قرار ترك الموضع. وقلت لمعيتي لينجو كل بنفسه، ورحنا نهرب في كل الاتجاهات. وضعت المسجد خلفي ورحت اركض. رأيت مروحية ايرانية تطاردني، فرحت اجري بالمقلوب:

رأسي الى الوراء وركضي للامام. اريد ان ارى موتي بعيني. لازلت اتذكر الذراع وهي تشير الي من مقصورة المروحية. جاءتني رشقة. فغيرت طريقي. ونزلت الى ارض سبخة ابحث عن ثقب في الارض لاغور فيه، رحت اتخبط مثل ثمل في الليل، واحسب اني سقطت مرارا لكني لم اتوقف عن الجري. ثم احترقت الارض من تحتي، واحسست برعدة في جسدي وشيء دام ، لكني لم اتوقف عن الجري. ولم يمض وقت حتى رأيت الكثير من رفاقي وهم يركضون في ذات الاتجاه. وانهم مثلي هاربون من المحمرة. وللوهلة الاولى شعرت انني في سباق. حين اقتربت منهم لاحظت شيئا يجمعهم : انهم يركضون بساق واحدة. حتى هذه اللحظة لم ادرك انني واحد منهم. لذلك واصلت الجري بقوة فتجاوزتهم، ورحت اعد كل من اتجاوزه، كان عددهم لايقل عن الخمسين. لازلت اجهل كيف قطعت كل تلك المسافة بساق واحدة؟.وحين وقفت امام العقيد لأودي التحية لم اكن اعلم انني ارفع فخذا بلا قدم، فصاح بي: توقف، ماذا تصنع؟ انت بلا قدم. ثم سقطت عند قدميه. عندما صحوت وجدت نفسي في مستشفى البصرة الغسكري.

يعتقد مجبل جازما ان قدمه لازالت حية، وانها هي الاخرى تبحث عنه مثلما يبحث عنها، ولا يحتاج سوى تقريب المسافة بينهما، عندئذ سوف تهرول اليه. ان محنة القدم اكبر، فهي الجزء الاصغر من جسده. قلت له سوف نبحث عنها سوية. سألني: هل تظن ان الايرانيين ركبوها لواحد من معوقيهم؟ قلت له: لا أظن، اذ لايجوز قانونا السير بقدم (العدو)، ربما يسبب ذلك حدوث اشياء خطرة. على الارجح انهم احتفظوا بها في ثلاجة لعملية التبادل، بعد وقف اطلاق النار. قال انه يستطيع ان يميزها بسهولة لو عرضت امامه، فقد اعتاد ان يضع علبة دخان نوع (سومر) تحت جواربيه:

(عندما استيقظت في المستشفى شعرت برغبة في التدخين، فمددت يدي فلم اجد علبة السجائر ولا الجوراب. عندئذ اخبروني ان قدمي فقدت في الطريق بين الشلامجة والمحمرة، ونصحوني ان انساها، وسوف يركبون لي واحدة، وسيضعون فيها جيبا للسجائر وللكبريت)



في طريق العودة الى المهرجان جلس النقيب المعوق مجبل في المقعد الخلفي لسيارة البيكب الى جانب الدكتور فروغي. انا جلست الى جانب السائق. لم يكتم مجبل موقفه من جدارية المحمرة. كان ينتظر اية شرارة لينفجر. وقد لاحت تلك الشرارة عندما وصلنا مفترق طريق، فطلب الدكتور فروغي ان ننعطف ليرينا المعبر الذي شهد العمل البطولي للصبي الايراني **فهميدة،** ابن ال 13 عاما. سلكت السيارة الطريق الجديد وسارت لربع ساعة. وصلنا طريقا ضيقا بين هضبتين، فطلب الدكتور ان نتوقف، واشار الى الموضع قائلا: هنا فجر الصبي نفسه، وراح يسرد علينا تفاصيل الحادث. نظرت الى وجه النقيب مجبل فرأيت علامات الاستياء. كانت قدمه البلاستيكية قد اخذته بعيدا عنا، واحسب انه اعطانا ظهره منتظرا ان ينتهي الدكتور من تلاوة قصة فهميدة للمرة الثانية. اصبح الجو مشحونا. طلب منا الدكتور فروغي الوقوف دقيقة صمت على روح (الشهيد فهميدة). كان مجبل مازال مبتعدا عنا. حين انتهت الدقيقة، فتحت باب السيارة وناديت على مجبل، رجوته ان يجلس مكاني. في الطريق لاحظت ان مجبل كان يتعبأ مطلقا كلمات استخفاف بالدكتور فروغي. ما ان دخلنا الشلامجة حتى انفجر مجبل غاضبا، و امسك بالدكتور فروغي من ياقة قميصه. كنا على خط

الحدود بين العراق وايران. كادت الحرب ان تندلع من جديد . طلبت من مجبل ان يترك ياقة الدكتور، (لانريد حرب، قل ماعندك دون عنف).

دفع **مجبل** بكل ثقله مخاطبا فروغي :

(سوف اقودك الى متحف الشظايا في البصرة لترى بنفسك الوجه (المشرق) لابطالكم في الحرب، وسوف اريك الشظايا التي مزقت (**خلود محيبس الزيداوي**) ذات السنوات الست. كانت القذيفة اطول من خلود ثلاث مرات، وعشرين مرة اثقل من وزنها. خلود اصغر من فهميدة بسبع سنوات. كانت نائمة في السطح في حي (الحكيمية) في البصرة. لم تكن تحتضن بندقية في صدرها، بل حقيبة دفاترها، وتنتظر الصباح لتذهب الى المدرسة. وهي واحدة من الاف الضحايا في البصرة. نحتاج الى آلاف الدقائق من الوقوف صمتا على تلك الارواح البريئة. هناك اكثر من خمسة آلاف طن من القنابل التي ارسلتموها الينا. لقد حملنا منها للمهرجان خمسة عشر طنا فقط. وسنهديك طنا اذا رغبت لتزين به جداريتك في المحمرة او بيت اهلك. كان من الافضل ان توفروا هذه الاطنان من الحديد لصناعة اباريق الشاي بدل ارسالها الى اطفال البصرة وهم نائمون).

واصل مجبل حديثه بعد ان هدأ قليلا، وزفر الكثير من الغضب:

(لقد شنقنا الرجل الذي كنتم تريدونه، لم يبق سوى ان نسلمكم رأسه، فماذا تريدون اكثر من ذلك؟ لا يوجد اي داع لوضع اسماء الضباط وتجريمهم. لكي تنتهي الحرب يا دكتور فروغي ينبغي ان تهدم هذا الجدار او على الاقل ان ترفع اسماء رجالنا منه. ماذا تقول لو اننا عملنا بالمثل: نضع اسم(خلود) على كل شارع في البصرة، ونطلب من المدارس الوقوف كل خميس دقيقة صمت على

ارواح ضحايا البصرة، ونضع جدار يحمل اسماءهم، اضافة الى اسماء قادتكم ك(مجرمين) في وسط البصرة، و ونربي اجيالنا على حفظ اسمائهم: الجنرال قاسم علي ظهير نجاد، الجنرال علي صياد شيرازي الرجل الفولاذي (مرد فولاد)، محسن رضائي، محسن رفيق دوست، محمد حسين جلالي، وغيرهم).



التفكيكيون

لم تصدر من قيادة الفيلق الثالث اوامر تتعلق بحماية الممتلكات المدنية في المحمرة. كان صمت الفيلق ازاء نهب الممتلكات العامة والخاصة يشبه اعطاء رخصة شرعية. فور اعلان السيطرة الكاملة على المحمرة تشكلت مفارز (حضائر) لتفكيك المدينة ونقلها على ظهور الآليات العسكرية الى مواضع أخرى. هذه العملية كانت شمولية بحيث ازالت الجزء الاكبر من وجه المدينة، وكانت تجري بشكل متواصل قرابة (575) يوما هي الفترة التي خضعت فيها المدينة لسيطرة الفيلق.

ومع الكأس (التي شربتها انا لوحدي) توصلت ان (التفكيكيون) هم الممثل الشرعي لاخلاقنا. هم عمقنا التاريخي. هم العودة الى الجذور، هم انبعاث لتاريخ امتنا، هم ورثة اولئك المحاربين الذين صنعوا مايسمى (الفتوحات الاسلامية).

آمل أن يعذرني الفيلسوف الفرنسي **جاك دريدا** لاستخدام هذا المصطلح لوصف الجنود العراقيين في المحمرة. الحقيقة انني لا أعرف كيف أبرر ذلك بقوة.

الحقيقة انني اود لفت النظر الى بؤس (**المثقف العراقي**) واغترابه. انه غالبا مايكون بعيدا عن التحولات الخطيرة. استطيع ان اقول ان الثقافة العراقية في ذلك الوقت كانت مشغولة بالفلسفة البنيوية:(**تفكيك**) الخطاب واللسانيات و والسرديات عموما، دون الانتباه الى مايجري على الارض من (**تفكيك**) لمدينة المحمرة او دولة الكويت (لاحقا).

في الجيش الذي دخل المحمرة، التفكيكيون هم السفراء المعينون من قبل وحداتهم، وظيفتهم تفكيك المدينة المستباحة، ويكاد ان يشمل هذا التمثيل جميع الوحدات التابعة للفيلق العراقي الثالث.

هل صدر أمر بهذا الخصوص؟

هل التفسير لما جرى يتعلق بفكرة الغنيمة القديمة، اي تجريد الخصم من ثيابه بعد قتله، وتركه عاريا تحت الشمس؟ هذه الاباحية واللامبالاة المتأصلة التي نحرص عليها، ام الفوضى؟ ام التنكيل والاذلال؟

ام اظهار القدرة على التجاوز والاستهانة والاستعداد التام للمحو؟

كل هذه الاسباب الوضيعة محتملة، وتترك مرارة في الفم.

اين ذهبت آلاف المدارس والجامعات ومراكز الفنون والمنتديات الثقافية والكتب في العراق؟

الليل لوحده معي. لاشك انني اتكلم مع الكأس وحده، او باص ابي.

سوف تغرق اسئلتي في الكأس، دون اجوبة شافية.

عندما دخلت في هذا المستنقع كان هاجسي الاول هو معرفة حصة زوج اختي، وخطر ببالي ان اعود الى رضية لفحص جميع الحلي الذهبية التي بحوزتها، ومعرفة مصادرها الحقيقية، وهل هناك وصولات شراء رسمية؟ بعد دخول الفيلق الثالث الى المحمرة وحتى اثناء الاشتباك اصيبت الدولة الايرانية بصدمة. من المحتمل ان الاوامر لم تصدر لتفريغ البنوك من محتوياتها. الاسواق ومحلات الذهب ظلت مقفلة ومحمية من قبل حراسها الاصليين اضافة الى المتطوعين. بعض المواقع لم تفرغ من محتوياتها وذلك لرفع الروح المعنوية.

طوال المدة البالغة (575) يوما كان العقيد هشام واحدا من المسؤولين العسكريين في المدينة، وقد تم تعويضه عن جميع الجنود الذي خسرهم في المعركة، فاصبح يتحكم بما لايقل عن الفي مقاتل اضافة الى الافواج الخاضعة لاوامره. هل كانت عمليات تفكيك المدينة تجري بعلمه ؟هل كانت تجري رغم ارادته ؟ ام بعلمه وارادته ومشاركته ؟

بدأت بالقرميد (الطابوق)، وهو اصغر وحدة للبناء. رحت اعد المساكن. في المحمرة مايقرب من ثلاثين الف بيت. تم تدمير النصف منها تدميرا كاملا، ونقلت بعد تفتيتها وتحويلها الى طابوق نظيف بواسطة المجاميع التفكيكية مع كافة الملحقات من ابواب وشبابيك، لتتحول الى غرف ومطاعم للضباط، وكذلك تم تشييد مقرات الادارة والسيطرة العسكرية والمستودعات الغذائية والتموينية وغيرها. لقد وصل طابوق المحمرة الى ابعد نقطة في الفيلق، وعثرت على شبابيك المدينة في مقرات الفرقة السادسة عند حافة منطقة مجنون في محافظة ميسان، وربما عبر طابوق المحمرة الى الفيلق العراقي الرابع. كان نشاط تلك المجاميع

وهم يفتتون احياء المدينة يدعو الى العجب، بحيث كانوا يخلطون الغناء بالتفكيك. من يشرف عليهم، ويمنحهم هذا الزخم والنشاط والاستمرارية؟

كيف تسنى لهم انجاز هذا العمل الضخم ؟ وماهي الحوافز؟

قدم مجبل تفسيرا مربكا لي، قال ان الاختلاف الوحيد بين (التفكيكيين) وغيرهم من الجنود هو في مدة الاجازة (الايام التي يقضيها الجندي في بيت اهله)، حيث يضاف لكل (تفكيكي) اياما فوق اجازته الاعتيادية وفق معادلة رياضية تربط الايام بالقرميد. هناك عرفاء مكلفون بعملية عد القرميد او الشبابيك او الابواب او حديد الشيش، وفي ضوء هذه الارقام تقرر عدد الايام الاضافية. بهذه الطريقة كان الجنود يتسابقون لتفكيك المدينة.

في الميناء انحصرت البواخر الراسية هناك، ولم يعد بمقدورها العودة الى البحر. البعض منها ينتظر تفريغ الحمولة ليواصل رحلته، وبعضها تحمل ركابا اضافة الى البضائع. اصبح شط العرب ساحة عمليات حربية. وعندما اقتربت الحرب من الميناء هبط الركاب والملاحين وتركوا كل شيء وراءهم بحثا عن طريق للنجاة. اصبح من المتعذر قيادتها بعد اغلاق المنافذ المائية، ومنع الملاحة في شط العرب، حيث قامت الطائرات بضرب المطارات والموانيء ومصافي النفط ومنصات تحميل النفط ومصانع البتروكيمياويات في كلا البلدين.

خرجت مجاميع التفكيك على الفور في الميناء، انبثقت مثل ضفادع بشرية خرجت توا من البحر، كانوا بالزي العسكري. هل كانوا جنودا فعلا، ام متتكرين بزيهم؟ هل عبروا من الضفة الاخرى لشط العرب (الجانب العراقي)؟ هذه المنطقة التي تنتج افضل الشعراء والمهربين والتمور في البصرة.

اسئلة من قيء اصفر مفتوحة على كل احتمالات الانحطاط، وكان لابد ان افرغ الكأس في جوفي كي اصل الى قعر هذا المستنقع، كانني اسكب في معدتي رطلا من القمل.

ابتدأوا بالحاويات المغلقة المكدسة على ارصفة الميناء، استخدموا لفتحها كل انواع الاسلحة الخفيفة بمافيها الرمانات اليدوية وقاذفات البي ار جي.

لماذا لا تتصارع هذه المجاميع فيما بينها، لاسيما وهم يحملون السلاح؟

من يوفق بينهم، ويجعلهم يغنون وهم يحولون الابنية الجميلة المكتملة الى تل من القرميد؟ بعض المجاميع يرافقها جهاز لاسلكي، ممايؤكد عائديتها الى وحدات الفيلق. ما ان تُفتَحُ حاوية ويُكشَفُ عن محتوياتها حتى تتعالى اصوات البشارة، نداءات الفرح، الزغاريد، واصوات العيارات النارية في الهواء. يتم نقل البشرى لاسلكيا الى المقرات الخلفية : (هلو .. هلو ....هل تسمعني؟ اجب. سجل رقم الحاوية .... المحتويات اجهزة ريكورد يابانية).

رمانة يدوية تفتح حاوية جديدة، زغاريد، عيارات نارية للبهجة، بشرى سارة ،اتصال لاسلكي:(هلو ... هلو ... هل تسمعني؟ اجب . سجل لديك: ثلاجات نوع هيتاشي . ... ملابس داخلية نسائية، مكيفات هواء، مساحيق تجميل، معدات طبية، تمر معلب للتصدير ، اطارات، ادوات احتياطية. ......)

عبر احد التفكيكيين سباحة وتسلق في باخرة عملاقة راسية في عرض النهر (شط العرب). راح يغوص في دروبها .كان هناك من ينتظره على الشاطيء. بعد ساعتين من الانتظار سمع المنتظرون صيحته. خرج اليهم وهو اشبه بالمجنون. لم يحتمل ما رآه فقد ، بح صوته من الصراخ وهو يشير اليهم ان يقفزوا الى النهر

ويلتحقوا به. في ذلك النهار تعالت الزغاريد وعمت الفرحة الميناء كله، فقد تم اكتشاف مستودعا هائلا للبيرة بنوعيها الاسلامي وغير الاسلامي. في نفس اليوم تحركت القوارب من الجهة العراقية. الله وحده يعلم كيف تتحرك هذه المجسات وتنسق مع قيادة عسكرية عليا مثل الفيلق العراقي الثالث. وعلى مدار ايام ثلاثة بنهارها وليلها تم تفريغ الباخرة من حمولتها لتخزن في بساتين البصرة. ومن هناك الى حانات البصرة والعمارة، وعلى ارصفة ساحة (ام البروم) وشارع الكورنيش وسط البصرة.ةلقد تحولت البيوت في احياء البصرة (السيبة، وابي الخصيب، والفاو، وحي عتبة، والزريجي، والحوطة، والحيانية) الى مستودعات تحوي كل مايمكن تخيله من بضائع مسروقة.

لابد ان اسجل هنا عجزي التام عن معرفة الشبكة التي كانت وراء هذه الانفلات المروع للغرائز البدائية ، هذا النهش الحيواني الصرف.

هل هناك محاصصة ؟ ماهو شكلها، وكيف تم ضبطها ؟

هل كان العقيد هشام شريكا ؟ متفرجا ؟ ام لا هذا ولا ذاك؟

لقد اخفى النقيب مجبل قدرا كبيرا من اعمال النهب التي شارك فيها. نقل لي رفاقه في السلاح براعته في انتقاء الاثاث وادوات الزينة وضخها على دفعات الى مغازات البصرة. وهم يعتقدون ان اللغم الذي قطع قدمه تفجر بفعل تلك التوسلات المكتوبة على البيوت والمحلات المنهوبة في المحمرة. ويقول احد الشحاذين (مقطوع الذراع) في ساحة (ام البروم) وسط البصرة انه من القلائل هنا الذي يحمل (عوقا شريفا). وحين سألته متعمدا عن اصحاب (العوق الغير شريف)،

اجـاب: لصـوص المحمـرة، ان الغالبيـة من المعـوقين هنـا هم امـا عسـكريين او مدنيين مشاركون في نهب المحمرة، اما هو فسبب عوقه حادث مروري.

حين انتهت المجاميع من تفريغ الحاويات بدأت عملية تفكيك الميناء. بعد بضعة اشهر لم يبق سوى البحر. اعيدت المدينة الى سابق عهدها قبل النشوء. لم تكن المدينة ثرية جدا، وكانت بيوتها من نوع واحد وتحوي قدرا متساويا من الفقر والغنى. العجلات العسكرية تفرغ حمولتها من العتاد والجنود، لكنها لا تعود فارغة بل تعبأ بالبضائع : من الشراشف الى سرير النوم , ومن الابرة الى الثلاجة. تنزع البيوت فلا تبقى سوى الجدران العارية. المحلات تنظف مما فيها، ثم تنسف بالديناميت. الآلاف من البيوت جرى تفتيتها بهذه الطريقة، وفي وضح النهار. اخرجت كل وحدة عسكرية مفرزة تفكيك تابعة لها في المحمرة. مفارز التفكيك تمون نفسها بنفسها، وليست بحاجة لخبز الجيش والحصة الغذائية اليومية. في الايام الاولى وصلت الرفاهية حدا ان الجرذان في الملاجيء تأكل الفستق المتبقي من تبذير الجنود.

من اعطى الاوامر بشطف الاسواق؟

لم اعثر على ورقة واحدة تشير الى ذلك، رغم الدقة المفرطة في السجلات العسكرية (الموقف اليومي) و(تقرير الخفارة الليلية).

في الباص الخشبية رفعنا (حسن وانا) كأس عجزنا امام فهم هذه اللصوصية، هذا الاتفاق الجماعي، والسهولة المفرطة في النهب. ماهذا النهب المنظم، المعزز بالاغاني والزغاريد والمكافآت؟ لماذا لايشمئز احد؟ او يعترض احد، او يتبرأ او

يهرب او يعترف؟ اعترض حسن بلاسم بعد ان تجاوز (حاجز النصف) اي نصف لتر من زجاجة الخمرة العراقية (**العرق**):

(الا ترى اننا امام جذر الامة، الذي يظهر بوضوح عندما تحين الفرصة. نحن لم نتغير كثيرا رغم مرور آلاف السنين. هؤلاء الجنود التفكيكيون صورة ليست بعيدة عن اجدادنا. مانراه في المحمرة هو نوع من الحنين، عودة الى الجذور الدافئة، المدفونة بقوة في كياننا)

في ذات السياق ظهرت واحدة من اكبر الملاحم (البطولية) التي صنعتها (العبقرية) العسكرية للعقيد هشام. ذهبت بنفسي لرؤيتها. عبرت السدة الحدودية ورأيت تلك (الملحمة) التي نال عليها وسام الرافدين من النوع العسكري.

(يال المجد)،

اذن زوج اختي هو صاحب الفكرة ومنفذها. وضع العقيد يده على مستودعات السكك حيث كانت المهمة تتطلب استخدام مفككات خاصة للبراغي. شكل العقيد سرية تفكيك من مئتين وخمسين جنديا. قام بالاشراف على تدريبهم وتجهيزهم قرابة سبعة شهور، وهيأ الاليات اللازمة ، والرافعات الشوكية التي تركها العدو. وحين انتهي من فصل الحديد عن الخشب بدأ بناء الخط الدفاعي الذي سيلتهم سكة الحديد بين المحمرة والاحواز و الممتدة لمسافة مئة وثلاثين كيلو مترا.

مرسوم جمهوري:

(تقديرا للفكرة الخلاقة التي ابتكرها العقيد هشام يونس الخوصر في تفكيك سكة حديد المحمرة الاحواز، وضربه عصفورين بحجر واحد: منع العدو من طريق مواصلات ستراتيجي لنقل العتاد والجنود، وعمل خط دفاعي رصين . ... قررنا منح العقيد هشام يونس الخوصر وسام الرافدين من الدرجة الثانية ومن النوع العسكري)

هذا الوسام مازال بشحمه ولحمه معلقا في غرفة نوم اختي. في حفل التتويج عانقه السيد الرئيس، وقبله مرتين، وضع كفه على الكتفين، وهمس باذنه: (هذه القبلة لاقتلاع السكة، وهذه ياهشام للخط الدفاعي الذي وضعته بنفسك في مكانها). نزلت على الوجه المتوثب دمعتان، فتلقفهما الرئيس بكفه، ودفن رأس العقيد في صدره لتصل اللحظة ذروتها.



1982

(معركة المحمرة الثانية)

في ليلـة 29 نيســان 1982 حصـل خسـوف كلي للفيلـق العـراقي الثـالث. عـبرت ضفادع الايرانيين نهر الكارون، حصلوا على موطيء قدم في الضفة الغربية للنهر، اقاموا جسـرا عائما، عبرت من خلالـه اعداد كبيرة من القوات النظاميـة والحـرس الثـوري، فاسـقطوا القواعـد الـتي تشـغلها الفرقـة 11 العراقيـة، على طـول نهـر الكارون من المحمرة الى الاحواز.

اندفعت الموجات الايرانية باتجاه سكة حديد الأحواز — المحمـرة. كانت خطة الدفاع للفيلق الثالث– في حالة عبور العدو الايراني نهر الكارون– مبنية على تحرك الفرقة الثالثة بقيادة جواد شيتنه لمسك الموضع الدفاعي المقام على خطّ سكة الحديد قبل وصول العدو اليه، ثم شـن هجـوم مقابل وتدمير رؤوس الجسـور التي يقيمها على النهـر وسـحقه او طـرده الى الضفة الاخـرى. إلا أن جـواد شـيتنة تـأخر او (تـردد) في الوصـول، الأمـر الـذي جعـل العدو يسـبق الفيلـق ويمسـك بتلك المنطقـة، ثم انـدفع لزيـادة زخم الهجـوم عـبر ضـخ اعـداد هـائلـة من المقـاتلين، بغيـة الوصول الى السدة الحدودية. اصدر جواد شيتنه اوامره بالتراجع، فانسحبت الفرقة المدرعة الثالثة إلى خلف السـدة الحدوديـة (داخل الاراضـي العراقية) تحت ضغط

أفواج القاذفات من حرس الثورة. جلب التقهقر نتائجه على الفور، فانهارت دفاعات ماتبقى من الفرقة 11 في جميع المواضع، ثم راح العدو يطوق المحمرة، وبدأت ملامح سقوطها ، فاصبح الهدف هو انقاذ قوات الفيلق المرابطة هناك . هنا لابد من الاشارة الى المحاولات المستميتة التي بذلها العقيد هشام الخوصر لفك الحصار، ولمنع استسلام ستة الاف مقاتل كانوا في داخل المحمرة .

الشلل الذي اصاب الفرقة الثالثة القى بظلاله على القاطع الجنوبي كله . اصبح صلاح القاضي – الذي كان قائدا للفيلق– في وضع لايحسد عليه. ولم يعد قادرا على ادارة تلك الالوية التي تجاوز عددها الاربعين لواءا، عدا الفرقة 11 المنهارة. اصبح جسد الفيلق الثالث مكشوفا للعدو فراح ينهش في لحمه، ودخلت موجاته في المدرعات لتقتل الجنود قبل ان يرفعوا ايديهم للاستسلام.

وصف لي احد الناجين :

(الموجات البشرية تسير فوق رؤوسنا، نسمع صيحتهم من تحت الملاجيء، كلما عبرت موجة صعدت اخرى، اين المنتهى، لم نعتد على مثل هذه المنازلة).

وقدر احد الضباط اربعة موجات، كل واحدة بعشرين الف:

(ثمانين الف مقاتل، مزيج من القوات النظامية (مشاة ودروع) وحرس االثورة (الباسيج والباسدران)، مسندة بالمدفعية والدبابات و القاذفات، مع امدادات مستمرة من الاحواز)

هنا نعثر على التصميم الخارق للعادة للعقيد هشام الخوصر، فقد تجاهل خسوف الفيلق الثالث، وقاد لواء المغاوير– بوجه مضاء ذاتيا– رغم فنائه واعادة تنظيمه

المتكرر. الى جانب ذلك كلّفت فرقة المشاة السابعة بقيادة العميد الركن ميسر الجبوري بواجب المشاركة في فك الحصار، ثم دفع الفيلق الثالث باحد الوية الفرقة السادسة لاسناد هشام وميسر في زحفهما نحو المحمرة. واجه الجميع مقاومة عنيفة، لم يتمكّنا من الوصول إلى مشارف المحمرة حتى منتصف مايس، وفشلت محاولات ايصال الذخيرة. وجرب طيران الجيش القاء اغذية وعتاد لقواتنا المحاصرة، لكنها وصلت الى العدو، فتلقفها شاكرا لنا هذه الهدية. جرب هشام وميسر الاشتباك، فتحولت المحمرة من جديد الى مسلخ للفريقين، وخسر القائدان نصف قواتهما. فشلت محاولات فك الحصار، وبعد نفاد الذخيرة والمؤن جرب المحاصرون التسلل الى الضفة الغربية من النهر(شط العرب)، فنجا من نجا وغرق من غرق. وانتهى الثامن والعشرين من مايس عندما رفع ستة آلاف مقاتل من الفيلق العراقي الثالث ايديهم فوق رؤوسهم، فاقتيدوا اسارى.

★★★

انتقل الارتباك الى القيادة العامة للجيش العراقي. حضر الى مقر قيادة الفيلق :

وزير الدفاع عدنان خيرالله،

ورئيس أركان الجيش عبد الجبار شنشل،

وجميع معاونيه: الفريق الركن عبد الجبار الأسدي،

والفريق الركن إسماعيل تايه النعيمي ،

والفريق الركن نجيب أبتر عمر.

احاطوا بصلاح القاضي (قائد الفيلق الثالث)، ورفع كل منهم مقترحات مختلفة، وأجروا جولات في قاطع الفيلق، وأعطى كلٌّ منهم توجيهاته للقطعات مباشرة، من دون إشعار قيادة الفيلق، فما عادت إدارة المعركة بيد صلاح القاضي. سفينة الفيلق الثالث يقودها 6 قبطان. تفاقم الوضع سوءا بدخول مسؤولين سياسيين على الخط، مثل نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الرفيق عزت الدوريّ، اعطى توجيهات إلى الفيلق من مقره في البصرة، من دون الاطلاع على تفاصيل الموقف. حصل ما يشبه التعبئة العامة في قيادة حزب البعث الحاكم، فحضر أعضاء المكتب العسكري (للحزب)، وتوزعوا على الألوية، وتم تنسيب عبد الجواد ذنون عضو المكتب العسكري مع قائد الفرقة 11.

الساعات تقترب لقطف الرؤوس. بدأ الجميع يتحسس عنقه. تفقد الوجوه ملامحها حين تمس الاصابع المرتعشة. ماهي الوصفة المثلى لابتلاع الهزيمة ؟ لا احد يعرف، ولا احد يقرأ مايدور في رأس السيد الرئيس هذه الساعة. لم تتعود اكتاف الرئيس على حمل الهزائم، وغالبا ما يلجأ الى ضحكته التي تشبه مطرقة الحداد، حيث يتزامن فكه السفلي مع هزة كتفيه لينفض كل مايعلق بهما من اخفاقات. وحين تغيب القهقهة التوافقية يقف رتل من المتطوعين على ابواب القصر الجمهوري، يعرضون خدماتهم لتنظيف اكتاف الرئيس وجعلها خالية من الهزائم.

من سيحمل هذه الهزيمة بدلا عنه ؟

هل سيتطوع اعضاء من قيادة اركان الجيش؟

هل سيتستقيلوا من مناصبهم ويحالوا على التقاعد، او يعزلوا وينتهي الامر؟ .

الوجوه المكفهرة والعيون المفرغة من الحياة تواجه بعضها دون كلمات. الانهيار في الصمت، في البلاغات المبهمة، في صراخ الاجهزة اللاسلكية و انهيار التشفير، في شتائم امراء الالوية الذين اضاعوا طريقهم او حوصروا دون نجدة . الانهيار في الذهاب بعيدا عن عيني السيد الرئيس، عيني الصقر وكتفيه المتورمين، وفمه المتيبس، واصبعه المرفوعة مثل ذيل العقرب. سأل عن اوركسترا الفيلق الثالث، ابطال معركة المحمرة الاولى 1980، الضباط الخمسة الذين رفعهم الى السماء بجناحيه، فلم يرد اي منهم. ماذا حل بهم؟. من هو المنقذ في تلك الايام ؟ الوضع خطير، وابعد من احتلال البصرة. العدو يبحث عن رأس بعينه ليقطفه. العدو الشخصي يقترب، سوف يزيح الجنود بعيدا: ذلك الغبار البشري الذي يؤخر اللقاء المرتقب.

لم يعد القائد العام للقوات المسلحة صدام حسين يملك الكثير من الخيارات لمعالجة هذا الانهيار. هناك صورة واحدة تقريبا تتلاطم في جدران جمجمته المحدودة الابعاد: صورة الخراف الضالة وهي تشم رائحة الذئب فتتوحد خطوتها وتتجمد في موضعها. صورة للضبط العسكري المطلوب في تلك الايام الحاسمة. في الجانب المقابل فان كل من حوله يشعرون بما يدور في رأسه، ويحتاطون له، ولابد من المناورة. هنا تبرز (معادن الرجال) وخبرتهم : ان تكون بعيدا عن مركز الشرر، ولكن تتظاهر بقربك من الموت. ان تدفع الموت عنك عبر موت الآخر . ان تضحي بآخر مقاتل (ما عداك انت) من اجل الرئيس وسلامته. بموجب هذه الحكمة الذهبية قاد كبار الحزبيين فصائل الاعدام من لواء الى لواء يقطعون الطريق على الهاربين ليعيدوهم الى جادة الموت.

ابيدت الالوية تباعا، وصعد شعور ان الفيلق الثالث في طريقه الى الزوال، ولم يبق على تطويق الفرقتين (الخامسة والسادسة) سوى حركة التفاف ايراني ليباد خمسون الف مقاتل عراقي.

نحتاج الى مخيلة العفاريت لمعرفة عناصر التوليفة التي افرزت الاكتاف التي حملت الهزيمة. كل ما اشيع كان من خارج القمقم. حرص القائمون على التحقيق بان يتم بشكل سري وسريع للغاية، وصدرت التوصيات (الاحكام ضمنيا) في خلال يوم واحد، ورفعت الى السيد الرئيس اثناء تواجده في مقر قيادة الفيلق. تم اختيار خمسة وثلاثين ضباطا. هذا الرقم يمثل الحد الادنى (حسب اللجنة التحقيقية) لعدد المتخاذلين في المعركة. قسموا الى مجموعات حسب مناصبهم ورتبهم العسكرية.

الوجبة الاولى من الضباط (المتخاذلين) في معركة المحمرة الثانية 1982 المحالين للتحقيق من قبل قيادة الاركان العامة:

صلاح القاضي: قائد الفيلق الثالث 1982 (قائد الفرقة الخامسة في معركة المحمرة الاولى 1980)

جواد شيتنه: قائد الفرقة المدرعة الثالثة 1980، 1980.

احمد زيدان : قائد قوات المحمرة 1982 (آمر مدفعية في معركة المحمرة الاولى 1980)

هشام الخوصر : آمر مغاوير الفيلق الثالث 1982، 1980.

(لم يغب عنهم سوى **كامل ساجت** المنقول الى الفيلق الرابع. هذا الضابط سوف تتم تصفيته لاحقا (1995)، على يد قصي صدام حسين، لأسباب غير معروفة حتى الآن).

في تلك المحاكمة القصيرة دافع جواد شيتنه عن نفسه بالتوكيد على انه انقذ الفرقة الثالثة من الابادة، وقال بالحرف الواحد:(انا تخليت عن الارض مقابل الحفاظ على ارواح الجنود). لقد كانت هذه العبارة هي مبرر الادانة. وتركز دفاع صلاح القاضي بالتوكيد على انه لم يعد قائدا للفيلق، وان هناك ستة قادة في وقت واحد، وكانت هناك وحدات تتلقى اوامرها من ضباط لا علاقة لهم بالفيلق، ووصل الامر حدا ان وحدات دروع ومشاة آلي في خطوط المواجهة ابلغته انها تتلقى اوامرا من مسؤولين مدنيين يتخذون من مبنى محافظة البصرة مقرا لهم .

اما احمد زيدان فقد تعذر عليه المثول امام المحكمة، وحكم عليه غيابيا بالاعدام بتهمة الهروب من ميدان المعركة. انقطعت اخباره بعد وقوعه في حقل الغام، ونقل وهو غائب عن الوعي متهرىء الجسد غارق بدمه عبر قارب صيد الى الضفة الغربية للنهر (شط العرب)، ومن هناك الى المستشفى دون معرفة حتى هويته. وحين استفاق لم يعرف حتى زوجته واطفاله، ولا يعرف اي شيء عن المحاكمة ولا فصيل الاعدام الذي ينتظر استفاقته ليضع في جبينه رصاصة التخاذل. وفيما كان زيدان ينعم بفقدان الذاكرة، كانت عشيرته قد جمعت مئة عقال من شيوخ محافظةالانبار في وفد الى القصر الجمهوري واضعين رقابهم بعهدة الرئيس صدام، لتخفيف الحكم.

لم يتكلم بقـوة سـوى العقيـد هشـام الخوصـر، الـذي اثبت بالادلـة انـه لم يـتراجع سنتمترا واحدا الا بعد تلقيه اوامرا بذلك، وانه كان يشدد على جنوده نسيان صفحة الانسحاب من المعركة. وقد عزز اقواله بالوثائق الصوتية والمكتوبة. واذا ارادوا محاكمته فانه ينبغي ان يحصوا عدد الجنود الذين بقوا بامرته حتى آخر طلقة. فحصت اللجنة الوثائق والتسجيلات وخسائر لواء المغاوير بالارواح وارقام الذخيرة، وحسبوا منها الاداء القتالي للعقيد (مجموع الخسائر بالارواح منا ومن العدو) فظهر ان الرقم هو اربعة آلاف مقاتل. وهو رقم جيد من وجهة نظر القيادة العامة. سمح لثلاثة ضباط وستة جنود بالادلاء بشهادهم فأكدو اقوال العقيد هشام. اخلي سبيل العقيد هشام الخوصر، ورفعت الى السيد القائد توصية بأعادة الاعتبار اليه، ومنحه نوط الشجاعة، وانيطت به مؤقتا اعادة تنظيم الفرقة 11. وتم التحرز على كل من صلاح القاضي وجواد شيتنه، وابلغا بانهما رهن الاعتقال (حبس الثكنة) لحين قرار السيد القائد العام.



اتصلت قيادة الفيلق بالعقيد هشام تلفونيا، واخبروه ان يهيأ مكانا لحبس المتهمين صلاح القاضي وجواد شيتنه (حبس داخل الثكنة)، وهو نوع من الاعتقال الملطف، لا باب مغلق ولا سلاسل، بل خيمة تنصب وسط المقر يقف عليها حرس كجزء من السياق العسكري. كان مسموحا لهما بتناول الطعام في جناح الضباط، واللقاء بذويهم، لحين وصول امر السيد القائد بشأنهما. وكان من الصعب وقف ثرثرة الضباط السلكية: هل سيكتفي الرئيس بعزلهما واحالتهما الى التقاعد، ام طردهما من الجيش، ام هناك ماهو ابعد من ذلك؟

في الساعة الثانية ظهرا دخلت سيارة لاندروفر تابعة للفيلق الثالث تحمل الضابطين وهما محاطان بالبنادق. صدم العقيد هشام بمنظرهما، فقد قرأ في وجهيهما كل معاني الخذلان والهزيمة.

★★★

المصادقة على قرار المحكمة العسكرية للفيلق الثالث

(.... ... **قررنا المصادقة على حكم الاعدام الصادر بحق كل من:**

اللواء الركن **صلاح القاضي**، لتقصيره في اجاء واجبه.

العميد الركن **جواد شيتنة**، لهروبه من ارض المعركة.

ينفذ حكم الاعدام رميا بالرصاص. يتم التنفيذ في الساعة السادسة من صباح الغد ...... و مكانه ساحة العرضات لمقر الفرقة 11، ويحضر ممثلون من تشكيلات الفيلق كافة وحسب اللائحة المرفقة، وكذلك ممثلون عن المكتب العسكري للحزب. يتولى **العقيد هشام** الخوصر وكيل قائد القرقة 11 بالاشراف على التنفيذ، والقاء كلمة بعد ذلك.

....

صدام حسين، القائد العام للقوات المسلحة .)

رأيت الوجوه كيف تفقد لونها وتتحول الى قشرة ليمون. سمعت دقات القلوب وهي تمر مثل عربات قطار للشحن. رأيت العيون وهي ترسم علامة الاستفهام المروعة المؤطرة بخط سميك من اليأس، وخط رفيع لقشة الامل.

حتى هذه اللحظة هم لايعرفون مافي الورقة المذيلة بتوقيع السيد الرئيس، التي سلمها موفد الفيلق الثالث بيدي. كل ما يقرأونه هو وجهي وارتباكي. هربت من عيونهم. قلت لهم: هناك امر علي ان انجزه فورا. وطلبت منهم الاذن بالانصراف، وتركتهما سائلا الله ان يكون ثالثا بينهما، فاصعب شيء ان يكونا وجها لوجه.

رحت ابحث عن الهواء، كانت السماء صافية والسكون عميق، لكن الهواء كان شحيحا. بحثت عن ضابط الرصد (اقدم ضابط في الفرقة 11 بعد فنائها)، وحكيت له كل شيء، وضعت بيده الورقة المشؤومة فاجهش بالبكاء فورا. قلت له انا لا اقدر ان ابلغهم، ماذا افعل؟ هذه اول مرة اواجه مهمة من هذا النوع. لا اخفي عليك، لدي شعور ان اختبارا من نوع ما يجرى لي. عليك ان تهيؤ فريق اعدام. وان تعطيهم ارشادات واضحة. لا اريدهما ان يتعذبان، بل يقتلا من الرشقة الاولى. هناك جنودا كانوا بأمرتهم وخاضوا معهم اشرس المعارك، سوف يصوبون بعيدا اما في الهواء او في الارض . اصغي الي جيدا ، هناك منظر لا اريد ان يحدث ابدا. سوف يكون هناك طبيب سوف يفحصهم بعد الرشقات الثلاث، فاذا بقيت فيهم الروح فيتوجب ان نقتلهم انا وانت بمسدساتنا. وانا لست مستعد لذلك. الاستخبارات والحزب سوف يحضرون، وسيرفعون تقارير مفصلة. اصغي الي الآن بكل جوارحك: هناك احتمال ضعيف جدا، ضعيف الى ابعد حد ولكنه محتمل ايضا: ان يكون كل مانراه هو مسرحية من صنع الاستخبارات لتطهير الجيش، بكلمة اوضح : ان يكون كل هذا هو اختبار لنا جميعا بما فيهم صلاح وجواد، وان ايقاف التنفيذ والعفو سيظل قائما حتى اللحظة الاخيرة. وسيدون الحاضرون كل كلمة تصدر او عبارة تعلو من افواههم وافواهنا. اننا في محنة

كبيرة، فالجنود في مثل هذه الحالات غالبا ما يكونوا اقرب الى ضمائرهم. هل تفهمني؟ لذلك اريدك ان تنتقي اكثرهم صلابة، كي لايخطئوا هدفهم.

قبل الساعة السادسة صباحا كان الجمع قد اكتمل: ممثلو الفيلق الثالث، ضباط الالوية ، ممثلو حزب البعث، ضابط الاستخبارات، وفصيل الاعدام. نصب في ساحة العرضات عمودان. جاء صلاح القاضي يتبعه جواد شيتنة. كانت رؤوسهم مرفوعة، وحرصا ان يحلقا الذقن، وكانا بكامل القيافة العسكرية. تقدم كل منهما الى عمود ودفع يديه الى الخلف كي تربطا. كان علي ان اتقدم واؤدي لهما التحية العسكرية الاخيرة، ثم انزع الرتب العسكرية عن اكتافهم . حاول الجنود وضع غطاء لربط اعينهما فرفضا. وقال صلاح القاضي: (لست جبانا كي تربط عيناي). ثم هتف جواد بصوت مسموع:
(لست جبانا، لقد عملت على انقاذ الفرقة الثالثة من الابادة، قد اكون مخطئا في تقديري للموقف العسكري، ولكني لم اكن جبانا، ابلغوا القيادة بذلك، وبلغوا عائلتي ايضا). ثم حلت لحظة الفصل، اللحظة التي اقررها بنفسي. فصيل الاعدام ينتظر اشارة مني ليتقدم نحوهم.
لم اعط امر الرمي، انتظرت بضعة دقائق، ابقيت الامل معلقا على معجزة تهبط من السماء، او تخرج من باطن الارض. ابقيت ضابط الاتصالات على اهبة الاستعداد لنقل اي هاتف من الفيلق الثالث، لكن الدقائق مرت دون ان يقطعها شيء. وكان لابد ان ارفع يدي، واعطي الامر لفصيل الاعدام . ثم هدر صوت الرصاص، ومن الرشقة الاولى تدلى رأسين على الفور فتلقفهما صدرين مازالا بارزين . واكمل فريق الاعدام الرشقات الثلاث . وقام الطبيب بفحصهما، وكنت كمن يقف على شعرة واحدة بانتظار اشارته ، ورأيت ضابط الاستخبارات يراقب الوجوه بعين الصقر. حين رفع الطبيب كفه انتهى كل شيء ، فاخرجت الورقة من جيبي، والقيت كلمة الختام : ((كثير من الشجعان قد لا يحالفهم الحظ . على الرغم من شجاعتهم وحبهم لوطنهم . في الجيش يجب اطاعة الاوامر وتنفيذها وبدون هذه المبدأ لا تسير الامور . يبقى الوطن اغلى من كل شيء)).

تركت الجمع في ساحة العرضات وهرعت الى غرفتي، اقفلتها علي، ودفنت وجهي في الفراش كي لا يسمع احد نحيبي . بعد يومين صحوت، ورحت ابعد الضعف والوساوس، واعيد على نفسي ما تعلمته طوال تلك السنين: انها الاوامر والسياقات العسكرية، التي هي اكبر من اي قائد او امر تشكيل. وهي التي تحمي الجيش والوطن، ولو فرطنا بها نخسر كل شيء.

★★★

نقلت جثة جواد شيتنه الى محافظة اربيل (سكن عائلته) بشكل سري، وطُلب من اللجان الامنية هناك الاشراف على دفنه، وقد علمت ان والده التمس دفنه في قريته في دهوك. اما صلاح القاضي فقد انقطعت كل الروايات عن ذكره، سوى تلك الحروف الصغيرة التي هتف بها في اللحظة الاخيرة. حين هدأ كل شيء اعيد الاعتبار الى الضابطين، و اصدرت القيادة مرسوما باعتبارهما (شهداء الغضب)، وتم استدعاء اهلهم لمقابلة السيد الرئيس، واعيدت لهم اوسمتهم والقابهم.

★★★

معظم مانقلناه هنا على لسان العقيد هشام، كان قد تسرب الى اذن شقيقتي، فقد ذكرت لي انه بعد ان انتهى كل شيء واكمل المهمة التي كلف بها منح يومان اجازة تقيأ فيها كل الرعب الذي عاشه، فقد كانت رصاصة التخاذل قريبة جدا منه. ثم عثر حسن بلاسم لاحقا على تقرير مختزل كتبه العقيد الى الفيلق، وتقرير ضابط الاستخبارات علي الجنابي، وشهادة ضابط المخابرة والرصد في الفرقة 11.

★★★

معضلة التفوق العددي

(البحث عن حل لمعضلة التفوق العددي الايراني. مقترح العقيد هشام، الذي قدمه الى مؤتمر الفيلق الثالث، وحصل بموجبه على ترقية وتقدير من القيادة العامة للقوات المسلحة)

هذا التقرير عثر عليه ضمن ملفات الاستخبارات العسكرية العراقية، حيث يرد فيه اسم العقيد هشام الخوصر كواحد من المشاركين في مؤتمر الفيلق الثالث لوضع تدابير مضادة للتفوق العددي الايراني واستراتيجية الموجات المتعاقبة التي كسبوا من خلالها المعارك قبل وقوعها. كان منظر الحشود الايرانية الضخمة خلف السواتر الترابية في جبهة القتال يثير فزع الراصدين، ويحطم اية فكرة للدفاع او الهجوم. الحشود ليست بالضرورة محاربين، بل غمامة بشرية، او سحابة من الخوف، او جراد جائع للموت كما يسميها العقيد. يتقدمون الصفوف دون حذر. يدوسون على الالغام بوعي تام. تتطاير اقدامهم امام اعينهم، لكنهم لا يبالون، ولا يتوقفون. تسقط الذراع اليسرى للمقاتل الفدائي فيمسكها باليمنى، ويرميها في وجوه المدافعين عن خنادقهم، فلا يبقي لهم سوى الاستسلام لهذا النوع من السيرك الباذخ. تتساقط الموجة الاولى من الجراد الايراني، ولكن الموجة لا تتوقف، تلتهم باسنانها الاسلاك الشائكة، واشواك الفولاذ، وحرائق النفط، ومستنقعات التعويق. الموجة تتسلق السواتر الترابية، ثم تفيض لتغطي الخندق العراقي بالذهول والحيرة. لاجدوى من القتال، الراية البيضاء هو الحل الوحيد. هكذا تقف الموجة، وتخرج لسانها الساخر بوجه الجنود المرابطين في مواضعهم.

قدم ممثل القوات الخاصة تصوره للحل:

((يتوجب الاعتماد على وحدات مدربة نفسيا وفنيا لتجاهل الفارق العددي الايراني. اننا نمتلك مثل هذه الوحدات ولكنها للأسف قليلة العدد، نحتاج الى تشكيلات اضافية)).

اعترض قائد الفرقة التاسعة (طالع ارحيم الدوري) قائلا اننا لانملك الوقت لتنفيذ هذا المقترح، وقدم حلا يقضي بربط الجنود العراقيين بسلاسل معدنية الى مواضعهم. وحسب معلوماته، فان هذا الاسلوب اعتمده الروس والالمان واليابانيون طوعيا في الحرب العالمية، وعزز مقترحه بمخطط لحزام يلتف حول الخصر، تخرج منه سلسلة حديدية تسمح بالحركة في دائرة قطرها عشرون مترا. يمكن ربط السلاسل بعمود كونكريتي مزروع في الخندق، ويزود كل منها بقفل، ومفتاح يسلم الى الضابط المسؤول، ولا يفتح الا في وقت مغادرة الجندي في الاجازة الرسمية. سوف تتولى الهندسة العسكرية اعمال صب الاعمدة الكونكريتية. ويمكن للعمود الواحد ان يستوعب اثني عشر قفلا (مقاتلا).

وتشير الوثيقة الامنية الى ان مقترح طالع الدوري واجه اعتراضات كثيرة، وان العقيد هشام كان من ضمن الذين رفضوا فكرة ربط الجنود بسلاسل، وضمنيا كان ضد استخدام السلاح الكيمياوي، او توسيع نطاقه ليشمل المديات القصيرة لمدفعية الميدان او مدافع الهاون . لكنه لم يعبر عن ذلك بشكل صريح. وقبل هذا المؤتمر كان الحديث عن السلاح الكيمياوي محرما، واستخدامه مقتصرا على وحدات شبه سرية. وهاجم العقيد مقترح زيادة فرق الاعدام خلف القطعات. وحين تساقطت المقترحات الواحدة بعد الاخرى، لم يبق في الساحة سوى العقيد هشام، الذي بدا وكأنه يخبيء مفاجأة لهذا المؤتمر.

قدم العقيد هشام فكرة تقوم على التحكم برؤية المقاتل، وبكلمات ادق: **جعل المقاتل العراقي يرى الايرانيين اقل من عددهم الحقيقي**. يعتمد نجاح الفكرة على السرية المطلقة. لذلك فهو يفترض ان كل من موجود في هذه اللحظة سيكون مسؤولا مسؤولية تامة عن السرية. هذه الجملة لوحدها ايقظت الحاضرين جميعا، وجعلت العقيد يمسك بخيوط الجلسة. فتح حقيبته فاخرج نظارة باطار

اصفر وعدسة مظللة على شاكلة نظارة السينما المجسمة مع قرص للتحكم في وسطها. وقع الاختار على اللواء الركن محمود شكر شاهين قائد الفرقة السادسة لفحص النظارة. طلب هشام من شاهين ان يقف في اقصى زاوية في القاعة، وفي نفس الوقت طلب من الباقين ان يشكلوا صفا في الجهة المقابلة. انظم هشام اليهم وخاطب شاهين قائلا: ((سيدي، قبل ان تضع النظارة، هل يمكنك ان تحسب عددنا؟)). فاجاب شاهين دون ابطاء:

(انتم عشرة).

فسأله هشام بنبرة مليئة بالثقة والحماس:

(والآن سيدي، لو سمحت ان تلبس النظارة وتخبرنا عن العدد الذي تراه)

فجاء الجواب:

(ارى واحدا فقط).

كان الجواب مفاجئا لجميع الحاضرين، ثم حل وقت الفم والعيون المفتوحة بالتساؤل، وتقليب ما حصل، ثم لمس النظارة (اللغز) باليد، والتناوب على وضعها على العين، واعادة الفحص. بدأ العقيد هشام يقطف من تلك العيون المبهورة اولى ثمرات اكتشافه، يكتم فرحة عارمة في داخله وهو يراقب كبار ضباط الجيش يقفون على التتابع لتجريب نظارته السحرية: الفريق صلاح عبود، اللواء عبد الستار المعيني، الفريق ماهر عبد الرشيد، العميد موفق السامرائي ممثل الاستخبارات العسكرية، ثم بقية الضباط. **كل من يلبس النظارة سوف يرى عشرة بالمئة مما هو موجود فعلا**. فلو كان هناك عشرة ايرانيين يهجمون على مقر الفيلق، فان الجندي الذي يحرس المقر سوف يرى ايرانيا واحدا فقط اذا كان هذا الجندي يلبس نظارة العقيد هشام. ولو كانت هناك عشرة دبابات فسوف يراها واحدة فقط. ولو كان هناك عشرة نخلات فسوف يراها نخلة واحدة. العقيد يلتقط كلمات لها طعم العسل. انها اولى علامات النجاح.

بعد امتصاص عنصر المفاجأة، جاء دور البحث عن الثغرات. اول المتحدثين كان مدير الاستخبارات العسكرية. قال ان السرية هي عصب الفكرة. كل من يلبس

النظارة سيدخل في السر. لو عرف السر فلن يبقى سرا. ذلك ان من يلبس النظارة سوف يقوم ذهنيا بتعديل النسبة في مخه، ويضرب كل ما يراه بالرقم عشرة، لكي يتطابق مع الواقع. من يحق له ان يدخل السر ؟ بل كيف نحفظ السر؟ يقول الشاعر العربي: (كل حديث جاوز اثنين شائع)، بمعنى ان كل سر يتجاوز شخصين، سوف يكون معلوم لدى الجميع، فما بالك بجيش مؤلف من آلاف الجنود ! ماذا ستفعل يا عقيد هشام؟ كيف تحل هذه المسألة؟

اصبح مقترح العقيد هشام على المحك. وجد الحاضرون اعتراض مدير الاستخبارات في محله. هذه هي النقطة الحرجة التي يتحتم على العقيد ايجاد حل لها.

لم يغير هذا الاعتراض على معنويات العقيد هشام ولم يقلل من اندفاعه، فكان جوابه:

((لقد فكرت طويلا في ذلك، ووجدت ان بامكاننا وضع هذه النظارات ضمن مكونات قناع الوقاية من الضربة الكيمياوية. سوف نشدد على اهمية ارتداء قناع الوقاية ونضع العقوبات الكافية لضمان ارتدائه عند استلام الاوامر. تسري هذه العقوبات على الضباط والجنود، وبذلك نضمن سرية الأمر واهميته. عند الحاجة (اي بوجود تحشدات ايرانية ضخمة وراء الساتر) سوف نضطر الى اصدار (اوامر كاذبة) الى القطعات المعنية عن ضربة كيمياوية وشيكة سوف يقوم بها العدو.

عندما يلبس جنودنا القناع المزود بالنظارة يتحقق كل ما نريده، حيث تتقلص الحشود الايرانية في اعينهم، وتبدو اصغر كثيرا من حجمها الحقيقي. ان قرص التحكم هو الذي يحدد نسبة التقلص، وبامكاننا تثبيته على اية درجة ومنع الوصول اليه. وما يسري على المقاتلين يسري على منظومة الرصد (التلسكوبات التقليدية)، حيث سيتم استبدالها جميعا بمناظير جديدة تلبي حاجاتنا المرحلية. ومن الناحية التقنية فان الامر ممكن جدا، وهناك الكثير من المصنعين المستعدين لتلبية طلباتنا، طالما ان الدفع فوري و كاش)).

المتاريس التي وضعها العقيد لمقترحه لم تكن كافية بالنسبة لمدير الاستخبارات، الذي وجه اعتراضا وجيها يتعلق بصعوبة معرفة الارقام الحقيقية للعدو :

مدير الاستخبارات: سوف تحصل فوضى في تقدير الموقف، فلو انخفضت اعداد الحشود في اعين جنودنا، فسوف تنخفض بنفس النسبة اعداد المدرعات والدبابات، وسيرى الضباط في مواضع الرصد، الذين يراقبون العدو من خلال منظاركم المقترح خمسة دبابات بدل خمسين، وسينقلون الينا معلومة خاطئة، بل وخطيرة اذا ما بنينا عليها اجراءاتنا.

العقيد هشام: هذا صحيح، سيادة العميد، لكنه هو المطلوب. نحن نتعامل مع ميزان مضطرب اصلا، ولابد من المغامرة، ولابد من التضحية ببعض السياقات مقابل كسب الروح المعنوية، وفي كل الاحوال بامكانكم سيدي ان تزرعوا معتمديكم، يحملون مناظير طبيعية لتزويدنا بالمعلومات الصحيحة.

وقبل ان ينهي رده، اقترب العقيد هشام كثيرا من مدير الاستخبارات وامسك بكفه، ووجد نفسه يذهب قدما قائلا:

(لو واصلنا المشوار سوية فسوف نصل هدفا لايتحقق الا بوجودكم سيادة العميد. أنتم الجهاز الذكي، ولن نكون سوى عونا لكم. ماذا لو وضعنا فخا للعدو؟ ماذا لو اشترينا تلسكوبات تعمل على تكبير الحشود وتركنا العدو يغنمها؟ عندئذ سوف ينقلب الأمر. وهكذا ترون سادتي ان نجاح المقترح وتطوره يعتمد اساسا على قدرة استخباراتنا، وانا واثق تماما من هذه القدرة).

العقيد هشام يسد الثغرات ويدافع بقوة عن مقترحه، ولم يكن امام الحاضرين سوى تشجيعه، وتقديم الدعم الكامل. في الختام تم تبني الفكرة و انهالت التباريك على العقيد، وبشر على الفور بترقية، ورفع المقترح الى القائد العام للقوات المسلحة، وصافحه كبار الضباط بحرارة وشدوا على يده.



الزمزمية

اثناء التنقيب عن المواقع المحتملة للعقيد في شرق البصرة تم العثور على **80** الف زمزمية (حاوية ماء) مازالت ممتلئة، و تحمل عبارة موحدة (**عطش الحسين**). الحسين هو حفيد النبي محمد من ابنته فاطمة، وقد قتل قبل **14** قرنا في العراق وهو عطشان. الماء الموجود في تلك الحاويات غير مصفى، لكنه يصلح للشرب، كما افاد مصدر في المهرجان. لم تكن الزمزميات متفسخة او معطوبة لكن الجثث التي كانت تحملها هي التي تفسخت، ولم يبق منها سوى هياكل عظمية تحمل في عنقها قرص الهوية. كانت موزعة على طول جبهة القتال في شرق البصرة. وهناك فئة من هذه الحاويات يشك بأن اصحابها تعرضوا الى غازات سامة، فقد كان توزيعها منتظما مثل حقل للدواجن، ومن المرجح انهم لقوا حتفهم قبل المعركة (وقت التعداد). عبر حقول الزمزميات قادنا الدليل، وهو ضابط المواصلات والرصد في الفرقة 11. اوقف السيارة عند السدة الحدودية واشار الى (بحيرة الاسماك)، وهو الموضع الدفاعي المائي الذي قامت به الهندسة العسكرية لتعويق القوات الايرانية. الدليل يقلب في ذاكرته المريرة عن ملجأ بعينه جلس فيه مع العقيد هشام في تلك الايام العصيبة. هبطت سيارتنا من السدة الترابية ورحنا نشق طريقا في تلك الارض الرخوة التي شهدت اعنف المعارك. الحدث الغير متوقع هو عثورنا على الملجأ وسط مئات الملاجيء المتروكة. عثرنا على بدلة تركها العقيد هشام وبضعة حاجيات شخصية. عادت الى ذاكرة الدليل صور تلك الايام وأماكنها. تركنا وهرول صوب دكة ترابية تحوي في قمتها ملجأ مربعا، جئنا وراءه. وجدنا متراسا من اكياس التراب، وفي ضلعه الشرقي

فتحة صغيرة تكفي لوجه واحد، حين وجد الدليل نفسه وسط ذلك المكان سمعناه يهتف:(**هذا هو موقع الرصد**)

ثم بدأت الساعات العصيبة تعود الى ذاكرته، وراح يقص علينا شطرا منها:

(من هنا كنت اراهم، كان بامكاني عدهم، وتمييز ملابسهم، بل وتمييز الذبابة التي تحط على وجوههم. وكنت اعبر المعلومات الى العقيد هشام، الذي ينقلها بدوره الى الفيلق الثالث.

((كنت اراقبهم خطوة خطوة وهم يستعدون لمهاجمتنا. لم يكونوا حذرين مثلنا، لم يكونوا متنكرين تماما، كأنهم ذاهبون لزيارة ضريح مقدس. وكان بامكاني رؤية ما لايقل عن ثمانين الف في زاوية افقية لاتزيد عن مئة وعشرين درجة، هم خليط من الحرس الثوري والبسيج والجيش النظامي. وقبل ان يصلوا خط الحدود كانوا قد نزلوا الى نهر الكارون، وملؤوا زمزمياتهم (حاويات معدنية) المعلقة في الخصر والمعدة خصيصا لهذه المعركة، حيث تبلغ سعتها ثلاثة اضعاف الزمزمية العادية، ومنقوش عليها العبارة (عطش الحسين). كانوا يريدون ازاحة (الجنود الكفرة) عن طريقهم لأيصال الماء الى الامام العطشان الذي ينتظرهم في كربلاء (وسط العراق). لا احد منهم يهتم بان الامام العطشان مات منذ 14 قرنا. احاطوا جباههم ومعاصمهم بشرائط خضر مطرزة بنفس العبارة (عطش الحسين). ورأيت شخصا معمما يدور حولهم، ويحيطهم بشرائط من قماش اخضر ، كأنها اسيجة نباتية. كان من الصعب على هذا الحشد الفرز بين البعد العسكري وايفاء الوعد الذي قطعوه على انفسهم. كانت فكرة اللقاء بفم الحسين وارواء عطشه هي التي تجعلهم غير محتاطين ، ويتساوى عندهم الموت والحياة. وقبل ان يغادروا النهر بللوا حناجرهم بصيحة واحدة (ياحسين، ياعطشان، انتظرنا، نحن قادمون اليك)،التي ستكون مفتاحا لبوابة الفيلق الثالث ومهاجمته في عقر داره. وللمزيد من الخلخلة فقد تعمدوا تسريب كلمة السر، و ساعة الصفر، وارقام الحشود، وبث رسائل قصيرة عن لاجدوى

المقاومة: (مهما وضعتم من حواجز، فلن تحميكم من المصير المحتوم)، وهكذا راحوا يتفننون في التلاعب باعصابنا عبر التأجيل المتكرر لساعة الصفر، وانهاك الفيلق عبر رفع وخفض درجة الاستعداد. وحين استهلكوا كل ماتعلموه من كوريا الشمالية انتقلوا الى العزف على وتر الجنة والنار، ثم الوتر المذهبي، فارسلوا من يبلغنا ان (الحسين) هو الذي سيفصل بين قتلانا وقتلاهم.

تنتقل صور الحشود البشرية من موضع العين في التلسكوب الى رأسي. ذاكرتي معبأة بالحشود. لقد رأيت منها الكثير. لم يبق لي سوى جهاز الرصد هذا، وحين يزول يصبح كل ماهو بعيد قريب. سوف يحرقون باصواتهم مسافة الارض الحرام، وما لايرى الا بالتلسكوب سوف تراه العين المجردة. هل انتظر تلك اللحظة ام اذهب اليهم بقدمي؟ وشتان بين الخيارين: اذا جاؤوا بأنفسهم فسوف يحرقوني، فانا جزء من العراقيل التي يزيحونها للوصول الى الحسين.
كنت حتى تلك اللحظة انا ضابط لنقطة الرصد، ارى العدو مثلما ارى وجه القمر في ليالي الصفاء، فأرفع التلسكوب نحوه لألمسه باصبعي. في تلك اللحظة المليئة بالخوف اغلقت عيني. لم اجرؤ على النظر اليهم وهم يتقدمون في الظلام يسبقهم عطشهم ولهفتهم العارمة للوصول الى فم الحسين. كنت بحاجة لعين مجردة مفتوحة تماما لترى ما لا ارى، عين تعبر فوق الحواجز الآدمية، واذن تسمع جرس الالتحام. في سواد اليوم الذي تأخرت فيه الشمس عن الشروق، كانت مشاعل التنوير هي البديل، لتقصير اعمارنا، واطالة في عمر المعركة.
في البدلة العسكرية التي تركها العقيد عثرنا على شريط تسجيل (كاسيت) ورسائل رسمية موقعة ومهمشة بخط يده. اوضح الدليل ان التسجيل الصوتي هو جزء من تحوطات العقيد، خصوصا بعد اعدام صلاح القاضي وجواد شيتنه.
اعتاد العقيدعلى تسجيل مكالماته الهاتفية مع ضباطه ومع قيادة الفيلق او الالوية التي تخضع لأوامره، وكان يستدعيني لربط جهاز التسجيل، الذي لايفارقه، بمنظومة الاتصالات، وطلب مني ايجاد طريقة آمنة لتسجيل المكالمات اللاسلكية

بدل التقاطها مباشرة. لكن ماهو مثير حقا، عند استماعنا الى الشريط، هو عثورنا على مكالمة محشورة في زاوية من الشريط بين السيد الرئيس والعقيد هشام الخوصر. وجد الرئيس نفسه يبحث عن مجموعة جديدة من القادة المغامرين. روح المغامرة هنا لها اتجاه واحد (نحو العدو الايراني). طموحات القادة العسكريين لها منفذ واحد فقط هو رضا السيد الرئيس وعطاياه السخية. المطلوب هو فرز المغامر الكفوء الغارق في حب السيد الرئيس. عين السيد الرئيس بعض الاسماء. حضر بنفسه الى مقر الفيلق الثالث، اتصل بالضباط المعنيين وهم في المواقع المتقدمة، وعدهم ان يضعهم تحت جناحيه ويطير بهم في سماء البلاد، وكان بينهم العقيد هشام الخوصر.

الوضع العسكري متدهور جدا. لابد من اجراء حاسم لمنع الهزيمة الشاملة. الفرقتان الخامسة والسادسة انسحبتا من مواضعهما داخل االاراضي الايرانية (الاحواز ،الخفاجية، ونهر الكرخة) الى الحدود الدولية، لكن ذلك لم يرض العدو، وبدل وقف اطلاق النار اشتعلت النيران في شرق البصرة، واصبحت المدينة على شفا السقوط. وقد اعترف الدليل الذي كان يرافقنا بالفروسية العالية التي يتمتع بها العقيد، فرغم ولائه المطلق للفيلق الثالث وللسيد الرئيس (العقيد لم يبلغ عنا، عندما فاتحته بنيتنا في الاستسلام. اعترفت له وقتها اننا كتبنا رسالة استسلام، وضعناها بيد جندي سلم نفسه للايرانيين، وكنا ننتظر موافقته وانضمامه الينا. العقيد هشام كان شجاعا حقا، فبدل ان يبلغ عنا اكتفى بتعنيفي وتنبيهي، ودفعني الى ترك تلك (الوساوس)، ونسيان الامر تماما).

في تلك اللحظة دق جرس الهاتف، وامسك العقيد بالسماعة. المكالمة من غرفة حركات الفيلق، وأحدهم يتأكد من وجوده على الخط، ثم يبث جملة مرعبة : (**هشام استعد ، سوف تتكلم مع السيد الرئيس**). ثم يدخل صوت السيد الرئيس مثل سهم من الرعد:

(السيد الرئيس: هشام شلونك، وشلون جنودك؟

هشام: سيدي .. نحن بخير مادام نبضك في عروقنا، والكل هنا ضباط وجنود مستعدون للمنازلة.

السيد الرئيس: هشام، اعرف عنك انك لم تتراجع خطوة واحدة، حتى وانت تقاتل في ارض العدو، الآن انت تقاتل لحماية البصرة، فم العراق الباسم. ماذا تقول للعدو؟ اريد ان يعلو صوتك كي يسمعك رفاقك والعراقيون جميعا.

هشام: سيدي، لن يمروا الا على جثتي).

★★★

(شريط التسجيل يدور دون كلام)، سبعة دقائق من الدوران بصمت، قد يكون تلفا او مسحا. ثم يعود صوت الرئيس.



السيد الرئيس: الو.. هشام ... هل تسمعني ؟ اجب.

هشام: سيدي اسمعك جيد .. اجب.

السيد الرئيس: هل تستطيع ان تحدد حجم الحشد المتجمع امامك؟

هشام: سيدي ، لا اقدر ان احدد عددهم بالضبط، هناك غابات نخيل تحجب الكثير منهم.

السيد الرئيس: هل وصلتكم توصياتنا بالتسلل الى خندق العدو وخطف اسرى لاستجوابهم؟

هشام: نعم سيدي، نفذنا اوامركم، قمنا بخطف اسير، وحصلنا منه على معلومات هامة.

السيد الرئيس: ماذا عرفتم منه؟ هشام أَجبْ.

هشام: يقول انهم سيواصلون هجومهم، ولن يقفوا عند خط الحدود.

السيد الرئيس: الى اين يريدون الوصول؟
هشام: الى كربلاء، سيدي، يقولون انهم يحملون ماءا من نهر الكارون لأرواء عطش الحسين، وان الفيلق الثالث يمنعهم.
السيد الرئيس: الا يعلمون بان لدينا ثلاثة انهار، كافية لعطش الحسين، وجميع المسلمين ؟
هشام: سيدي، معلوماتهم الجغرافية فقيرة جدا.
الرئيس: الا يعلمون بوجود معبر رسمي بيننا وبينهم في منطقة (المنذرية)، هو اقرب الى كربلاء ؟ الم تخبرهم ان طريق البصرة، بهذا الشكل، وبهذا العدد من الزمزميات، يكلفهم الكثير من الدماء؟ أعيدوا الأسير اليهم بعد ان تضعوا في اذنه هذه الكلمات.
هشام: امركم سيدي))
★★★

سيدي، اذا بدأ الهجوم فسوف يقابل كل واحد منا عشرة منهم؟، ولابد ان اعترف ان بعض جنودنا سلموا انفسهم تحت تأثير رؤية هذه الحشود من خلال تلسكوب الرصد.
فرد غاضبا: المعركة لا تحسم في التلسكوب، سوف تسقط صريعا قبل ان يطلق الايرانيون النار عليك. الا تخجل!، ماذا لو سمعك الجنود؟!
لقد افزعتني تلك الروح المغامر، واللامبالاة بالخسائر القادمة، فرحت افكر لوحدي، شاعرا ان نهاية اللواء اصبحت قريبة.
في تلك الليلة قطعت الشعرة الأخيرة، وايقنت ان مفاتحة العقيد هشام بضرورة استسلام اللواء بدون قتال هو امر مستبعد بالنسبة له، وعلي ان ابلغ الضباط الذين اتفقت معهم بفشل المهمة.
بعد ان نفضنا التراب عن البدلة المرقطة التي عثرنا عليها في الملجأ وجدنا في احد جيوبها رسالة من القيادة العامة للقوات المسلحة موجهة الى الفيلق الثالث

مؤشـر فيهـا اسـم العقيـد من ضـمن الضـباط المتمـيزين، واعلان عن انتهـاء معـارك شرق البصرة والسماح بالاجازة. تحمل الوثيقة توقيع العقيد في 21 اوكتوبر 1982 ممـا يـدل على انـه كـان حيـا حتى هـذا اليـوم. لم تكن هنـاك اشـارة الى نصـر او هزيمة، بل ملخص ل (100) يوم من المعارك الطاحنة. تحاول الوثيقة ان تهرب من شيء ما. ان لاتقول الا ماهو هامشي .

(اطلقنا عليها معارك شرق البصرة ،واطلق الايرانيون عليها عمليات رمضان.

الفرق الايرانيه النظامية التي شاركت في المعركة شملت الفرق 16, 88 , 92 المدرعة، وفرقتي المشاة 21 و 77 ، معززة بحشود المتطوعين من الحرس الثوري والبسـيج، ومـزودة بالسـلاح الخفيـف وبعض الـدبابات الروسـية الـتي اسـتولوا عليهـا سابقا من الفيلق الثالث. بلغ عدد المقاتلين مئة ألف مقاتل ايراني.

اما الفيلق الثالث فقد اعتمد في هجماته المضاده على اربعة فرق مدرعة وهي: 3، 6، 9، 10).

تؤكـد الوثيقـة على دورالعقيـد المتمـيز في تنفيـذ (السـتراتيجية) الـتي اعتمـدها الفيلـق في احـداث (الصـدمة) المطلوبـة لـردع العـدو، ومنعـه من احتلال البصـرة، وتكبيده خسـائر هائلة بالارواح وصلت الى 80 الف قتيل. الوثيقة تتوقع ان جميع الايرانـيين الـذين سـقطوا في المعركـة سـيذهبون الى النـار، بينمـا تطلب الرحمـة ل(شهدائنا) وتبشرهم بالجنة ، دون ذكر عددهم.

في الوثيقة الايرانية ترد نفس المعلومات تقريبا ، مع ذكـر خسـائر العـراق بـالارواح تصل الى 100 الف قتيل، و 20 الف أسير. وتؤكد الوثيقة الايرانية على ان مصير جميـع الجنـود العراقـيين الـذين سـقطوا في هـذه المعركـة هـو النـار، على عكس الايرانين الذين سيسكنون الجنة.



اختفاء الافواج

في هذه الورقة يرد اسم العقيد هشام الخوصر ضمن الوحدات القتالية التي سحبت من جبهة القتال بأمر القائد العام للقوات المسلحة ثم انقطع ذكرها. الورقة وجدت ضمن مخاطبات الاستخبارات العسكرية في الفيلق الثالث مع مديرية الاستخبارات العسكرية:

(...........

جرى الامر بشكل عاجل، ودون المرور بالتسلسل الرسمي. وصل مبعوث من الحرس الرئاسي الخاص الى مقر الحرس الجمهوري شرق البصرة (منطقة التنومة)، كان يحمل قائمة باسماء ضباط في الفيلق الثالث. تم استدعاهم بشكل مباشر وفوري، وطلب منهم الاشراف على سحب الوحدات المدونة ارقامها العسكرية في قائمته. ابلغهم المبعوث ان يتركوا اسلحتهم وآلياتهم. بعد يومين وصلت الى المكان المحدد في شرق البصرة اعداد كبيرة من الحافلات المدنية، وتم نقل تلك الافواج على دفعات. خرجت تلك الوحدات من قاطع الفيلق الثالث دون التشاور معنا ، ودون معرفة الجهة التي تقصدها، ولا المهمات التي انيطت بها. اتصلنا بقائد الفيلق الثالث، فقال ان هناك غموض يحيط ماجرى، وانهم ابلغوه بشكل مقتضب جدا، وان مايشغله هو التحرك لسد الثغرات في الخط الدفاعي. وهناك كلام مبعثر، وتكهنات بلا سند.

تضم القائمة تسعة عشر ضابطا منتسبا للفيلق الثالث، وتسلسل العقيد هشام هو التاسع:

1- ....

2-................

....

....

9- **العقيد هشام الخوصر .**

....

....

19- ....

اما الوحدات فهي :

....

... ...).

بعد مرور شهرين على هذا الحادث وصلت رسالة مقتضبة الى استخبارات الفيلق الثالث تطلب الكف عن اية استفسارات بهذا الشأن.

اختفاء الافواج بلا اثر فتح باب المخيلة على مصراعيها، ولم يعد هناك من حديث في الفيلق سوى ايجاد جواب لهذا السؤال:

اين ذهب اثني عشر الف مقاتل مع ضباطهم؟

ذهبت المخيلة في كل الاتجاهات، حتى استقرت اخيرا عند الجزء المحبب: الانقلاب العسكري. بعد شهور على الاختفاء تسربت معلومات عن **محاولة انقلاب عسكري مزدوج (عراقي __ ايراني) لوضع نهاية للحرب**. وعزز هذه المعلومات شهادات لأسرى ايرانيين، وعمليات تنصت استخباري. واوردت قائمة لتسعة عشر ضابطا من الفيلق الثالث (بضمنهم اسم العقيد هشام)، وهي نفس الاسماء التي وردت في وثائق استخبارات الفيلق الثالث. هذه القائمة تمثل الجانب العراقي من محاولة الانقلاب، حيث خطط لتحرك متزامن: الاول صوب بغداد لعزل الرئيس العراقي، والثاني صوب طهران لعزل الامام الخميني، ثم وضعهما في قفص اتهام واحد.



ثم بزغ مهرجان الحرب، فصعد من بين رماد السنين **راعي غنم** كشاهد حي على تصفية عدد هائل من العسكريين على يد الحرس الجمهوري الخاص، ودفنهم في

قبر واحد، في شرق البصرة (بين نهر كتيبان والمخفر الحدودي كشك البصري).

صعدت على الفور قصة (الانقلاب العسكري المزدوج) و (المتآمرين) الذين اختفوا من الفيلق الثالث.

دخل الراعي على لجنة المهرجان بوجه متيبس الملامح، متشقق الجلد، كأنه بعض من اديم شرق البصرة، بلباس ريفي جنوبي (دشداشة،) وحزام، وصندل جلدي عتيق، ورأس مغطى بغترة تلتف حول وجهه ورقبته فلا يظهر منه الا عينيه وشاربه. قدم نفسه دون ابطاء: (راعي غنم من زمن الحرب).

رأى الراعي شيئا اكبر من سعة عينيه، فاغمي عليه، وبقي لزمن طويل يظن انه رأى كابوسا، فسكت دهرا. قد لايكون الشاهد الوحيد، فقد عثرنا على وثائق من مخلفات الفيلق تشير الى شيء مروع حدث في شرق البصرة. شيء ابعد من المعارك والقتال الروتيني.

في صباح اليوم التالي تحركت من المهرجان ثمانية سيارات نحو التقاء خط الحدود العمودي بالافقي شرق البصرة، تحمل اعضاء اللجنة المنظمة للمهرجان، والصحفيين، وممثلون عن حقوق الانسان، والصليب والهلال الاحمر، وبعض من ذوي المفقودين. سوف يتم التحقق ان كان الراعي قد شهد حلما ام حقيقة.

وصلنا المخفر الحدودي كشك البصري، ثم انعطفنا غربا حسب توجيهات الراعي. وبعد ان سار الموكب نصف ساعة في ارض ترابية غير معبدة وصلنا جسرا صغيرا من جذوع النخيل على جدول جف ماؤها، فاوقف الراعي الموكب ونزل من السيارة، رفع اذيال ثوبه، وضعها في حزامه، وعبر فوق جذوع النخيل مهرولا نحو شجيرات في البعد كأنه سمع نداءا من بعيد. بقينا ننتظر اشارته.

اختلطت الازمنة. عاد الراعي الى الوراء. الاغنام تسير في خلاء داخل جمجمته. كان يحمل عصا مثل اغلب الرعاة. اندفعت اغنامه باحثة عن الكلأ، اخذته بعيدا، غير واعية للحرب ولا للمناطق الساقطة عسكريا. الدلائل تشير انه فقد جزءا من عقله في مكان قريب من السدة الحدودية، فراح يحوم حول مكان في رأسه، او

هكذا تراءى لنا. لم يكن يحمل سوى صورة في الذاكرة: الكلأ مات، النخلات التي اتكأ عليها يوما ما اختفت، الجدول الذي شربت ماشيته منه جف. وراء التل تقبع سنين بعيدة حيث يعيش اهله. ماذا يفعل هذا الراعي المختل، هل يبحث عن رؤيا؟ الحرب والسنين اكلت علامات الطريق، لم يبق له دليل.عاد الينا وهو اكثر ضياعا: اين السياج الذي حماني من رصاصهم، اين الحفرة التي وقعت فيها؟ سوف اجن اذا لم اعثر عليه. اذا لم اجده فسوف اشك في نفسي. ابتبعوني، كي تكونوا شهودا على سلامة عقلي. ثم عاد يبحث في الاتجاه المعاكس، حتى وصل الى خرابة من طين ، واطلق من هناك صوتا ينتمي الى زمن بعيد:

(تعالوا، انا لست مجنونا)

الخرابة كانت قبة لاحد الاولياء سماه (سيد فنجان)، كان مزارا لأهله. السيد فنجان هو الذي انقذه من رصاصهم، لكنه عجز عن حماية نفسه، وتهاوت قبته بعد اول قذيفة.

(تركت قبة (فنجان) وهربت بعيدا، لكن رصاصهم ظل يلاحقني).

اشار الى ثقوب في الحيطان، ومواضع للرصاص،(انظروا).

وكمن اصطاد بسنارة ذاكرته فراح يلوح بها مثل سمكة: نسأله عم تبحث؟ فلا يجيب. من هم؟ فلا يجيب. لماذا يطلقون عليك الرصاص؟

وكان علي ان استسلم لهذا الاستذكار السريالي. اجمع فتات الصور التي يرميها هنا وهناك، اتابعه في لعبة (البوزل Puzzel) التي يمارسها، لاخرج منها بالصورة النهائية. كانت طريقة شاقة في السرد. حظه السيء او اغنامه هي التي جلبته الى هذا المكان وفي تلك الساعة ليكون شاهدا. هنا فتح عيناه قبل عقود، فلم يعد راعيا للغنم بل شاهدا على مجزرة، وحين احسوا به كان الامر قد انتهى ولم يعد بالامكان محو الصور المطبوعة، ولا غلق العين التي رأت ما هو ممنوع ان يرى، لكنهم لم يتركوه، اذ صارت بنادقهم تلاحقه، فهرب تاركا اغنامه يمزقها الرصاص، ومازال يركض حتى دخل في غيبوبة سحبته الى ارض لا يعرفها،

فسقط في حفرة، وقد بدى له انه فارق الحياة، فاستسلم لموت لا وجود له، ولم يصح منه الا بعد زمن لايعرف مقداره. فتح عينيه فوجد اغنامه تحوم حوله وتطلق ثغاءها المعتاد، ووجد البعض منها ساكتة ومنتفخة، وتبكي الحملان حولها.

اين ذهبت تلك الارتال والحافلات؟

واين الحفرة التي كانت تلقى اليها قطعان الجنود، ويرش فوقهم الرصاص والزيت ومشاعل النار؟

اين اختبأ كل هذا الصراخ ؟

وماهذا الدم المتبس في فروة رأسه؟ هل هو دمه، ام دم اغنامه؟ هل هو لرصاصة اصابته ام شدخت رأسه، ام هو اثر سقوطه في الحفرة؟ اين ذهبت البلدوزرات التي انجزت المهمة؟ ومن قادها بعد قتل سائقيها ورميهم في الحفرة؟

انبت الراعي صندله في ارض رخوة لم تسمى بعد، بين نهر كتيبان وكشك البصري:(**سوف نحفر هنا**)، واضعا حدا لذاكرته الموجية وهي تغمر وجهه بعلامات استفهام بلا انقطاع. وكان على اللجنة ان تسلم امرها لهذا الراعي الذي وعدنا بكشف سر المفقودين. وكانالمطلوب من اللجنة تأمين البلدوزر و المعاول والفؤوس وعدد كاف من الحفارين. وقبل ان يبدأ الحفر كان الخبر قد انتشر في المهرجان وتقاطر ذوي المفقودين كل يحمل صورة مفقوده.

ازيح التراب باشراف خبراء المقابر الجماعية. ظهر اصبع، اصبعان، ثلاثة، ثم كف مفتوحة ومضاعفة عشرة آلاف مرة، فارتعب الحفارون لمرآها، وانفتحت عيون المنتظرين لتستوعب هذه المفاجأة الخارقة للعادة. وللوهلة الاولى ظن الحاضرون انها كف ديناصور مدفون منذ آلاف السنين. غير ان تواصل الحفر وازاحة التراب اظهر انها كف لذراع بشري يمتد بطول يصل الى خمسة عشر مترا. وستهبط معاول اخرى لتختصر الزمن، وسيظهر الكتف والعيون والانف والفم بحجوم مضاعفة آلاف المرات. وسيقبض كل بيد الآخر، ويتطلع كل بوجه الآخر ليتأكد ان كان ما يرى خداع بصر ام حقيقة. ومع تسارع ضربات المعاول راحت اجزاؤه تخرج شيئا فشيئا، وظهر المارد الراقد بملابسه العسكرية. كانت قبعة

المشـاة الخاكيـة (البيرية) تغطي فـروة رأسـه، قطرهـا سـبعة امتـار ، والنطـاق المحيـط بخصـره فكـان قطـره يصـل الى عشـرة امتـار، امـا جزمتـه (البسـطال) فكانت ترتفع عن الارض الراقد عليها بتسعة امتار، وقد جف جلدها الاسود وضـاع بريقه. وبنظـرة سـريعة بـدت الجثـة بطـول لايقـل عن خمسـين مـترا. لم يعـد هنـاك مجـال للشـك اننـا امـام معجـزة من معجـزات الحـرب، وارتفعت اصـوات تتسـاءل ان كان اله الحرب او البيرنطال. غير ان شيئا محيرا لاحظه ذوي االمفقودين، فالوجه الصامت يحمـل ملامح ابنـائهم. كنت اسـمع بكـاء البـاحثين عن ذويهم وهـم يتلقـون اشـعة من مقلـتي ذلـك العملاق النـائم فتـدخل قلـوبهم وتملأهم بالأسـى، الشـعاع يمت لهم بصـلة فقـد كـانت الجثـة تتحلـل الى عناصـرها الاوليـة مثـل نظـائر اليورانيـوم. هنـاك اشـعة تخـرج من عينيـه وتخـترق قلـوبهم : في صـمته وسـكتته الابديـة، كـل يـرى فيـه وجـه من فقـده. دخـل الـراعي في دوامـة جديـدة، واضيـف عبء جديـد على مخيلته حين وجه اليه السؤال:

(هل هذا هو الذي رأيته ايها الراعي؟).

أجاب: (كلا، ما رأيته هو افواج من الجنود تلقى تباعا الى هذه الحفرة).

اخذ الـدكتور طـالب المحسـن عضـو اللجنـة والمشـرف على مختـبر الحـامض النـووي (**DNA**)عينـات من منـاطق متفرقـة من الجثـة : العين، الآذن، الانـف، اللسـان، الاطـراف. بعـد اجـراء الفحص قدم تفسـيرا لهـذا العملاق: قـال انـه نتـاج لعمليـة انـدماج ثلاثة آلاف جثة تقريبا. ومن المـرجح ان يكونـوا قد تعرضـوا لمـادة كيمياويـة مذيبـة رشت عليهم بعد قتلهم، سـاهمت بالاضـافة الى عمليـة الـدفن في تعجيـل انصـهارهم. وكشـف الى اللجنـة ان نتـائج الفحص اظهـرت تمـاثلا في الارقـام ، وتـبين ان كـل عينـة تحـوي نفس العـدد من الاحمـاض النوويـة، فـالعين نتـاج انـدماج ثلاثـة آلاف عين، والأنف هو اجتماع لثلاثة آلاف أنف، وكذا بقيـة الاعضـاء. وقـد تمكـن المختـبر من مطابقـة النتـائج مـع بيانـات ذوي المفقـودين، وتم تحديـد هويـة المفقـودين. وابلغـني الـدكتور طـالب ان العقيـد ليس ضـمن هـذه الغـول. وقـد ايـدت اللجنـة ادعـاءات راعي

الغنم ولكنها لم تتوصل الى تفسير دواعي هذه المجزرة ولا هوية مرتكبيها. وبقي موضوع (المؤامرة) معلقا بالتكهنات.

في الجانب الايراني عثروا على غول بحجم مضاعف قرب نهر (الكرخة).

في اي كأس سنعثر عليك؟ وكيف سنصل اليك ياهشام، اذا كنت تضع كل هذه العراقيل؟



جيوب التفاهم

مع وقوف الجيشين المتحاربين عند خط الحدود اصبحت المسافة بينهما اقصر مايمكن. في هذا الوقت صعدت قصة (جيوب التفاهم): وهي الوحدات المتقابلة من الطرفين، التي قررت وقف اطلاق النار سرا، والتظاهر امام غرف القيادة في الألوية المحسوبين عليها بان كل شيء يجري (على ما يرام)، عبر ايصال معلومات كاذبة: اشتباكات، وخسائر بالارواح، وصرفيات الذخيرة، وعيارات في الهواء، وقذائف في اهداف وهمية. بغياب الكشف عن هذه الجيوب وقادتها واماكنها، فقد تحولت بالتدريج الى لغز يتأرجح بين النفي والاثبات، ويتشبع بالأساطير. وكان من الصعب ابعاد عنصر الشك، وان الموضوع برمته هو من صنع جهازالاستخبارات، يقوده ضباط مدربون لاحداث اكبر عملية تطهير في الجيش.
في الباص الخشبية، التي هي حانتنا في اغلب الاحيان، طرقنا هذا الموضوع كثيرا. ولابد ان انقل وجهة نظر حسن بلاسم، فهو ينفي التفسير الاستخباري لجيوب التفاهم، ويتكلم عن تلك الجيوب كحقيقة وجسد في غاية النقاوة. كانوا من وجهة نظرة من (ارقى التنظيمات السرية، وهم يتحركون داخل الجيش بطريقة سحرية، ويقطرون السلام مثلما يقطرون الخمرة في ملاجئهم، ولا يقف بوجههم اي عائق، ولم يعودوا يخافون الموت بعد ان عاشوا زمنا طويلا في ظله).

انني مضطر الى المرور سريعا بحسن بلاسم، ابن القاسمية البار، كي لا ابتعد عن غرضي الاساس، مأملا ان اجد فرصة اوسع لكي اضع صديق العمر في الوعاء الذي يحتويه. ان اي اختزال لحسن بلاسم سيكون على حساب التفرد والجرأة في اشمل معانيها. اذا وصله كتابي هذا فاتمنى ان يجد لي عذرا عن ضيق المساحة

التي خصصتها له. في هذا الفصل اقف امام واحدا من الايادي التي ساهمت في صنع هذه التجربة الفريدة. انني اجد نفسي صغيرا امام هذا الصرح الشامخ في تاريخ الحرب، ولا اجد القالب التعبيري الذي يمكن ان يحتويه. ان وجود اصابع لحسن بلاسم، حتى لو من بعيد، في هذا الأمر يملأ صدري بنوعين من المشاعر. لقد شعرت بمدى الفارق في الخطوة بيننا عندما اجتمعنا بعد سنين طويلة. كنا في درب واحد للبحث عن المفقودين، ثم سرعان ما انشطر الطريق الى اثنين. اصبح كل منا يبحث عن مفقود له. كان هناك فارقا نوعيا بين (مفقودي) و (مفقوده). انا ابحث عن زوج اختي، رجل الحرب، الذي ذهب الى القتال بارادة فولاذية. ابحث عن اصابع من بارود، عن ضابط سخر عمره وهو يعبيء البنادق ويحشوها، لكي يملأ بها صدور الرجال. اما حسن فقد عاد الى البلاد بعد سنوات من الغربة للبحث عن الرافضين للحرب، يبحث عن الاصابع البيضاء التي ابت ان تلمس ادوات الموت، فغامر بحياته من اجل بقائها بيضاء. سوف امر سريعا على واحدة من مغامرات حسن بلاسم، التي تستحق كتابا لوحده.

بعد ان فقد ثلاثة من اخوته بين قتيل ومعوق في الحرب تحول حسن بلاسم من مدرس للتاريخ الى عدو للحرب، فأسس وكرا للهاربين تحت يافطة (مشرب صهيب) في حي (الكرادة) وسط العاصمة بغداد، واقنع تجارا وصناعيين وموظفين على رعايته ماليا ومعنويا. في هذا الوكر السري كان حسن يقوم بتزوير الوثائق الرسمية التي يتعذر الحصول عليها من مصادرها. كان يوقع بألف توقيع، ويستنسخ اختام اخطر المؤسسات الرسمية ليدمغ بها اوراقه. وقد توصل الى ان الدولة هي مجموعة اوراق مطبوعة ومختومة. وضع حسن خطة متكاملة للحماية وتطوير العمل. تولد عن صهيب اوكار اخرى: ورش، ومعامل، وكراجات، ومحلات حلويات وحتى بعض الدوائر الرسمية. وكان من الممكن لهذه المنظومة من الامكنة الخطرة ان تواصل وجودها لتحطم هيبة الدولة، لكن الاجهزة الامنية بدأت تستيقظ. كان لابد من ثمرة لتلك الاموال والعقول الاستخبارية التي ارسلت

الى المانيا الشرقية والاتحاد السوفييتي. في تلك الحقبة صعد الى السطح الرفيق سمير الشيخلي العضو القديم في الحزب الحاكم ووزير الداخلية ، واقسم برأس السيد الرئيس على ان يحول الجرذان (الهاربين) الى اسود، او يعلقهم في المشانق، او يشنق نفسه اذا لم يوفي بقسمه. منحه الرئيس كل الصلاحيات، وجعله فوق القانون، ووضع تحت تصرفه اربعة اجهزة هي: الامن والانضباط العسكري والحزب والشرطة. بدأ الشيخلي يتجول في بغداد ترافقه (حاملة مشانق)، وهي عربة نقل محورة تحمل على ظهرها ثلاثة اعمدة خشبية بثلاث حبال مدلاة، حيث كان التنفيذ فوري، وبكلمة واحدة من الشيخلي. طوق بغداد مرتين، وفتشها بيتا بيتا. لقد كانت حاسة شم الشيخلي ورجاله تتطور تدريجيا، وفي الحملة الثالثة اشيع انهم يقودون كلابا بوليسية مدربة لتشم الهارب وتعين مكانه. وصدقت الاقاويل اذ اقتحمت انوف الكلاب ثلاثة اوكار في: شمال بغداد (بوب الشام)، وسط بغداد (شارع النهر) ، و شرق بغداد (منطقة كسرة وعطش).

بدأت الاوكار السرية تترنح تحت وقع تلك الانباء. في تلك الذروة من المخاطر اجتمع حسن بلاسم في (صهيب) مع الهاربين وحدثهم قائلا:

(لقد اخترتم عدم المشاركة في هذه الحرب، واخترتم هذا الوكر ملاذا لكم. كما ترون ان هذا الوكر لم يعد ملاذا آمنا. لقد وجدت لكم مكانا آخر يوفر لكم الأمان. سوف تذهبون الى ساحة الحرب، وتسكنون في جبهة القتال دون ان تتعرضوا الى اي أذى).

راح يشرح لهم موضوع (جيبوب التفاهم)، ثم وضعهم بعهدة احد قادة تلك الجيوب، وعانقهم عناق الوداع. وبالقدر الذي سمح به الوقت، فقد سعى الى الاتصال بمن تبقى من الهاربين ليوصلهم الى تلك الجيوب قبل ان تشمهم كلاب الشيخلي. جمع حسن اوراقه ومعداته ودفنها في مكان سري، حيث لجأ هو نفسه الينا ليسكن في الباص الخشبية قبل ان يجد طريقا لمغادرة البلاد. يحتفظ حسن بلاسم باسماء الكثير ممن ارسلهم الى هذه الجيوب. وحين عاد من المنفى حرص على نبش ذلك الماضي البعيد مأملا ان يلقاهم بعد نهاية الحرب وزوال اغلب

العوائق. غير انه اصيب بخيبة أمل كبيرة، اذ لم يجد اي منهم، بل لم يجد حتى اثرا لهم، واصبح حسن بلاسم هو الآخر يبحث عن مفقوده الاثير الذي يرى فيه درة عمره.

★★★

كانت هناك فكرة تلح علي كثيرا، تجعلني اعتقد بوجود علاقة ما بين العقيد هشام وجيوب التفاهم. هذا الاحتمال ينبثق عن حالة السوبربوزشن التي يعيشها العقيد هشام كما يبدو لي. كنت اعتمد على الاوراق التي اطلعني عليها حسن. غير ان حسن كان له رأيه ايضا. سألته عن السبب الذي يجعله مترددا في قبول هذا الاحتمال (ان يكون العقيد قد اصبح واحدا من قادة جيوب التفاهم)

اجاب انه لايملك دليلا قاطعا، بل هاجسا مدعوما بقصاصات ورقية من الارشيف الذي تحت يده، ومن بقايا الذاكرة، قال ان العقيد دخل، دون ان يدري، في احدى تلك الجيوب اثناء تفقده العشوائي للوحدات القتالية القريبة منه.

الرواية تؤكد ان العقيد دخل فعلا احد جيوب التفاهم، لكنه لم يكتشف سرها، ولم يحس ابعد من انفه، فقد استاء من قلة الضبط والتسيب، فوبخ الضباط، ولم يذهب ابعد من ذلك. اعتاد العقيد على التجوال في خطوط التماس للتحقق من متانة الخطوط الدفاعية.

انا: هل تعتقد فعلا انه دخل بالصدفة؟

حسن: لا ادري.

انا: هل حاول رجالك معرفة نواياه؟

اجاب حسن: لقد سألوني عنه، بعثوا الي رسالة عاجلة. اجبتهم في وقتها باني لا اعرف عنه الكثير خصوصا دواخله، وكل ما اعرفه انه ضابط مهني ومتزوج من احدى بنات حينا (القاسمية).

★★★

من الصعب ايقاف المخيلة، او الاشاعات، او التسريبات المجهولة المصدر. في ظل طغيان نظرية المؤامرة وسرعة انتشارها يصبح كل شيء ممكنا، ويصبح الفرق بين الحقيقة والوهم شعرة واحدة. وكما ان هناك ضابطا عراقيا اسمه **هشام الخوصر**، ففي الجانب الايراني هناك الجنرال المتمرد سرا (**انمار قزويني**) من الفرقة المدرعة الايرانية 92، والذي اختفى هو الآخر في ظروف غامضة، وفي نفس الوقت تقريبا. اننا لانمنع انفسنا من الاقتراب من تلك الحافة الاحتمالية التي تضع هذين الضابطين في خانة واحدة، فقد كان الاثنان متواجهين لاكثر من عشرة شهور، لم يكن يفصلهما سوى مسافة لاتزيد عن عشرة دقائق مشيا، وهناك اشواك حديدية يمكن رفعها وتركيبها اذا لزم الأمر، حقل الغام يمكن ان يتحول بقوة الحياة الى حقل بطاطا، مزرعة دواجن شيدها الجنود من كلا الطرفين، وملعب للكرة الطائرة يتسابق فيه البلدان بشكل مختلط. اما (العداء التاريخي) بين العرب والفرس فلم يكن له اي مكان. العداوة هي حقن من هراء ديني، ومعتقدات فاسدة، لاتصمد امام ظاهرة العطف الانساني وقدسية الحياة التي بدت واضحة في (جيوب التفاهم). هذه المعلومات كانت تصل الى حسن بلاسم في بغداد اولا بأول، وفي نفس الوقت الى اصدقاؤه في طهران. تقول المعلومات ان الجنرال قزويني كان يرسل الرسل الى العقيد هشام ومعها التحيات والحلوى والفستق، ولا نعلم الى اي حد وصلت تلك المغازلات؟ وهل استجاب لها العقيد؟ ثم قدم الجنرال قزويني اشارة دالة على رغبته في (**التفاهم**) عندما ابعد لواء الحرس الثوري عن خط المواجهة خوفا من كشف هذه الاتصالات.

★★★

هناك اوراق من مخلفات الفيلق الثالث، عثر عليها حسن، تتعلق بزيارة مفاجئة قام بها العقيد لاحد الوحدات المرابطة في خط التماس، يصف فيها مشاهداته في تقرير مفصل (تقرير كشف الخفارة) رفعه الى الفيلق الثالث يتحدث فيه عن (وحدات منفلتة، وفاقدة للضبط العسكري، ويمكن ان تخترق بسهولة،.... على

يسار المخفر الحدودي (كشك البصري) ..... هذه الوحدات تابعة للفرقة التاسعة، التي يقودها اللواء طالع ارحيم الدوري)
اضاف العقيد في رسالته ملاحظة مهمة (..... كنت اقوم بتفقد القطعات الواقعة قريبا مني، وهي وان كانت ليست بامرتي، لكني اعمل بما يمليه علي واجبي وايماني بان الضابط مسؤول عن اية وحدة عسكرية داخل الجيش، وبلا شك مسؤول عن اي متر في الخط الدفاعي).
وكتب العقيد هشام تقرير الخفارة الليلية التالي:
(فتشت الحرس فوجدتهم نائمين في العسل. فتشت صناديق الذخيرة فوجدتها حاويات للطماطم. فتشت الاسلاك الشائكة فوجدتها قد ازيلت لفتح ساحة لكرة القدم في الارض الحرام، اما الالغام فقد رفعت وزرع مكانها تقاوي البطاطا. ورأيت دواجن تتبختر امام ملاجيء الضباط. اطلقت صافرة لتجميع الموجودين. وقفت في الساحة وحدي، وجدت انني لوحدي حتى بعد الصافرة الثانية، فقد كان نصف الجنود في فراشهم والنصف الآخر في بيوتهم يتمتعون باجازات اعتيادية او مرضية. فتشت الغذاء الاحتياطي الجاف فوجدت منتجات العدو، سألتهم من اين حصلتم على الساهون والفستق؟ هل وصل العدو الى هنا ؟ فاجابوا بشيء لايصدق، قالوا بل نحن الذين هجمنا عليهم سيدي، فهربوا وتم الاستيلاء على مستودعاتهم الادارية. فقلت لهم من اين اخذتم امرا بالهجوم ؟ فصاروا ينظرون بوجوه بعضهم، بلا جواب. شككت ان دناءة النفس هي التي دفعتهم الى ارسال متسللين الى مواضع العدو وسرقة حلوياته. فتشت اسلحتهم وملاجئهم فلم اجد شبكات الغش والاختفاء وقد رفعت التحصينات ، وكانوا يسيرون بلا اقنعة وقاية ولا خوذ فولاذية والبعض كانوا يسيرون بالنعل وحين رأوني هربوا من وجهي خجلين ، سألتهم : الا تخافون القناص، فاجابوا انه لايوجد امامهم عدو ، بل فراغ شاسع. حذرتهم بشدة قائلا: ان هرب العدو لايعني خلو المنطقة منه، ولا يعفيكم من الضبط العسكري،
فقد يملأ العدو الفراغ فجأة ويداهمكم فتحدث كارثة......)

لقـد اثـار هـذا التقريرغضـب قائـد الفرقـة التاسـعة أنـذاك (اللـواء طـالع ارحيم الدوري) واستتكره بشدة نافيا وجود (وحدات نائمة في العسل، او دنيئة النفس)، معتبرا ذلك مساسا شخصيا به. وطلب من العقيد الكف عن التجول في قاطع فرقته، واذا كان لديه وقت فراغ فليمنحه للألوية التي بامرته. هذه الوثيقة تعزز الاحتمال ان العقيد هو اول من كشف تلك الوحدات او بلغ عنها.

بعد غلق مشرب صهيب لجأ حسن الينا وعاش معظم وقته في الباص الخشبية ، وصار يلتقي على عجل بالهاربين والذين يتعذر بقائهم في بيوتهم او مناطقهم بسبب الرقابة الصارمة، ويرسلهم من الباص الى جيوب التفاهم. تحول باص ابي الى دائرة تجنيد سرية، حيث منها كانوا يلتحقون الى تلك الوحدات بعد ان يزودهم بالاوراق الضرورية، وكلمات السر، والملابس العسكرية. وكان ممثلوها يتفقون معه على مكان داخل مدينة البصرة لأستلام الهاربين.

وكانت تلك الوحدات تتمتع برفاهية عالية، واجازات شبه مفتوحة، وتمارس اقصى درجات التمويه. البعض من افرادها حصلوا على تكريم القيادة العامة، وحصلوا على انواط الشجاع، بسبب الصمود البطولي المزعوم، فقد سقطت معظم المواقع في معارك شرق البصرة ، واعيد تنظيمها او تعويضها، الا هذه المواقع.

★★★

في لحظة فائقة المزاج نظرت الى وجه حسن من خلال زجاجة الكأس، وانا افكر في براءة الاختراع. سألته: كيف انبثقت فكرة (جيوب التفاهم) في رأسه؟ فاجاب بشكل متواضع ان الافكار تتطور من خلال الحاجة الماسة، وكما يقول اهلنا (الحاجة ام الأختراع). قبل جيوب التفاهم كان بعض افراد الوكر (صهيب) قد عبر خط التماس وسلم نفسه الى ايران، وعاش فيها حرا طليقا، وبعث اليه برسائل. قال حسن ان فكرة (جيوب التفاهم) انبثقت من القرب الفاحش من الموت. هناك قانون رياضي: (**يتناسب طول الحرب طرديا مع المسافة بين المتحاربين**)، فكلما كانت المسافة اقصر كلما قصرت الحرب. من هنا نفهم الفارق بين حروب اليوم والامس. لايمكن للحظة الموت ان تكون طويلة، قانون

الوجود لا يقبل الا ان يكون الموت خاطفا، فاذا حصل غير ذلك، فان القانون الوجودي يتدخل ويصنع شيئا بديلا هو جيوب التفاهم. هذه الوحدات قررت انهاء الحرب قبل موعدها، بعد ان توصلت الى خلاصة: ان الحرب لن تنتهي الا اذا اقترب الخصمان الاكبران (**المرشد الاعلى الخميني والسيد الرئيس صدام**) الى ادنى حد، بحيث يتعذر عليهما النوم، اي ان الحرب تصبح قريبة من غرف النوم.

كتب احد قادة الجيوب الى حسن هذه السطور الخالدة:

(هناك شيء افضع من الموت هو العيش بالقرب منه، في الارض الحرام يمكننا سماع عطسة العدو، او مضمضته، واحيانا حتى دقات قلبه. ولكي نستوعب هذا الهلع التام، كان لابد ان نعمل شيئا اكبر منه وهو الاطمئنان التام، وهذا ما فعلناه. رفعنا ايدينا ولوحنا لهم، فلوحوا بايديهم، وانتهى الامر).

القانون يسري على الجميع فبالامكان مفاتحة حتى قائد الفرقة اذا تم تقريبه من الموت حتى يراه بعينه ويسمعه باذنه، ليلة واحدة في الارض الحرام تكفي. في هذا القرب الفاحش لن تعيش الحرب سوى ثوان معدودة ثم تنطفيء.

البداية (نشوء جيوب التفاهم) كانت في القاطع الشمالي من جبهة القتال، حيث يمتد خط العداوة ويلتف بين السهوب والجبال فيمر بواد تخرج منه عين ماء لتروي عطش الجنود المرابطين في القمتين الجبليتين المتناحرتين. في كل قمة كانت هناك راية كل راية يتوجب ان تبقى في مكانها تخفق دون انقطاع، وهناك تلسكوب لمراقبة الطرف الآخر. وحدث ان بغلين: الاول عراقيا والثاني ايرانيا، يقودهما جنديان هبطا في وقت واحد الى الوادي لجلب الماء. ولكي يتجنبا اللقاء فكان لابد من ضبط خطوات البغلين بحيث يصلا الى النبع في وقتين متفاوتين. غير ان ضبط الخطوات لم يكن محكما، اذ وجد جنديان من دولتين في حالة حرب نفسيهما وجها لوجه لايفصلهما سوى نبع الماء، فماذا يفعلان؟

هل يقتل كل منهما الآخر، ام يعودا بالماء؟

في تلك اللحظة اثبت العطش قدرته، واثبت البغلان خلوها من مفهوم العداوة، بحيث سلم البغلان على بعضهما بلهفة ونهيق ودي، وتعانقا بود اخجل الجنديين تماما، فلم

يملكا سوى ان يحضن احدهما الآخر، وتلامست حرارة الكف، قطرات العرق والخجل، ثم سرعان ما تبخرت العداوة مثل اي ريح عفنة في الجسد حين يتعرض للشمس. عاد الجنديان وهما يحملان فايروسا مضادا للحرب. سرعان ما انتقلت العدوى الى البقية. في ذلك اليوم نام الجنود في القمتين نوما طبيعيا بعينين مغمضتين تماما، ولساعات اطول. وتواصل انتشار المرض فتوقفت الحراسات الليلية، وتوقف الرصد، وفعاليات الرمي لاثبات الوجود. ثم صاروا يقتربون من بعض، وقاموا بزيارات متبادلة، وادركوا انهم يخرجون تدريجيا من الحرب.

الجندي العراقي الذي كان يقود البغل كان واحدا من زبائن (حانة صهيب). وقد نقل ماجرى الى حسن بلاسم، الذي وجد فيه نواة لعمل اكبر، حيث وضع تصميما محكما لمراحل ومستلزمات هذه الجيوب وادوات تحصينها. وانتخب رجالا من الوكر (صهيب) للقيام بالتحريات اللازمة في جبهة القتال لزرع هذه الجيوب.

في القطاع الجنوبي لجبهة القتال تشكلت اولى الجيوب عندما دخل العريف على ملجأ القناص وأمره ان يتوقف عن القنص. أمره ان يدير ظهره: (ليس عليك ان ترهق ناظريك بين الفرضة والشعيرة باحثا عن ايراني غافل لتزهق روحه. من الآن فصاعدا سوف تكون مهمتك هو قراءة كتاب او اكثر بين اجازتين تذهب فيهما الى بيتكم). وضع بيده اول كتاب، وقال له اذا ضعف بصرك على هذا النحو فسوف تقوى بصيرتك. وسمح له ان ينام او يتمدد ويخلع جزمته، واخبره بتوقف الحراسات، و(كلما قرأت اكثر، يضاف لأجازتك الاعتيادية اياما اكثر). فبهت القناص، وسأل على الفور ان كانت الحرب قد انتهت، فاجابه العريف: (الحرب انتهت تقريبا، على الاقل بينك وبين من هم امامك). وحدث ان خرج من الخندق العراقي جنديان، وراحا يناولان كرة لبعضهما، ثم ضربها احدهما بقوة فسقطت في الخندق الايراني، فاعيدت اليهما. ولم تمض سوى ايام حتى وجد الطرفان انفسهما يلعبان كرة الطائرة سوية. وضعا خيطا على عارضتين في المنطقة الحرام، فتشكل اول ملعب لكرة الطائرة في تاريخ تلك الحرب الممتدة على جبهة طولها 1200 كم.

كان لابد من مواصلة صرف الذخيرة، والابلاغ عن اشتباكات (مع الفراغ)، وخسائر وهمية، والطلب من المدفعية معالجة هجومات لا وجود لها، للايحاء بان كل شيء يسير (حسب الاصول)، وان الحرب مازالت قائمة. وللمزيد من التحوط فقد حفرت انفاق بين الطرفين، وجيوب للاختباء والتخزين عند الضرورة.
لقد انطفأت النار تماما في هذا الجزء. بعد ذلك كان هناك تبادل للخبز، وتعرف العراقيون على الخبز الايراني الذي يبلغ طول الواحدة ثلاثة امتار، واعجب الايرانيون بقرص الخبز العراقي وانتفاخاته المحمصة. وحصل تبادل للكعك الوطني من كلا البلدين، **السـاهون** الايـراني **بالكليجة** العراقية، والفستق **بمن السما**. وشرائط صوتية لنعيم اصفهاني بناظم الغزالي، وصوت **عفيفة اسكندر** اختلط بصوت **هايدة**، واستطاع العراقيين تعليمهم لعبة **المحيبس**. وحدثت المصارحة دون اوراق او اختام. لقد ماتت الحرب في دواخلهم، دفنوا اسلحتهم او رموها بعيدا، فاصبحوا خطرا على استمرار الحرب نفسها.
★★★

لكن هذه الجيوب المتفاهمة لم تكن محصنة بما يكفي، ولم تكن خارج الرصد تماما، اذ سرعان ماتم الكشف عنها. لقد تم تصنيف هذه الوحدات في الجانبين(العراقي والايراني) على انها وحدات متمردة، واثمر هذا التوافق عن رغبة مشتركة للقضاء عليهما. لقد كانت هذه الجيوب خطرا على اصول الحرب واستمرارها، وتجاوزا فاضحا على السلطات العليا في كلا البلدين. ولايستبعد حصول تعاون او اتصال (عسكري واستخباري) بين مسؤولي البلدين للقضاء على هذه الجيوب. لقد حدث فعلا مهاجمة لجيوب التفاهم في بعض المواقع. يعتقد حسن بلاسم ان مهاجمة هذه الجيوب لم تكن شاملة ولا حاسمة، وان النسبة الاكبر من المواقع لم تتعرض الى الاذى. وعدم العثور على الجنود لا يعني ابادتهم بالكامل. ان حسن بلاسم يبدو هنا كمن يطمئن نفسه، ولا يريد ان يقطع الامل برؤية رجاله. ففي لحظة سكر فائق قال ان نداءا داخليا يدعوه الى بذل المزيد من

الجهد ومواصلة البحث، فهم احياءا حتى الآن، يرفضون الخروج الى الدنيا، او يظنون ان الحرب مازالت قائمة، او يخافون من اندلاع حرب جديدة.
لقد خرجوا من الحرب ولكن اين ذهبوا ؟

اين اختفت الحقول الصغيرة، واقفاص الدجاج، والارانب، وحضائر الاغنام، واين سيجد المقهى الصغيرة وشايها الممزوج بالهيل؟ اين كرسي الحلاقة المجاني، وسوق التبضع البدائي، وموقد السمك المغمس بالزيت؟ من رفع كل هذا، واعاد بضاعة الحرب: مدافع الهاون والاسلاك الشائكة وحقول الالغام والقاذفات الرباعية ومرصد المخابرة ومخازن العتاد ومستودع الاقنعة الواقية ؟
كان حسن بلاسم يبكي على تاريخ مجيد صنعه بيديه. سرنا في طريق واحد. كانت خطواتنا تتباعد وتتقارب و كان من الممكن ان يحدث ماهو مروع لي وله : ماذا لو كان العقيد هو الذي بلغ عن جيوب التفاهم، او شارك في ابادتها؟ ماذا لو عثرنا على اصابعه وهي تعزل الساهون عن الكليجة، والزعفران الايراني عن رز العنبر العراقي ، وصوت هايدة عن عفيفة اسكندر. ماذا لو كان غرضه فصل هذا عن ذاك، ليسلم الحرس الثوري مايخصه، والحرس الزيتوني اللون مايخصه؟ ماذا لو وجدنا آثار جزمته وهي تدوس على حقول الطماطم والفلفل والبطاطا فتزيلها، وتعيد لحقل الالغام هيبته. كنت خائفا من كل هذا، بينما كان حسن بلاسم يسير حاملا املا باهتا ان يكون العقيد هو الذي حمى هذه الوجود البالغ العفة، واخفاه في مكان في العالم حصين ولائق بتلك الجوهرة الثمينة.
★★★

بدأت الدائرة تضيق حول العقيد هشام، خصوصا بعد دخول حسن بلاسم. اخبرني انه بات على وشك ان يقبض هذا المتملص، ويوقف تنقله المحير بين اقصى اليسار الى اقصى اليمين .
جلسنا في الباص ، ورحنا نقلب التسميات الثلاث: (**الوحدات المختارة**) من الفيلق الثالث، (**الوحدات المتمردة**) او المؤامرة كما وردت في اوراق الاستخبارات،

و(**جيوب التفاهم**). انقسمت الطاولة الى نصفين : يرى حسن بلاسم ان التسميات الثلاثة هي لجسم واحد هو (جيوب التفاهم)، وان هناك احتمالا ان يكون العقيد قد اصبح لاحقا القائد الميداني لها، وهو الذي عجل في نهايتها عن طريق اقناع الآخرين (العراقيين والايرانيين) بقدرتهم على وقف الحرب كليا، عبر الزحف المزدوج الى بغداد وطهران. ولما اكتملت عناصر الخطة، وجد كل فريق خصمه: المتمردون من الجانب العراقي بقيادة العقيد هشام وجدوا **الحرس الجمهوري** في انتظارهم، بينما تولى **الحرس الثوري** الايراني التصدي للقائد الايراني المتمرد انمار قزويني، وانتهت القصتان في وقت واحد. هذا هو السيناريو المحتمل في مخ حسن بلاسم. اما انا فكنت ارى الامر بطريقة اخرى : لايوجد في نظري مؤامرة او تمرد او انقلاب عسكري، هذه تسميات استخبارية تستخدم لتصفية الخصوم او تطهير الجيش من (الشوائب). الوحدات(المتمردة) هي نفسها (جيوب التفاهم) الجيوب التي تم تصفيتها بواسطة وحدات مختارة من الفيلق الثالث ، وان العقيد هشام الخوصر هو الذي كلف بهذه المهمة بعد ان كشف بنفسه (جيوب التفاهم)، وكتب للقيادة العامة مباشرة، فكوفيء بتنصيبه قائدا، ووضع تحت تصرفه (12 الف مقاتل) مدعومة من قبل قوات من الحرس الجمهوري.

العقيد ينصب الفخاخ لنا، بل انني بدأت اشك انه مازال حيا، ولكن ثقل اوزاره يمنعه من الخروج الى العلن.

★★★

القوة العابرة للزمان

في ارشيف النظام السابق عثر حسن بلاسم على ملف خطير يتحرك بالضد من العقل. جرني الى الركن الخمري الذي جمعنا قبل ثلاثة عقود. ازاح الغبار عن الطاولة التي امتصت دموعه وحبه الابدي، ووضع ملفا يتطلب اكبر قدر من المرونة العقلية، يحتاج سكرة فائقة. من الآن فصاعدا علي ان انسى كل ماهو بديهي ومعقول فيما يتعلق بمصير العقيد.

عاد حسن الى البلاد محمولا على دبابة امريكية. العبارة حرفية جدا. وكان من اوائل الداخلين الى القصر الجمهوري. حين سقط غبار تلك الحقبة المريرة من تاريخ البلاد لم يجد قبال عينيه سوى وجه **الميجر جيرارد ستيفن** المتبسم والمليء بالثقة. لقد حضي برفقته من الكويت الى بغداد. اكلا وشربا وتحدثا طوال اثنين وخمسين يوما هي الفترة الواقعة من بدء الهجوم في السابع عشر من شباط الى سقوط صدام في التاسع من نيسان عام 2003. لقد انتهى كل شيء، وهرب الطاغية بعد ان افرغ خزينة البلاد من آخر دينار فيها. يحتاج حسن بلاسم ان يقرع كؤوسا من الخمرة لخمسة وثلاثين عاما لكي يستوعب ماجرى، لكنه لم ينسى ان يعد نفسه للمرحلة القادمة قائلا للميجر وهو يقرع معه كأسا عامرة بعرفان الجميل:

(لقد انجزتم اسقاط النظام العراقي من فوق، والمهمة المقبلة هي اسقاطه من تحت).

ولقد فهم الميجر الابعاد الكاملة لهذه العبارة، فشد على يده، وجره الى فتحة مستترة في زوايا القصر الجمهوري، يهبط منها سلم الى اقبية النظام. اصبح امام كل ماكان يسمعه ولا يراه. كان يتحرق شوقا لمعرفة مصير اولئك الرجال الانقياء الذين ارسلهم ليواصلوا العيش في الوحدات السلمية (جيوب التفاهم)،

ويحتفظوا باجزاء من ذاكرته، وكل المحاولات المستميتة للتغلب على الشر، اولئك الذين اختفوا دون اثر. ولقد قضى الشهور الاولى مترددا بين سراديب القصر الجمهوري والاستخبارات العسكرية، حصل خلالها على دعم كبير من قبل الميجر ستيفن الذي زوده بما يلزم من صلاحيات واجهزة تصوير (سكانر) وحاسبات، وسمح له بتشغيل مساعدين، فعكف على تصوير الكثير من الوثائق والاحتفاظ بها على شكل اقراص مدمجة واوراق مستنسخة. وبعد خمسة شهور من العمل المتواصل وصل الى النقطة التي شعر فيها ان الارشيف زائدا ذاكرة المحاربين هما اساس مهرجان الحرب الاول. اتصل بالاصدقاء الايرانيين، واتفق على الخطوط العريضة، ووضع مخططا للمهرجان، وحدد محاوره، ومكانه، ومدته. قدمه الى الميجر، الذي رحب بالفكرة، وابدى استعدادا تاما لرعايتها. على هذا النحو ولد المهرجان، ووصل الناس الى الكثير من خفايا الحرب. وحين انتهى كان الميجر ستيفن اول المهنئين. استقبله في مكتبه. صافحه بحرارة، وهنأنه على التنظيم الرائع، والنتائج الباهرة التي حققها المهرجان. وكان الرجل متواضعا للغاية، فلم يذكر الدور العظيم الذي لعبه في تحويل الفكرة الى حقيقة واقعة، بما وفره من آليات ومعدات وخيام واعمال نجارة ومختبر للتحليلات، وتوفير الحماية للمهرجان. كان حسن يحتفظ بسيل من المشاعر التي يود الافاضة بها، لكن الميجر قطع عليه بشكل مهذب اندفاعه العاطفي ليفاجؤه بمهمة عاجلة يراها بمثابة دليل جديد على قربه منه. قال الميجر:

(اعرف مدى عطشك للاسرار، ولذلك اعرض عليك ان تكون ضمن فريق، واشار الى ثلاثة جنود جالسين في المكتب، للبحث عن نسخة قديمة من العهد القديم (**التوراة**) كانت قد سلبت من الكنيس اليهودي في بغداد، واخفيت في مكان سري).

ثم اضاف الميجر مبتسما:(سوف تضرب مليون عفريت بحجر واحد. بلاشك ان انسكلوبيديا نظام صدام لن تكتمل الا بالدخول الى سراديب المخابرات. المبنى مازال بكرا، يحرسه جنودنا منذ دخولنا بغداد.)

على هذا النحو دخل حسن الى ارشيف النظام السابق في واحد من اهم الاماكن السرية في البلاد، وكلما غاص في تلك الدهاليز واوراقها العتيقة كلما ابتعد عن اصل المهمة. تحول العثور على نسخة التوراة العتيقة الى امر ثانوي ازاء السر الاعظم الذي كان يرقد الى جانبها .

الاسرار مثل كرة الفلين، تطفو على السطح في اللحظة التي ترفع عنها اليد. والحقيقة ان اليد لم ترفع فقط، بل قطعت تماما. في واحد من دهاليز المخابرات توقف عند عارضة مكتوب عليها (**مشروع اعادة كتابة التاريخ**). فتح البوابة، فوجد قاعة فسيحة، وطاولة تتسع لثلاثين كرسيا. لم يعثر على الجالسين (بالطبع)، لكنه عثر على صورة فوتوغرافية تجمعهم مع السيد الرئيس، وسرعان ما تعرف عليهم. هناك ثلاثة جدران ممتلئة من الارضية الى السقف بالكتب التاريخية. شعر ببهجة غامرة، واتصل بالميجر ليبلغه انه عثر على اجمل قاعة في بناية جهاز المخابرات. سوف يبقى حسن داخل تلك القاعة، يأكل قليلا،يشرب قليلا ،ينام قليلا، ويبحث كثيرا. لن يخرج منها قبل ان يشبع تماما. كان يتصل بين الحين والآخر برفيق الدرب الرائد جيرارد ستيفن، ليطلعه على آخر مكتشفاته. ويذكر له عناوين الكتب الهامة.

حين نزل الميجر وجده نائما، ووجهه منكبا على الصفحة مئتين، عند موقعة جالديران **1514**م بين الدولتين العثمانية والصفوية. تركه يواصل نومته في القرن السادس عشر. ترك له رسالة ودية قائلا ان هناك سريرا يمكن حمله وفرشه خلال دقيقتان، وثلاجة صغيرة، وطباخ بعينين، وبامكانه استلامها من المستودع وكتب له اسم المسؤول ورقم التلفون، وختمها بالعبارة: بامكانك الآن ان تعيد قراءة تاريخ العالم.

كان هناك نسخة من تاريخ الطبري، البلاذري، ابن عذاري، ابو حيان القرطبي، مجلد ضخم عن تاريخ الدولة العثمانية ، تاريخ اليهود واساطيرهم ، موسوعة

الحروب الصليبية، حصار فيينا، حروب الاندلس، سقوط غرناطة، تاريخ ادوارد جيبون، صور لجيبون وبرنارد لويس، صورة للسيد الرئيس مع جاك بيرك ومجموعة من المؤرخين العراقيين.

كان من الممكن تنتهي رحلته عند نقل تلك المكتبة النفيسة الى ارشيفه الخاص . يصعب القول تسليم المكتبة الى الدولة فقد كانت شبه غائبة في تلك الفترة. بعد ان قام بتصوير مخطوطات مشروع (اعادة كتاب التاريخ)، تذكر ان ثلاثة اجزاء من هذا الكتاب قد ظهرت الى النور، ووصلت اليه عندما كان طالبا في قسم التاريخ في جامعة بغداد، ورأى فيها محاولة لتنقية التاريخ العربي الاسلامي وابراز الجوانب المدنية المشرقة فيه. وكان يعول كثيرا على وجود كل من: المستشرق الفرنسي **جاك بيرك**، والبريطاني **برنارد لويس** كمستشارين للمشروع، الى جانب الاساتذة الافاضل: صالح احمد العلي، وفاروق عمر فوزي، وحسين أمين، وحسين علي محفوظ، وطه باقر، واحمد سوسة، ومصطفى النجار، وعبد العزيز الدوري، وبهنام ابو الصوف.

بهذه الصورة المشرقة وضع قدميه على بوابة المشروع، وكان كل شيء في البدء طبيعيا وهادئا، ولكنه كلما توغل اكثر، كلما وجد نفسه يغوص في عالم غير معهود، تختلط فيه الاشياء بطريقة تتطلب الكثير من الاستعدادات النفسية والعقلية. حدث تبدل فجائي في فريق العمل. انسحب ثلثي اعضاء اللجنة وعلى رأسهم جاك بيرك وبرنارد لويس، وحلت اسماء جديدة: الحاج خيرالله طلفاح (خال الرئيس ووالد زوجته)، نجم الدين الواعظ، عبدالرزاق الحسني، محمد بهجت الاثري، عبد الحميد العلوجي، محمد حسنين هيكل(مصر)، هلال ناجي، مصطفى محمود (مصر)، متولي الشعراوي (مصر). دخلت مفردة لم تكن بالبال الى جانب المشروع الاصلي، وخزانة تحمل عنوانا مدويا: (**صناعة التاريخ**). ولفت نظره اسماء لستة ضباط من الجيش العراقي السابق يحملون عنوانا موحدا: صناع التاريخ.

ماذا يصنع هؤلاء الضباط هنا؟

وما علاقتهم بكتابة التاريخ ؟

هل المقصود هو تاريخ الحرب مع ايران ام التاريخ الشامل؟

وصعق عندما وجد اسم **العقيد هشام الخوصر**.

انهمر شلال من التساؤلات فوق رأسه: **اليس العقيد مفقودا؟ وماذا يفعل في القرن السادس عشر؟ كيف وصل الى هناك**؟ هل هو حي ام ميت، هل ، هل، هل ؟؟؟ هل هو تشابه بالاسماء؟ السيرة الذاتية المرفقة تؤكد انه العقيد بشحمه ولحمه، فقد وجد حسن اسم شقيقتي رضية واسماء الاطفال. هو ذاته العقيد الذي فتشنا عنه مترا مترا في شرق البصرة، **هل عبر حاجز الزمان؟**

ترك حسن الضباط الآخرين وجلس عند ملف العقيد وراح يقلب محتوياته. وجد اوراقا عتيقة يقشعر لها البدن من فرط قدمها، ومراسلات بخط عربي قديم، ورسائل مكتوبة على جلود الغزلان، وخناجر الى جانب مسدسات، وعباءات الى جانب بدلات معاصرة، وسبح وسيوف ودروع وخصلات من شعر، ورتب عسكرية بنجوم مطرزة الى جانب عمائم تشبه القرع واخرى ملفوفة اثني عشر لفة، وسراويل حمراء عتيقة، ومقتنيات اخرى سوف تقلب كيانه رأسا على عقب.

ابتلع الصدمة لوحده، كان حسن حتى تلك اللحظة يوطن نفسه ان العقيد لم يعد سوى ذكرى بعيده تحتاج لمن يضع فوقها غطاء ليخنقها الى الابد. فجأة صعد وجه العقيد مثل ذيل الحوت في ذلك المحيط الواسع للنسيان. وجد المشروع يحمل عنوانا فرعيا : (القوة العابرة للزمان) يكشف قدرا من طبيعته، ويلمح الى الجانب العسكري واللوجستي. وما ان توغل اكثر حتى وجد نفسه امام حلم لذيذ يحتل مخيلة السيد الرئيس منذ زمن طويل: اختراق التاريخ وتغيير معالمه، وليس هؤلاء الضباط سوى اذرع الرئيس الممتدة. وفي قعر هذا الملف يقبع المصير المحتمل لزوج رضية. هذا هو الملف المتشظي، المتفجر مثل بركان. هناك مواضع هشة، ومطبات، وثغرات تدخل منها اغرب الاحتمالات.

الخلاصة :(**العقيد مازال حيا**). هكذا هتف حسن بلاسم دون اي ظل للشك في صوته. صعقتني العبارة، وصعد وجه العقيد من بين الامواج، يهبط الى القعر لسنوات و يطفو لأيام، ثم يعود غريقا من جديد.

(انه حي بطريقة يصعب تقبلها، اذا بقينا نفكر بالطريقة التقليدية. يتطلب الأمر اللجوء الى فضاءات فكرية جديدة: قد تكون النظرية النسبية، وميكانيكا الكم بعضا منها).

هناك اوراق تشير الى وجوده في عصور غابرة. قد يكون اسير حرب فعلا، ولكن في زمان آخر، وينتظر فك اسره وعودته الى عصرنا. كان حسن على موعد مع اكتشاف اعظم بالوعة للمال العام، ومشروع اجلس البلاد على دكة الافلاس والمديونية. لقد غطى هذا الاكتشاف في داخله على لحظة العثور على نسخة التوراة البابلية واعادتها الى اهلها. وجدها مطوية في صندوق خشبي مرصع بالفضة ارتفاعه متر وعشرين سنتمترا، وتعلوه قبة مزينة بالفضة. وعندما فتح الصندوق وجد بكرتين متقابلتين، يلتف عليهما جلد الغزال، حيث نقشت اسفار العهد القديم بعصير الليمون الاسود. كان تاريخ شعب اسرائيل في حالة يرثى لها بسبب سوء الخزن. الرطوبة والصدأ في مواضع عديدة. صدرت الاوامر بنقل المخطوطة الى امريكا، وتم الاتفاق مع مؤسسة متخصصة للقيام بالترميم، وظهر يهود العراق وهم يستقبلون كتابهم العتيق بالدموع ويطوفون به ارجاء القدس.

قدم الميجر ستيفن شكره الى حسن بلاسم بطريقة رائعة، عبر مواصلة الدعم لكل مايدور في مخ حسن من مشاريع، وقدم المال اللازم لاعادة ترميم البناية القديمة لمشرب صهيب، وتأمين حماية لها، وانشاء مركز للدراسات فيها. وهكذا اندفع حسن بقوة عازما على جمع وحفظ اكبر كمية من الوثائق اليكترونيا، فزوده الميجر بالتقنيات الحديثة، وسمح له بتشغيل اربعة مساعدين. وبدخوله مبنى المخابرات انفتح امامه منجم من الاسرار والفضائح وحرقة القلب: اسماء لمتورطين وسياسيين وصحفيين عرب مرتشين وكوبونات النفط وصفقات مشبوهة وشقق في عواصم العالم، وقوادين وقوادات يقبضون رواتب وهدايا من

النظـام حـتى آخـر لحظة. كـان يتـابع تلـك الامـوال الطائلـة وهـي تنتقـل الى جيـوب السماسـرة فيشعر بدبيب القمل في معدته. وكـان الفضول لمعرفة اولئك السماسـرة قد انتقل مثل مرض الطاعون واحتل جمجمتي فتحول الى ملح في جرح مفتوح يمنع عني النوم.

★★★

يعتقـد حسـن بلاسـم ان السـيد الـرئيس صـدام حسـين وقـع تحت تـأثير معلومـات استخبارية ذكية جدا. من المحتمل جدا ان يكون قد استلم (اشارة من مصدر مجهول) عن نيـة ايـران لغـزو التـاريخ (عبـور الزمـان)، وانهـا (اي ايـران) تسـتعد لارسـال قـوات مسـلحة الى القـرن السـادس عشـر الميلادي لاسـناد الجيش الصفوي في معركة جالديران عام 1514 م ضد العثمانيين.

هذه الاشارة عجلت في وقوع صدام في الفخ، حيث تم تمريرها الى القيادة العراقيـة مقابل ثمن باهض. اليك فاتورة معركة جالديران:

((فاتورة نقل لواء مغاوير عـراقي الى عـام 1514 ميلادية. المبلغ الكلي 6 مليـار دولار. المسدد مليارين دولار . المتبقي ...))

حـاول حسـن تقديم تصـور اولى عن المقـاول العـالمي، لكنـه لم يكـن سـوى تخمين غـير مـدعوم بادلة. حـاول سـد الثغـرات بالاشـارة الى ان القـوة الحقيقيـة للجهـة اللوجسـتية الـتي تـولت نقـل تلـك الوحـدات تتمثـل في سـريتها المطلقة. معرفـة تلـك الجهـة يشـبه عمليـة اثبـات وجـود الله. بالامكـان رؤيـة الاثـر الـذي تتركـه القـدم، ولكن العثور على القدم امر مستحيل. الجهاز الناقل يعمل باستقلالية مطلقة عن النظام العراقي السابق وربما عن النظام العالمي.

من وراء تمرير الأشارة؟ .

لا يوجد اي جواب. لايوجد سوى مفردة:(الجهة اللوجسـتية) ولايذكر اي شـيء عداها. هنـاك فراغـات في التقـارير وشـفرات نملؤهـا بـالخمرة وشـطحات الخيـال.

السيد الرئيس لم يخرج من البلاد سوى مرتين: الاولى الى مكة – السعودية لاداء حج (العمرة)، حيث ظهرت سرته ونهده الايسر وهو يطوف بيت الله لايغطيه سوى

أزار (الاحرام) الابيض، وفي الثانية الى موسكو، حيث كان يرتدي قبعة ومعطفا مماثلا لمعطف اليكسي كوسيجين، الذي استقبله في المطار. وكان برنامج الزيارة الرسمية يتضمن الطواف في المعرض الدائم للاسلحة السوفيتية في موسكو برفقة الملحق العسكري في السفارة العراقية بموسكو، الذي كان يحمل دفترا صغيرا وقلما ليسجل فيه مشتهيات السيد الرئيس. وخرج بفاتورة قدرها عشرين مليار دولار، ولم تكن خزانة البلاد قادرة على دفع تلك الفاتورة، فقيدت بالدفع الآجل مع كل فوائدها. هذا المبلغ لم يكن يساوي شيئا ازاء فواتير احلام الرئيس في اختراق المستحيل، واجتثاث العدوين السرمديين : اليهود والفرس، من الجذور. في تلك الزيارة حصل الروس على اقامة لمدة ثمانين عاما في حقول مجنون النفطية جنوب العراق.

هل كانت تلك الزيارة هي صفقة العمر؟

هل وافق الروس على تحويل احلامه المستحيلة الى ممكنة؟

حين استكمل حسن بكاءه على اطلال خزينة البلاد الخاوية، عاد لمحاصرة العقيد، بهدف ايقاعه في الشباك. لقد مضى ثلاثة عقود على محاولات صيد هذا الكائن، غير ان فكرة انتقاله لأزمنة اخرى وضعت عدة الصيد التي نستخدمها امام امتحان عسير. طلب مني حسن تأجيل البحث في آلية السفر الى الماضي والتركيز على ماهو اخطر: علاقة الازمنة ببعضها، فبناءا على استشارة باهضة التكاليف توصل النظام الى ان القتل المباشر (اي تصفية الخصم في الزمن الحاضر) لم يعد ضروريا، حيث يمكن تعقب شجرة النسب وتصفية الخصم (**من الجذور، اي في الماضي، وقبل ان يولد**) دون ضجيج، او اثارة لمنظمة العفو الدولية. قد تبدو كلغز، او تناقض، او صراع مع المنطق والبديهة، ولكن هذا هو لب المهمة التي اوكلت الى العقيد هشام وبقية الضباط. سوف نحاول بكل مالدينا من قدرة ان نوضح هذا اللغز:

ان خلخلة الحاضر تتناسب مع عمق التوغل في الماضي. **قتل الجد يعني زوال الحفيد (اي منع مجيء الحفيد الى الدنيا)**. فلو ذهبنا الى الماضي وضعنا طلقة

في رأس الجد السابع للقبيلة قبل ان يتزوج وينجب ذرية، فسوف تختفي القبيلة من الحاضر. وبنفس المنوال يختفي هرم خوفو في مصر، اذا ما وصلنا الى مهندس الهرم وقمنا بتصفيته جسديا. وسوف تختفي قبائل اليمن، اذا رجعنا الى الوراء الفي سنة و قتلنا جدهم قحطان. هذا هو التفسير الذي قدمه حسن واضعا ملف (القوة العابرة للزمان) على طاولة خمرية من نوع حاسم قائلا اننا سوف نصفي ملف العقيد في بضعة كؤوس من الخمرة، نرفعها ونضع كل شيء ورائنا، سوف نتابعه ورقة بورقة. لن نسمح له ان يتملص هذه المرة.

من بين ركام الاوراق افرز حسن رسائل بخط العقيد الى السيد الرئيس، يسجل فيها مشاركته في معركة جالديران عام 1514 ميلادية، وما تلاها من مهمات اوكلت اليه من قبل السلطان سليم الاول.



معركة جالديران
1514 م

(فيما يلي عرض لمجموعة رسائل كتبها العقيد هشام الى السيد الرئيس صدام. لقد قمنا بعملية انتقاء واختزال ضرورية لكتابنا هذا. في هذه الرسائل يكتب العقيد عن وصوله الى القرن السادس عشر، وانضمامه الى **الجيش العثماني** الزاحف نحو الحدود الشرقية لملاقاة **الصفويين** في معركة جالديران 1514 م. يجد العقيد نفسه تحت امرة **جعفر اغا** قائد الجيش الانكشاري، الذي يمثل القوة الضاربة في الجيش العثماني، حيث تجمع بين الاثنين (العقيد هشام وجعفر أغا) مسيرة تستغرق **150** يوم، تتخللها الكثير من الاحاديث التي ينقلها العقيد الى السيد الرئيس. في الرسائل يتطرق العقيد ايضا الى **الامير مراد** الهارب من بطش عمه **السلطان سليم**. وفي الخاتمة يتكلم العقيد عن لقائه مع السلطان سليم والهدية التي تلقاها منه والمهمة التي سيتولى تنفيذها.
تم العثور على هذه الرسائل في ارشيف القصر الجمهوري بعد 2003)



الترابط Entanglement

سيدي الرئيس:

وصلنا بسلام الى سنة 1514 ميلادية، ونحن في اتم الجاهزية للمشاركة في معركة جالديران. وبالنظر للتعتيم الذي مارسته الشركة (الخطوط الجوية العابرة للزمان) فاني لا املك ما اقوله عن الرحلة سوى ان عشرة طائرات مدنية نقلتنا على دفعات الى جزيرة في عرض المحيط.

حين اكتمل وصولنا، اجريت تعدادا للتأكد من وجود اثني عشر الف مقاتل، يحمل كل منهم بندقية والف رصاصة، ثم اخضع اللواء لعملية تخدير جماعي. اما انا فقد تم عزلي وابلاغي ان هناك عملية ترابط (Entanglement) سوف تجرى بيني وبين مسؤول في القيادة العراقية، هذا الترابط يسمح لي بعبور الزمان والتخاطر معه. سوف يتأخر دوري في التخدير قليلا. هناك حقنة خاصة تنتظرني، تحوي سبعة موائع: دم، ودمع، وعرق، وبصاق، وبول، ومخاط، ولعاب، مخلوطة بمادة مشعة، ومسحوبة من جسد المسؤول العراقي، لم يعلنوا هويته (اكس). بالمقابل سوف يسحبون مني ذات الموائع لتحقن في جسم (اكس). على هذا النحو ينشأ الترابط (Entanglement) بيننا. شرحوا لي باختصار شديد ماذا يعني: بعد تبادل الموائع يكون كل طرف توأما دماغيا للآخر، وكل ما يفكر فيه احدهما سوف يصل حرفيا للآخر. الترابط (Entanglement) يشبه ان يكون عقل واحد في مكانين او زمانين، لا ينقطع مهما تباعدت المسافات او الازمان. ابلغوني ان القيادة العراقية وضعت الترابط(Entanglement)ضمن شروط العقد. ثم اخرجوا حقنة الطرف الآخر، وضعوهما قدام عيني، وسألوني ان اخمن هويته. اجبت: لا اعلم، ولكن لو سألتموني من تتمنى، فسو اجيبكم على الفور. عندئذ سألوني: من تتمنى ان يشاركك في كل مايخطر ببالك؟ قلت: السيد الرئيس، فقالوا: مبروك، والسيد الرئيس نفسه اختارك.

سيدي الرئيس:

وانا اقترب من الانضمام الى الجيش العثماني والقتال تحت راية السلطان سليم الاول، اجدد عميق امتناني للثقة التي خصصتموني بها. سوف انقل لكم سيدي كل ما اراه واسمعه خطيا، اما ما يجول في الخاطر فسوف تتكفل به حقنة (الترابط Entanglement) التي تجمعنا.

★★★

الامير والقلادة

اول مخلوق رأيناه في القرن السادس عشر كان صيادا، يعلق في ظهره قوسا وسهما، ويمسك بارنب من اذنيه. حين رآنا القى بصيده تحت قدميه، رافعا يديه، ثم ركع تحت ركبتي، وانخرط في بكاء طالبا الرحمة بكلمات اعجمية. بعد ان وجدنا من يفهم لغته، قال انه امير متنكر بزي صياد. وهو خائف ان نسلمه الى السلطان فيقطع رأسه مثلما قطع رأس اخوته. قال انه سيعترف لي بكل شيء. طلبت منه ان لايخاف وان يحكي لي قصته. قال انه الامير (شاهزادة) مراد، حفيد السلطان بيازيد من ابنه احمد. قال انه لجأ الى بلاد فارس، وسكن اصفهان، منذ مصرع والده وخمسة من اخوته قبل عام على يد عمه السلطان سليم. وقد عاد سرا للم شمله باسرته. انه لايريد شرا بأحد سوى العودة الى اصفهان مع زوجته وابنه الرضيع المولود في غيابه، قبل ان ينكشف امرهما فيقبض عليهما السلطان ويذبحهما. اللغة التي يتكلم بها خالية من التوقير للسلطان سليم. فاعترضتُ سبيله: ماذا تقول ايها الامير؟! كيف يذبح عظمة السلطان طفلا رضيعا؟ ما اعرفه عنه انه قائد وفارس شجاع، يقطع رؤوس الخونة والمارقين، وليس الرضع والجواري، ونحن قادمون من العراق لنصرته في حربه ضد الفرس. فقال الصياد: يؤسفني ان اخبركم انكم تخلعون على عمنا صفات ليست فيه، وأجد من الواجب اطلاعك على بعض الامور المهمة قبل ان تلتحقون به. ثم انخرط في حديث مطول عن الاسباب التي دفعت الناس في الاناضول الى التمرد والاتصال بالصفويين وطلب حمايتهم او الانضمام اليهم. تكلم عن اهواء الناس في مناطق النزاع او الحدود بين الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية بدأ من سيواس الى اردبيل. لقد المح الى ان الحرب القادمة هي حرب طائفية من صنع رجال الدين الذين يتبعون (**ابن حنبل**) ضد المتصوفين من طائفة (القزلباش). لقد هاجم هذا الصياد الأمير جماعة ابن حنبل متهما اياهم بالغباء والتشدد وتحريم استخدام العقل، بالمقابل فقد دافع عن طائفة القزلباش واصفا اياهم بانهم اقرب الى الله من جماعة ابن حنبل. قال ان الحنابلة يستغلون جهل الناس لدفعهم الى الحرب، ويستغلون (تعطش عمنا السلطان

سـليم الى سـفك الـدماء)، وان هـذه الحـرب سـوف تكـون حـرب ابـادة ضـد (**الهراطقة**) وهي التسمية التي تطلق هنا على كل من لايدين بمذهب (ابن حنبل).
لقد افاض في الحديث عن (مساوئ) طبقة رجال الدين وقدرتهم على تجييش الجيوش، والتأثير على السلطان ودفعه الى الحرب قائلا: ان دعوة رجال الدين الحنابلة الى الحرب وصلت الى جميع ارجاء الامبراطورية، ولابد انها وصلتكم مـؤطرة ب (الحفـاظ على بيضـة الاسـلام)، وان الفـرس هم حلفـاء الـروم. وان كلاهما يعملان على القضاء على (دولة الاسلام).
وحين سألته ان كان رأيه في السلطان نابعا من الورطة التي يعيش فيها كلاجيء في بلاد الفرس، اجاب بنعم و لا. قال ان رأيه نابع من معرفة دقيقة بكلا الفريقين، فهو يعرف الشاه اسماعيل الصفوي تماما مثلما يعرف عمه السلطان سليم. وقد اعترف لي انه يثق بشاه الفرس اكثر من عمه، وان الحرب هي من طرف واحد. ولو وقعت هذه الحرب فان عمه هو البادىء بالعدوان وهو الذي يتحمل كل ماتسفر عنها من ويلات.
تركته يخرج كل ماعنده من آراء في الامبراطورية العثمانية وسلطانها الذي هو عمه ورحت اصغي اليه. يبدو ان الامير الهارب كان قد قطع كل الخيوط التي تربطه بعمه، فقد تحدث عن امر غريب اسمه (**قلادة العرش**):
(من المستحسن ان تعرف ايها القائد انك ذاهب لنصرة سلطان قتل اباه واخوته بدم بارد. لابد ان تعرف شيء اسمه (قلادة العرش) وهي قلادة يجتمع فيها كل الطامحين في العرش، وتحفظ عادة في خزانة الباب العالي في اسطنبول ولكن ذلك لايمنع ان يضعها السلطان في رقبته عند توليه العرش، وفي المناسبات الهامة.
القلادة مؤلفة من نوعين الحجر: **عقيق** و**زمرد**. في كل خرزة عقيق منقوش اسم سلطان بدءا من جدي الاكبر ارطغرل. بين كل خرزة عقيق واخرى تتوزع خرز الزمرد، التي تمثل الرؤوس التي قطعت على مذبح الصراع على العرش.
باختصار (العقيق هو السلاطين والزمرد هم الضحايا).

كان اجدادي يتنافسون بلا رحمة ليكونوا خرز عقيق (سلاطين) في القلادة. رغم فداحة الثمن الا انهم لم يتوصلوا الى حل افضل. مع كل خرزة عقيق جديدة تتضاعف خرز الزمرد (اي الرؤوس). الورثة الشرعيون لايسجنون او يبعدون بل تقطع رؤوسهم مهما كان عددهم او سنهم. جدي السلطان (محمد الفاتح) خنق بيده اخا رضيعا عمره ستة شهور، وهو عمل اكثر جسارة من فتح القسطنطينية، يستحق عليه لقب (محمد الخانق). وقتل مراد الثالث 5 اشقاء لحظة توليه العرش. محمد الثالث أمر بقتل 19 اخا له، و 30 بنتا، و 7 جواري حوامل من اخوته. مراد الثاني قتل عمه وشقيقه. اما مراد الاول فقتل شقيقيه وابن احدهما. هذا العرف الوحشي هو الذي دعاني الى اللجوء الى فارس. قلادة عمي السلطان سليم لم تكتمل، هناك فراغ من الزمرد متروك لرقبتي ولاخي ولذريتنا.

جدي السلطان بايزيد لم يكن راغبا بتوريث سليم العرش، بل كان يفضل عليه ابي (احمد) الذي يسعى لبناء علاقات وطيدة مع جيراننا. وهناك عمي (قرقود) المغرم بمجالسة العلماء والذي يسعى لتخفيف سطوة رجال الدين و بناء دولة عصرية. وبعد ان تم عزل جدي، ارسله سليم الى ديموتيكا، ووضع في طعامة جرعة من السم تكفي لقتل دستة اباطرة، فلفظ الشيخ انفاسه الاخيرة قبل ان يصل البلدة. واصل الصياد او الأمير الهارب هجومه على عظمة السلطان قائلا:

اثبت سليم الاول للعالم ان الدولة العثمانية غير جاهزة للدخول في عصر الرأفة وحسن الجوار. ان وحشية اجدادي تسري في دماء عمي.لازال الجمال يتجلى في ذبح الخصوم والوقوف على جثثهم، وتبجيل الخصائص الوحشية التي حمت الدولة من الزوال. وبعد ان غسل سيفه من دم ابي واخوتي وعمي قرقود طلب دفنهم قائلا: ((هؤلاء الدراويش (سخرية منهم) هم اخوة لاسماعيل الصفوي قبل ان يكونوا اخوتي))، وصار الهدف القادم هو الدرويش نفسه اسماعيل الصفوي.

ثم وجدت الصياد يمسك بكفي ويضغط عليها بقوة موجها كلامه لي:

وبما انك، ايها الفارس العربي، ذاهب لنصرته، فمن مصلحتك ان تعرف ان الحرب التي يريد شنها على الصفويين ليست في مصلحة البلاد، وانها من تدبير رجال

الـدين من اتبـاع ابن حنبـل، الـذين يعرفـون كـيـف يدغـدغون غطرسـته ويسـتغلون رعونته. سـوف يقابلـك حـاملا تلـك القلادة الـتي تحميـه من يقظـة الحس الانسـاني، وتحميـه من غـزو الشـفقة، والرحمـة والعطـف، وتجعلـه يـدوس على كـل مـاهو هش وطري. سـلطان يكـره العشـق والخمـرة والموسـيقى وهمـا العناصـر الثلاثـة اللازمـة للحب، و الـتي تؤلـف عقيـدة القزلبـاش في بلاد فـارس، وعقيـدة البكتـاش في الاناضول، وهي ذات العناصر التي يحرمها اتباع (ابن حنبل) ويريدون القضـاء على من يحملها.



سيدي الرئيس:

لقد كاد هذا المتمرد ان يبلبلني، ويغير من عزيمة جنودي.

هل هو صياد هارب من الحرب، ام امير متمرد، ام جاسوس؟

بـدأت اشـك في امره، فقـد يكـون قـد ارسـل خصيصـا لتثبيـط عزيمـة المتطـوعين. وهنـاك مثلـه الكـثير الـذين ارسـلتهم الاطلاعـات الايرانيـة لمنـع التحـاق المتطـوعين والمجاهـدين في الحملة. لـذلك نصـبت حرسـا على الكهـف الـذي يقيم فيـه، واني انتظر اوامركم سيدي.



جعفر أغا

في الاجتمـاع الاول مـع (الأغا) قائـد الجيش الانكشـاري. وضـعت الترتيبـات العسكرية و الادارية لضم قواتنا الى الجيش العثماني الزاحف لمحاربة الصفويين. كان منصب (الأغا) يماثل عندنا رئيس الاركان. بحثنا في حل معضلة السير، فالمسـافة بين ادرنـة حـتى جالـديران تبلـغ الفي كيلومـتر. شـرحت ل (الأغا) خصائص قوات المغاوير: (انها قوات محمولة على آليات مدرعة، وليسوا مشاة)، فقال ان توفير ستة آلاف دابة امر صعب في هذا الوقت الضيق، وبامكاننا المناوبة

بين جنودك وبين البغال والجمال المحملة. ثم جرى بحث امور التموين والاعاشة، والواجبات اثناء المسير، وخطة صد الغارات، وشفرة الانذار وكلمات السر، والسلاح.

سيدي الرئيس: ينحدر الاغا من سلالة (بكتاش ولي) زعيم الطريقة الصوفية المعروفة (البكتاشية). وهو واسع الاطلاع بعلوم الفلك واللغة العربية والتصوف، اضافة الى علمه في الحرب وقيادة الجيش. وقد كان مبجلا بالنسبة للقادة الانكشاريين، حيث تروى عن شجاعته حكايات تقرب من الاساطير، وكان من احب الرجال الى قلب بيازيد الثاني والد السلطان المعظم. وحين يتكلم جعفر اغا يصعب التفريق بينه وبين اي درويش، لكنه في ميدان القتال اسد غضنفر. هكذا يقال عنه. لم يكن اللقاء به رسميا تماما. قدم لي هيئة اركان الجيش بطريقة لم تخطر ببالي. كانت هناك اربعة وعشرين جرة خمر فوق طاولة بهو الفرسان ومثلها من اقداح البلور وصحون الفاكهة. وفوجئت ان الشراب هو ذاته (العرق) الذي يشربه العراقيون في باراتهم، لكن العثمانيون يسمونه (راكي). دخل خادمان وراحا يملآن الاقداح للجميع. ورفع الاغا كأسه وتطلع في وجهي منتظرا ان ارفع كأسي له. قلت له: (سيدي، انا لا اشرب الخمر، ولكنك لو امرتني، فسوف اطيعك) .وضحك الاغا من كل قلبه ومعه ضباط الانكشارية، ونطق احدهم قائلا: (في عقيدتنا ان رغبات الآمر اوامر)، فقلت يال روعة المصادفة، هذه القاعدة لازالت موجودة ايضا في الجيش العراقي، نستعملها لتقبل كل ما يصدر من القائد الاعلى. رد الاغا بابتسامة جذلة قائلا :

(لن اجبرك على الخمرة، حتى لو كانت رغبتي، سوف اصبها واتركها قدامك، وانت حر تماما في تناولها او تركها)، ثم اضاف بصوت هاديء له وقع الجد:

(الخمرة تزيد من بسالة المقاتل، ونبله في القتال، ان مزج الخمرة بالحرب يجعل منها خالية من الخسة والجبن. لقد اثبتت لنا السنوات اننا يمكن ان نعيش بلا زوجة ولا اولاد، ولكن لا نعيش بلا خمرة. انها وصية جدنا البكتاش).

وتأكد لي انها هي جزء من متاع الجيش الانكشاري، وان التعيين اليومي هو ملء زمزمية (قرابة) من خمرة الراكي، وهو ما يعادل نصف لتر.

عندما وصلنا الى فقرة السلاح تناول الأغا سيفا كان ممدودا على الطاولة وسحبه من غمده. كان سيفا عتيقا صدئا في مواضع، ومثلوما في مواضع اخرى، ومشطورا في قمته الى شطرين.

قال الاغا :اقترب، واقرا الاسم جيدا.

ورحت اتتبع الخط الكوفي المحفور في مؤخرة السيف (لافتى الا علي).

قلت: هذا شعار العلويين، فهل هذا واحد من سيوفهم؟

اجاب: هذا سيف علي بن ابي طالب.

مرر الاغا شفتيه على الاحرف المنقوشة في النصل، ولعق بلسانه طعمها الحاد، ثم اضاف:انه سيفه في معركة (صفين)، وهذه قبضته، ولو كان الزمن امينا لاحتفظ بعرق كفه.

سألته: كيف وصل السيف اليك؟

اجاب: انه ارث جدي **البكتاش**، وواحد من من سبعة سيوف للامام علي: الاول عند الفاطميين في مصر، وهناك خمسة سيوف عند الصفويين، منهم واحد بيد (**استاجلو**) قائد **القزلباش**(الجيش الصفوي)، الذي سيقف قبالتنا في الحرب القادمة. ثم سكب من ابريق الخمرة مايكفي لملأ الكأس، وصبه في جوفه دفعة واحدة، فكبرت عيناه، وكتم حرقة في لسانه قائلا:

(انه لايخشى مقاتلة الاعداء، لكن يحز في نفسه ان يلتقي سيفان من سيوف الامام علي في معركة واحدة).

سألني جعفر اغا عن سيفي، فعجبت من سؤاله، وضننت ان الخمرة لعبت برأسه، فلقد مضت اياما على وجودنا بمعيته، فكيف لم يلاحظ اننا نحمل بنادق !.

اجبت: اي سيف يا معالي الأغا ! نحن لا نقاتل بالسيوف.

فسأل الاغا: وبماذا ستقاتل ايها الفارس؟

عندئذ اخرجت بندقيتي من الحقيبة ووضعتها الى جانب سيفه. تأملها بفم مفتوح وعين مائلة ثم قال: هذا سلاح رومي جديد، فأيدته. سألته: هل سبق ان رأيت مثل هذا السلاح؟ فاجاب: بل سمعت عنه.

سألته: مارأيك فيه؟

أجاب: نحن لم ندخل هذا السلاح في جيشنا حتى الآن.

سألته: لماذا؟

اجاب: الفرسان لايتبارزون بهذا السلاح. الشجعان يتقابلون وجها لوجه. السيف هو سلاح الفرسان.

قلت: سيدي الأغا، هذه البندقية تحل مشكلة العدل، لو وضعتها بيد مظلوم ضعيف، فيمكن ان تعيد له حقه من الظالم القوي.

فرد جعفر أغا: نحن لانتكلم عن العدل، بل عن الحرب، وفي الحرب يجب ان يكون السلاح متكافئا.

قلت له: يمكنك ان تعتبر البندقية بديلا عن القوس والسهم.

ولكي لا يذهب اللقاء بعيدا، عرضت على الاغا ان اجرب امامه دقة التصويب للبندقية التي معي وكانت من نوع (كلاشنيكوف). طلبت منه ان يختار بنفسه الهدف. وافق الاغا مع تعديل بسيط، فقد اضاف انه مستعد ان يسدد على نفس الهدف بالقوس والسهم وان تكون المسافة 50 مترا.

شعرت ان جعفر أغا دخل في نوع من المبارزة معي، او ظن انني اتحداه، فطلب من الخادم ان يحضر له قوسا وسهما. قلت سيدي ، لن اقبل ان ابارزك حتى لو قطعت رأسي. فبان الارتياح على وجهه وهجم علي يعانقني بحرارة.

قال جعفر اغا: انا لا اتحداك انت، بل ان سلاحي هو الذي يتحدى سلاحك، انا بقوسي وانت ببندقيتك، مع شرط واحد، اتمنى ان تقبله.

قلت له: سيدي انت لا تتمنى، بل تأمر وانا اطيع.

قال: سوف يتبارز القوس والبندقية، والرهان هو الخمرة.

سألته: كيف؟

قال: انا اصوب بقوسي على قدح فارغ، اما انت فتصوب ببندقيتك على قدح مليء بالخمرة، فاذا انت اصبت الهدف فسوف اتركك، اما اذا اخطأت فسوف تشربها.

وابتسم الاغا بملء عينيه ليخفف وقع الرهان. لقد كان ودودا سعيدا بوجودي ، وعجولا في تحطيم كل الحواجز معي.

قلت: انا تحت امركم سيدي.

الاغا: انك فارس نبيل ولا ينقصك سوى الخمرة لتكتمل، اريد ان اضمك الى صدري وانت سكران.

قلت له: قبلت الرهان يا مولاي، ليس هذا فحسب، بل اني امستعد ان اسدد على عشرة كؤوس مملوءة بالخمرة في وقت واحد، ولو اخطات واحدة منها فسوف يحق علي حكمك.

اعد المكان للمبارزة، ازيحت العوائق، وضع كأسان متجاوران متشابهان على طاولة في اقصى قاعة التشريفات، احدهما مملوء بالخمرة والآخر فارغ منها. وقفنا انا والاغا في الطرف الآخر من القاعة، هو يمسك بقوسه وانا ببندقيتي.

على هذا النحو ارتبطت الخمرة بالسلاح. جاءت لحظة التصويب، ونجح كل منا في اصابة الهدف. صافحت الاغا وصافحني، هنأته وهنأني. ثم بدأت استعرض امام الجميع قدراتي، طلبت وضع عشرة كؤوس مملوءة بالخمر لاصوب عليها. نظرت الى وجه جعفر اغا ورفعت يدي الى السماء وقلت: اللهم اجعلني اخطأ الهدف لكي يفرح سيدي الأغا ويضمني الى صدره وانا سكران. فضحك الاغا رافعا كفه علامة الرضا والتأييد. كانت المسافة بيني وبين كؤوس الخمرة 50 مترا. في تلك اللحظة مرت في مخيلتي الزرازير وخالي وفترة الصبا وزجاجات الكولا وميدان الرمي في الكلية العسكرية. اغمضت عيني، وضعت فوهة البندقية في الكأس الاولى، اخترت ان ارش الكؤوس من اليمين الى اليسار. لم يخذلني سلاحي. اثبتت البندقية قدرتها في تدمير الخمرة. رأى الجميع فاعليتها ودقتها، وتطايرت الكؤوس العشرة الى شظايا مع ماتحمله من خمرة، فصبغت شرشف

الطاولة بلونها. صعق الأغا اولا ثم صفق بعدها. وصفق وراءه جميع الحاضرين. امسك الاغا بكفي برفق وقادني الى ركن خاص في ديوانه ليسألني ان كنت من اتباع (ابن حنبل)، فقلت له ياسيدي نحن ندين بالولاء لرئيسنا صدام حسين ولا نعرف سواه، ولكن لم هذا السؤال؟ ابتسم الاغا قائلا:

امتناعك عن الخمرة، واندفاعك في تحطيمها، هو الذي جعلني اشك انك من الحنابلة. ثم كشف جعفر اغا الي جوانب هامة من اعماقه، كان يتحدث بشكل صريح ودون خوف عن تأثير رجال الدين في الامبراطورية وعن الحرب القادمة. كنا لوحدنا تماما، قال لي الأغا:

(هناك شيء ارغب ان تعرفه. عليك ان تعرف ان جيش الامبراطورية العثمانية هو صنفين: انكشاري و حنبلي، الاول يشرب الخمرة، والثاني يحرمها، وان الحرب التي نحن ذاهبون اليها هي من صنع (**الحنابلة**). الجيش الصفوي يقوده (**القزلباش**)، الذين يحملون عقيدة مماثلة لنا. وهناك ماهو اهم من ذلك: ان جدنا (**البكداش**) يضعنا نحن الانكشارية، في مقام واحد مع القزلباش، فهو ولينا ووليهم. هذه المسميات الثلاثة: (بكداش، قزلباش، انكشارية) هي عقيدة وضمير واحد. يجمعنا نقاء القلب، الخمرة، الذوبان في ذات الله، العشق، الموسيقى، والسمو في القتال. فنحن واياهم (اي القزلباش) نشرب من نبع واحد، لكن كل منا له سلطانه)

ثم انتبه الى انه ذهب ابعد مما ينبغي ،فوضع كفه على بندقيتي وراح يقلبها قائلا :
(اما سلاحك فقد اثبت قدرته فعلا، ولكن اخلاق الفروسية لاتسمح الا بالتكافوء بالسلاح، بل ان اثنين لا يهجمان على واحد ابدا، ولا نطعن في الظهر، ولا نلاحق مهزوما، او من يرفع يديه، او ثوبه، او يلقي بسلاحه . القتل ليس هدفنا. لايمكنك ايها الفارس العربي ان تسدد ببندقيتك هذه على من يحمل سيفا، او قوسا، انه غير لائق)

قلت للاغا: (انه سلاح يضمن النصر).

فرد علي فورا معيدا قوله ولكن بحدة:

(السيف بالسيف، والسهم بالسهم، ولكي نقبل سلاحك هذا يتوجب ان يكون خصومنا الفرس مالكين له، وبنفس القوة والعدد).

لقد حان الوقت الذي اكشف فيها لجعفر اغا السر الاكبر، مع تقديري للصعوبة البالغة في تقبله. وضعت الاغا امام الدواعي الحقيقية لمشاركتنا في الحملة، واننا لم نأت لنصرتهم فقط، بل لأمر اكبر: هو صد خطر محدق بالدولة العثمانية، يتمثل بقيام الدولة الايرانية بقيادة الخميني بارسال الجنرال (**كريم خرازي**) ومعه اثني عشر الف مقاتل، مزودين بالبنادق، وباسلحة اخرى تهزم افضل السيوف واشجع الفرسان، سوف تنظم بنادق كريم خرازي الى الجيش الصفوي لمحاربة العثمانيين واحتلال اراضيهم. ثم حدثته عن حربنا مع ايران وتمددها الزماني، وعن النشاط الايراني لاختراق التاريخ، ولا ادري ان كان قد استوعب ما قلته ام لا، فقد كان يواصل شرب الخمرة، وشعرت ان مسألة اختراق التاريخ لازالت بعيدة عنه، فلم الح فيها، وكلما فتح عيناه في لجة سكره يمسك بكفي ليؤكد لي ان مايشغله هو ضمان قواعد الفروسية والقتال المشرف، وعلى رأسها التكافؤ بالسلاح، وان مشاركة البنادق سوف تبقى معلقة لحين التحقق من امتلاك الطرف الاخر لها).

★★★

في الايام التي سبقت خروج الجيش من ادرنة تم اشراكي في لجنة الجرد العام. اليكم سيدي تقريرا مفصلا عن قسم التموين في الجيش العثماني:

استلمت(فتشت) الموجود الفعلي للقوة القتالية فكانت تضم خمسين الف من المشاة، وعشرة آلاف من الفرسان، ومع قواتنا البالغة اثني عشر الف مقاتلا يصبح العدد الفعلي في ساعة الشروع قرابة اثنين وسبعين الف مقاتل. ومن المنتظر ان يتضاعف العدد عند وصولنا الى حدود الدولة الصفوية، حيث ينظم بقية المحاربين تباعا في اسطنبول وقونية وارزنجان وسيواس، وربما من دويلات وامارات مجاورة. دققتُ الارزاق فوجدت 400 طن من الاغذية الجافة. دققتُ مستودع السلاح فوجدت ستين الف سيف احتياطي، ومثلها من الدروع، وخمسين الف قوس، ومئتي مدفع، ومئة نبل لكل قوس، ووجدت ثلاثين الف قلنسوة من الحديد، ومئة الف

لبـاس عسـكري، وثلاثين الـف رمح، ومئـتي برميـل من البـارود. دققتُ الحضـائر فوجـدت الفي بغـل، واربعـة آلاف بعـير. دققتُ فصـيل الطبابـة ومـداواة الجـرحى، فوجـدت مئـة مـداوي، يحمـل كـل منهم كيسـا من المشـارط، وقمـاش قطـني، واصـناف من الاعشـاب. وجـدت ثلاثمئـة قصـاب بسـكاكينهم. دققت الخبـازين فوجـدت مئتين، ونفس العـدد من الطبـاخين. واحصيت سـتمئة وعـاء نحاسـي لطهي الطعام، وعشرين الف قصعة، وثلاثة الاف جرة خمـر، وخمسـمئة كيس من الـزبيب، والحمص، والبقـول، والتمـر، والـتين المجفف. وكـان علي ان ادقـق عـدد الغنم، والمـاعز، والرعـاة، واقفـاص الارانب، والطيـور، والـدجاج. دققت مئـة وخمسـين من شـيوخ (ابن حنبل) لأمامـة الجند. دققتُ منـاقير الحمـام الزاجـل المعـد للبريـد فوجدت مئة منقـار. دققت اجـراس الانـذار، وابواق الغـارات، وطبـول الحـرب. دققت الرايـات الـتي سـوف تنبت فـوق صـدور الاعـداء. الشـيء الـذي لم اسـأل عنـه سـيدي الـرئيس هـو وعـاء الخصـيتين. اين سـتفرغ الخصـيتين حمولتهـا طـوال تلك الحملـة؟ اين النساء؟ خجلت ان اسـأل، سيدي، واحيانا كنت اغض النظـر، فالغلمـان الحلـوين الخـالين من الشـعر صـنف من الجنـود لم يكشـف عن نفسـه، ولم ادقـق فيـه، لكـني كنت اراه في الخفارات الليلية،

فمن بين كـل اربعـة حراسـات كـانت واحـدة للغلمـان، وهنـاك الاسـتمناء طبعـا، والمؤكـد هـو اسـتباحة نسـاء العـدو بعـد المعركـة، وهـو امـر تتطلـع اليـه النفـوس بشغف.

★★★

في ادرنـة عنـد الجـامع الكبـير جـرى توديـع الجيش. تتعـالى اصـوات التكبـير، ودعـوات رجـال الـدين مختلطـة بقـرع الطبـول والابـواق النحاسـية. تـرش وجـوه المحاربين بماء الورد، ويمرر كتاب الله فوق رؤوسـهم. (**علي افندي الزنبيلي**) شـيخ الاسـلام، مفتـي الـديار ، وزعيم الحنابلـة، سـيرافق الحملة. الزنـبيلي يقـف على منبر اعد لـه وسـط المدينـة محاطـا بهيئـة علمـاء المسـلمين ليعلن امـام المـلأ الشـروع

ب(**الجهاد الاكبر**) لمحاربة (**الهرطقة**) والمارقين على الدين، ويقرأ رسالة السلطان سليم الاول الى الشاه اسماعيل الصفوي.

((ان علماء الدين عندنا حكموا عليك بالقصاص يا اسماعيل بصفتك مرتدا عن الاسلام، واوجبوا على كل مسلم ان يدافع عن دينه، وان يحطم الهرطقة في شخصك، انت واتباعك البلهاء. ولكننا قبل ان تبدأ الحرب معكم، فاننا ندعوكم لحضيرة الدين الصحيح، قبل ان نشهر سيوفنا. وزيادة على ذلك يجب عليك ان تتخلى عن الاقاليم التي اغتصبتها منا اغتصابا، ونحن على استعداد لتأمين سلامتك))

يرفع المحاربون سيوفهم عاليا، يكبروا، لاعنين اسماعيل، ومتوعدين له، ولجيشه. كنت الى جانب الاغا جعفر في تلك الساعة فوجدته مستاءا من لهجة الرسالة وهمس باذني انها رسالة غير لائقة.ثم جيء بحمامة الزاجل وربطت الرسالة بقدمها وتركت تطير وتحلق في الفضاء متجهة الى بلاد فارس، وسط عاصفة من التهليل والتكبير.

★★★

حوار مفتوح مع جعفر أغا

تحرك الجيش يوم 19 آذار 1514م. خرج الى السهل الفسيح متوجها شرقا سالكا الطريق المار باسطنبول، ليظم اليه كتائب وحمولات اخر. كلما مر بمدينة كان الافعوان القرمزي لدولة آل عثمان يزداد طولا، وتكبر حمولته من الرجال والخيول والماشية، فرسان بخيول مسروجة، وفلاحون بلا ارض، ومجاهدون يريدون محاربة (الهرطقة)، وصعاليك بلا مأوى. يستبدلون ثيابهم بلباس الجند، وتوضع اقواس ونبال على اكتافهم، وينظموا الى القافلة. كنت اسير الى جانب الاغا جعفر ممتطيا حصانا اشهبا من افضل خيول الاغوات، وقد قطعنا نصف الطريق الى (يني شهر)، فاخرج الاغا جرة الخمر ، ثم سألني عن الحرب التي نخوضها مع ايران، فقلت له: الحرب تغيرت كثيرا سيدي الاغا، فانتم تسيرون للحرب شهورا،

لتنتهوا في ساعات، بينما نحن نذهب الى الحرب خلال ساعات، لكنها لا تنتهي بساعات، ولا ايام، ولا شهور، بل تستغرق سنوات طويلة.

سألني: ولم لا تنتهي، الا تواجهون بعضكم؟

قلت: في حربنا نفعل كل مايمنع المواجهة: نبني الملاجيء، ونحفر الخنادق، ونضع الشرك والسواتر، و حقول الالغام. ورغم هذه الموانع، الا اننا نضرب بعضنا يوميا، ولكن عن بعد.

فنظر الي متعجبا: هل تكرهون المواجهة لهذه الدرجة !؟

لم اكن املك ردا، اذ يتطلب ان اتقدم به خمسة قرون الى الامام، لكي يرى بعينه: الجبهة الداخلية وحرب المدن، والصواريخ، والطائرات المقاتلة التي تصل الهدف خلال دقائق معدودات.

قلت: (في حربنا مع ايران نفذت الذخيرة عشرات المرات، وسقط مئات الالوف من الطرفين، واحترق المال والزرع، لكن الحرب لم تنتهي).

سأل: والى متى؟ هل تواصلون العيش في الملاجيء والخنادق؟

قلت: هناك من يرى ان الحرب سوف تنتهي لوحدها، ولذلك ينصحنا بالمزيد من الصبر، وتحصين المواضع الدفاعية، غير ان القيادة لها رأي آخر يقترب من وجهة نظركم سيدي الاغا، اذ ترى ان المواجهة هي الحل. ولذلك فهي تخطط لسلسلة ضربات ماحقة ومؤذية للعدو، وباسلحة فتاكة.

قال جعفر الاغا: لاشك انكما تعيشان نفس المحنة، وينقصكما نفس الشيء.

فسألته بشغف: ماالذي ينقصنا سيدي الاغا؟

فاجاب دون ابطاء: اعتقد ان غياب الخمرة في جيوشكم هو المسؤول عن هذا النوع من الحرب. انتم متخلفون عنا في اسلوب التعبئة. جيوشكم معبأة بالصحو. الصحو والاحتراز والحذر الدائم لا توقف اية معركة. الحرب هي اقصى درجات الصحو، هي العين المفتوحة في البحر لحظة الغرق، هي خلو الرأس من الخمرة او الحكمة. ولكي تدخل حربا لاترغب بها عليك ان تشرب طوال الطريق، او تغرق فيها وانت مغمض العينين. احيانا تكون الحرب نزال بين صاحي وصاحي مثله،

لـذلك لاتتوقف. ولكي تتوقـف تلـك الحـرب لابـد ان يسـكر احـدهما ليتقبـل الهزيمة.

ثم التفت الى الوراء، واشار الى مؤخرة الرتل:

هل ترى المدافع التي تجرها البغال وراءنا، انه سلاح محتقر لدينا، لأنه يقتل عن بعد، وحتى قادته ليس لنا علاقة بهم. فهم يأخذون اوامرهم من السلطان مباشرة. قد نتسامح في استخدامها لتهديم الاسوار، او حين يملك العدو مثلها.

لقد خرج الاغا عن سياق الحديث ليزفر شيئا في صدره، وكانت الخمرة وطول المسير يسمح بكثير من البوح، فلم اعلق على على ماتفوه به. كنت قلقا ان نصل الى نقطة افتراق غير مرغوب بها، فبعد ان دلق في جوفه نصف قرابة من خمرة (الراكي) سألني:

ماذا ستفعل بعد انتهاء الحملة؟

قلت: اني انتظر اوامر السلطان، وفوقها اوامر السيد الرئيس صدام حسين، فهناك اعداء آخرون ينتظر ان نقتص منهم. فسألني عن قائمة اعدائنا، فقلت ان ذلك تقرره القيادة العراقية، ولكن من حيث المبدأ فان الفرس يقفون في الصدارة، ثم يأتي بعدهم اليهود، فالصليبيون، فالمغول.

ثم ارخى صوته، وسأل بنبرة خليط من الفضول والعجب:

والآن قلي ياهشام، كيف ستواجه لوحدك كل هؤلاء الاعداء؟

فاخبرته انني لست وحدي، وهناك اخوة ورفاق ابطال في طريقهم الى ازمنة وامكنة اخرى، ذكرت له قائمة بالضباط العراقيين المرشحين للسفر عبر الزمن: الفريق اياد فتيح الراوي، الذي يستعد للسفر الى سنة 629 م لطرد هرقل الروماني من القدس. المقدم ساجت كامل الذي سيسافر الى سنة 1086م للمشاركة في معركة الزلاقة. العميد بارق الحاج حنطة الذي سيافر الى سنة 827 م للعبور من صقلية الى اجزاء اخرى من ايطاليا. اللواء ابراهيم حماش لصد المغول عن بغداد 1258 م.

فسألني: بأي سلاح سيقاتل اخوتك؟

فاجبت: بنفس السلاح الذي بيدي، بالبنادق سيدي الاغا.
فسألني: هل سيواجهون السيوف بهذا السلاح الغريب؟
فاجبت: كل يحارب بالسلاح الذي يجيده؟
فرد الأغا مستغربا: اين الفروسية يا هشام؟
عندئذ شعرت بهيمنة الخمرة عليه، وكان علي ان اسكت، وابتعد قليلا.
وصلنا (يني شهر) في الاول من مايس. بقينا يومين بانتظار انضمام قوات اسطنبول. اتيحت لنا فرصة للاجتماع بالسلطان والاطلاع على رد الشاه اسماعيل على رسالته. لم يكن الرد مكتوبا على رقعة صغيرة ولا محمولا باقدام الحمام بل حرص الشاه ان يوصله عبر رسول، فقد ارسل الى السلطان سليم علبة من الذهب مليئة بالافيون، نقش فيها:
(الخطاب الذي ارسلته الينا مكتوب تحت تاثير افيون رديء. اليك عينة من افيون عالي الجودة لكي تكتب خطابا افضل يليق بالملوك والسلاطين).



رسائل السلطان الى الشاه

قبل ان ندخل ارضروم وصلتنا الانباء ان الشاه اسماعيل الصفوي لايريد القتال، وانه مستعد لتسليم جميع الاراضي التي دخلها. اجتمع السلطان بقيادة الحملة لسماع آرائهم وكنت معهم، فانقسم الحاضرون الى قسمين: مؤيد، ورافض. تزعم الاغا جعفر فريق المؤيدين للصلح، واقترح على السلطان قبول هدنة طويلة، واخذ تعويض لازم، والعودة بالجيش منتصرا دون اراقة قطرة دم واحدة. اما الفريق الرافض للصلح فيتزعمه السلطان نفسه، والذي يرى العرض الصفوي: (هروبا من المواجهة، وحيلة لكسب الوقت حتى حلول الشتاء، وجرنا الى الاصقاع الجبلية، عندئذ يهلك جيشنا بردا وجوعا).
دافع الاغا جعفر عن رأيه مجددا :

(جلالـة السـلطان، ماتسـميه هـروب من المواجهـة، اسـميه جنـوح للسـلم، والقـرآن الكـريم يؤكـد :(**فـان جنحـوا للسـلم، فـاجنح لها**). فحـدث صـمت مطبـق في الجلسة، واعاد الاغا الآية مترجمة للتركية).

لكن رأي الاغا جوبه بالرفض والاستنكار من قبل السلطان سليم، وكان على وشك ان يتهم بالتخاذل، لولا تدخل شيخ الطريقة البكتاشية الولي (**نامق اوغلو**)، الذي عرف كيف يمتص غضب السلطان.

وكلما اقتربنا من حدود الدولة الصفوية كلما ازدادت رسائل السلطان سليم الى الشاه شراسة. فمن ارضروم حيث توقفنا بعث السلطان برسالة قوية. اليكم النص الكامل لها:

(الى اسماعيل شاه الفرس: اخاطبك من ارضروم، حيث لم يبق على ملاقاتك سوى ايام، فهل تعرفني؟: انا زعيم وسلطان آل عثمان. انا سيد فرسان هذا الزمان، الجامع بين شجاعة افريدون، وعز الاسكندر، وعدل كسرى. انا الكاسر للاصنام، ومبيد لاعداء الاسلام. انا فزع الجبارين. انا المذل للملوك الجبابرة، وبيدي صولجان العزة والعظموت. انا الملك الهمام، السلطان سليم خان، ابن السلطان الاعظم بيازيد خان. اتنازل يازعيم الفرس، فاسير اليك، بعد ان افتى علماء الدين بوجوب قتلك، وتخليص الناس من شَرّكَ).

الاقسى من كلام السلطان سليم هو الهدية المرفقة بالرسالة: خرز، ورايات عتيقة، وكفوف فضية مقطوعة، وريش، وثياب ممزقة هزيلة، وضفائر، وعصا، ومسبحة طويلة. كل هذه الرموز ليعيره باصله الصوفي (**الدراويش**)، وانه ليس محاربا.

لقد استنكر الاغا جعفر هذه الرسالة استنكارا تاما، وكشف لي بشكل صريح عن رأيه بالسلطان:

(لقد خرج السلطان عن العرف، وهو يسيء الينا جميعا، اسمع ايها الفارس العربي، انت تفهم القرآن افضل منا، وتعرف فحوى الآية ((وان جنحوا للسلم فاجنح لها)). اعلم ان الفرس لايريدون القتال، سواء كان عن ضعف او رغبة في السلم،

وانهم مستعدون للانسحاب من الاراضي التي دخلوا اليها، وربما انهم اخلوها منذ شهور. ولاتوجد اية حيلة في انسحابهم.
این(علي افندي زنبيلي) شيخ الاسلام من كل هذا؟ اين مفتي الديار من آية السلم في القرآن: (**وان جنحوا للسلم فاجنح لها**)؟ لماذا لايخرجها بوجه السلطان؟ لماذا يصر على ملء اذن السلطان بآية الحرب:
(**واعدوا لهم ما استطعتم من رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم**).
لماذا يتركني شيخ الاسلام (زنبيلي) لوحدي اواجه السلطان، وهدره لدم المسلمين؟ الصفويون مسلمون مثلنا، ولا تنطبق عليهم آية المفتي. هل قطعنا كل هذه الفيافي من اجل اذلال ملك مسلم، وتعييره بلباس المتصوفين و الدراويش الذي هو لباس اجدادنا؟)
كان ردي هو الصمت، وعزوت كل ما قاله الاغا الى تأثير الخمرة التي اذابت الكثير من روحية القتال فيه. غمرني بنظرة ضائعة مشتتة، وقدم الي كأسا، لكني ابعدته برفق. قال وهو غائم العينين، متيبس الشفتين، بعيدا الى اقصى حد مني :
(**هل ستشي بي، ايها العربي؟**).
قلت: كيف يخطر هذا ببالك سيدي الاغا، ولكني اخاف عليك، انك كمن يعصي الاوامر في باطنه، وتخلط بين الخمرة و الحرب.
تركت الاغا يشرب لوحده، ورحت اتفقد جنودي. كانت معنوياتهم عالية جدا فقد مر بهم المفتي زنبيلي وصافحهم واحدا واحدا. وابلغهم ان الشاه وجنوده في حالة تراجع، وان رسائل السلطان الى الشاه أتت أكلها، وهو يتجرعها مثلما يتجرع السم.
ادرك الشاه الجاهزية العالية للسلطان وجيشه، فارسل مجددا بطلب الهدنة، وتجديد علاقات السلم والصداقة، التي قوبلت بالرفض، وقتل اثنين من الرسل، واعادة الرسول الثالث حاملا رسالة اعلان الحرب بشكل رسمي وباللغة التركية:
((**ان كنت رجلا فلاقني في الميدان، ولن نمل انتظارك**))

وقبل ان ينطلق رسول الشاه حاملا الرسالة المقتضبة وُضعَ في خرج فرسه صندوق مليء بالبسة نسائية، وعطور، ومكحلة، وملقط حواجب، وخيوط لنتف الشعر، وقوارير لحمرة الشفاه والخدود.

وصلت الهدية على عجل، وتم تفكيك شفرتها، فشعر القزلباش بمدى الاذلال في رسالة العثمانيين، فالحوا على الشاه اسماعيل بقبول التحدي، والتوجه الى جالديران.



وادي جالديران

بعد مئة وخمسين يوما من المسير وصلنا وادي جالديران حيث ينتظرنا الصفويون. رحنا نقترب منهم حتى اصبحت المسافة بيننا مئة وخمسين مترا. اصطف الجيشان قبالة بعضهما مثل مصارعين ينتظران اشارة من حكم لامرئي ليبدأ النزال. كنت اقف على رأس ثلاثة افواج في الصف الامامي، في منظر لم يألفه جنودي من قبل. كنا نرى العدو، وهو يرانا، ونسمعه ويسمعنا.

الفارق العددي بدا واضحا بين الجيشين. وحسب الاصول، بعد قليل سوف يلتقي في وسط الميدان قائد الجيش الصفوي قره مصطفى استاجلو بنظيره العثماني جعفر أغا، للتحقق من التزام الطرفين بقواعد الفروسية قبل بدء المعركة. في الحقيقة فان القائدين تجمعهما عقيدة صوفية واحدة، باسمين مختلفين. **استاجلو** هو زعيم طائفة (**القزلباش**)، و **جعفر أغا** زعيم طائفة(**البكتاش**). وكلاهما يحملان سيف علي، زوج فاطمة بنت النبي محمد.

المعسكر الصفوي: استاجلو خلع حزام سيفه (**سيف علي**)، وضعه على الارض، وتقدم الى وسط الميدان يرافقه اثنان من فرسانه.

المعسكر العثماني: جعفر أغا خلع سيفه (**سيف علي**) هو الآخر. وقف الاغا ينتظر خروجي من الميسرة و(احمد دوقاقين) من الميمنة لنرافقه. فتقدمنا الى وسط الميدان مجردين من اي سلاح.

التقا القائدان في وسط الميدان، وعانقا بعضهما، وراحا يتحققان من سريان قواعد الفروسية. طلب استاجلو تنحية المدفعية عن القتال فهم لايملكون مثلها، فوافق الاغا دون الرجوع الى السلطان. ثم استفسر استاجلو عنا: (من هؤلاء المرقطون، وما نوع اسلحتهم ؟)، فأجاب الاغا: (**انهم اللواء العراقي، وهذا قائدهم**) مشيرا الي، ثم اضاف (**جاؤا لصد قوات الجنرال كريم خرازي، التي تحمل نفس السلاح**)، فاستغرب استاجلو، ونفى وجود هذا الاسم (**كريم خرازي**) في جيشه. فالتفت الاغا الي وقد تبدل لون وجهه، ورمقني بنظرة خليط من الحيرة و الاستنكار، وعاد بنا شاقا طريقه بوجه متجهم الى مخيم السلطان. تحدث مع جلالته بطريقة لاتخلو من الاحباط، طالبا تجميد مشاركة لوائنا في المعركة، وتنحية المدفعية.

لقد شهدت احرج الدقائق في ذلك العصر. كان السلطان سليم على وشك اعدام الاغا في الميدان، غير ان المستشارين نصحوه بتأجيل الامر، خوفا من تمرد شامل. وكان ضبط النفس يشبه المعجزة السماوية، وقد تحقق بفضل حكمة الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) **سنان باشا**، الذي اوجد تسوية اعيد بموجبها فوجان من لوائنا الى الوراء، واطفأ حريق كاد يشب في قلب السلطان.

عاد جعفر اغا ليقود الجيش، واطلق عفريت الموت صافرته لبدء المعركة.

خلال دقائق، التحم مئة وعشرين الف مقاتل من الطرفين، في كتلة تطحن بعضها. لم اجد صفحات المعركة التي درسناها في الكلية العسكرية: لا تقدم، ولا انسحاب، لا دفاع، ولا هجوم مقابل. ليس هناك سوى الالتحام، الذي لايسمح بالمناورة.

في ساعتين انتهى كل شيء. الحرب التي مشينا اليها مئة وخمسين يوما انتهت. ما ان التحمنا بالعدو حتى غابت الانظار وتعذرت الرؤيا، واستحال الثعبان العثماني القرمزي الى وحش كاسر، فتح فكيه فالتهم الضبي الصفوي الاخضر. استطاع فوجنا المتقدم صد صولة القزلباش بقيادة انور بيك شاملو، واوقع فيهم خسائر جسيمة. وصد فوج الحماية خيولا فدائية استهدفت خيمة السلطان، وابادهم عن

بكرة ابيهم. حين فرغ الميدان الا من راياتنا. رأيت فرس السلطان وهي تتوجه الى وسط الميدان حاملة الراية الحمراء بهلالها الابيض، وهي ترفرف فوق عمامته. رأيت الغبار يهبط بطيئا على جثث القتلى. أمر السلطان بجمع الاسرى في ساحة المعركة، وفصل رؤوسهم عن اجسامهم، وفعل ذات الشيء في القتلى، وصنع من الرؤوس تلا بعلو قبة.

ورغم النصر العظيم، الا ان جعفر أغا واصل اعتراضاته، ونقده لبعض الاوامر التي صدرت للجيش، وعلى رأسها قطع رؤوس الاسرى والقتلى وصنع تلة منهم. لقد عبر الاغا عن اشمئزازه من هذا الفعل، واعتبره عملا مشينا يطفيء كل بريق النصر العسكري. وانتقد الاغا ايضا استخدام المدافع. كانت عقيدة القتال لدى الجيش الانكشاري هي استنكار المدفع عموما واستخدامه لاغراض محدودة تتعلق باقتحام القلاع، وليس للميدان المفتوح، ولم يكن معروفا لديهم استخدامه لقتل المحاربين. وتضاعف التذمر عندما كشف الميدان غياب سلاح المدفعية عند الصفويين، فقد كان حتى تلك الساعة اشبه بالسلاح المحرم. وكانت هذه العقيدة تجمع الانكشارية والقزلباش في نفس الوقت. وكان الطرفان ينظران الى الحرب كشكل من اشكال المصارعة، لها قواعدها وقوانينها التي لاتسمح الا بالتكافؤ. كشف لي الاغا عن وعد قطعه السلطان للشاه، بعدم استخدام المدافع، لكنه نكث بوعده. ماتبقى من ذلك اليوم هو الاكثر سوادا في تاريخ الصفويين:

قتل قره مصطفى استاجلو قائد القزلباش.

قتل عبدالباقي يزدي.

قتل حسين شاملو ، واخيه انور بيك.

قُتلَ سارو بيرا استاجلو.

تم أسر درمش خان شاملو، ونور علي خليفة.

المصيبة الكبرى هي وقوع بيروزة خانم في الأسر، وهي الزوجة الصغرى للشاه اسماعيل الصفوي.

بعد ان جرح في ذراعه، فر الشاه من ميدان المعركة، وانقذه من الأسر احد ضباطه (ميرزا سلطان علي). وصل الى علم السلطان سليم ان الشاه لجأ الى (خوي) فكلف احمد باشا دوقاقين بقيادة كتيبة الى هناك وتعقبه، وحين فشل في العثور عليه، امره بالصعود الى اردبيل للبحث عنه.

امر السلطان بالتقدم الى تبريز، فدخلناها يوم 6 سبتمبر 1514 م، وتم الاستيلاء على خزائن الشاه، وأسر الآلاف من اهلها، وتفريغها من تجارها وحرفييها، ولم نقبض على الشاه، فقد هرب مع ابنه الاكبر طهماسب وبقية اهله جنوبا. ثم أمر السلطان بالسير الى اصفهان، غير ان الاغوات رفضوا ذلك، وكان جعفر أغا على رأس الرافضين. استشار السلطان الصدر الاعظم (سنان باشا) ومفتي الديار (علي افندي زنبيلي) في قطع رؤوس التمرد، فنصحاه بالتريث حتى قطف ثمار النصر كاملة، والعودة الى ادرنة.

في تبريز اقام السلطان مأدبة للاحتفال بالنصر، ودعي للحضور الاذرع البارزة التي صنعت النصر. اُعلنَ عن حضوري. رفعت ركبتي حتى لامست حنكي، وهبطت بها على بلاط القصر في تحية عسكرية عراقية وضعت فيها كل فرحي بالنصر وولائي لعظمة السلطان. التحية التي قدمتها لجلالة السلطان قطعت سيل التهاني وكلمات النصر التي كان يتبادلها الحاضرون، واحدثت دويا في قبة القصر، وشررا في الرخام، فكبر الحضور، ونزل السلطان من عرشه ليستقبلني، ويجلسني قريبا منه.

وفي وسط الاحتفال حدث امر غير متوقع، فقد وصل وفد من الشاه اسماعيل، محملا بالهدايا الثمينة الى جلالة السلطان، طالبا الصلح، والافراج عن زوجته بهروزه خانم، فأمر السلطان باحضارها. دخلت سيدة عليها نقاب، وملفعة بالسواد، و تسير بخطوات متثاقلة كأنها سجين محكوم بالاعدام. طلب منها الحاجب ازاحة الخمار، فخطف نورها عيون الحاضرين، وبدت كأنها فص من الزبرجد تحيطه

هالة من الليل الدامس، وقد اضاف الحزن الثقيل مزيدا من البهاء والعلو اليها. التفت السلطان الي وقدم لي هدية لم تكن بالبال ابدا:
(قم ايها الفارس العربي، وافتح ذراعيك لتأخذ نصيبك: بيروزة خانم. انها لك. هذا أقل ما يمكنني فعله من أجلك مقابل الموقف البطولي والجهد الذي بذلته في السفر معنا طوال هذا الطريق).
ونادى على مفتي الديار الشيخ (علي افندي زنبيلي)، جعل منه مأذونا شرعيا، وأمره ان يعقد زواجي عليها، ومنحه نصف الهدايا المرسلة من الشاه اجرا. اما الوفد الشاهنشاهي فقد ارسلوا الى سجن اماسيا ليواصلوا ذهولهم.
★★★

الى: السيد الرئيس صدام حسين (حفظه الله)

من: هشام الخوصر

اكتب اليكم من تبريز، وانا ازف اليكم بشرى النصر.
لقد حانت الساعة المناسبة لتقديم هديتكم الى جلالة السلطان سليم الاول. كيف خمنتم سيدي، ان المسدس اعظم مايهدى لذلك العصر؟! ازحت الورق فظهر الصندوق الخشبي، محفورا فيه اهداؤكم بالذهب والمينا. فتحته امام عينيه، فرأيتهما تشعان بالغبطة والدهشة، مثل طفل يرى لعبته المفضلة. لقد عرفه على الفور، ونطق اسمه بالتركية (**طبنجة**). هتفت بوجه السلطان:(نعم، مولاي السلطان، طبنجة).طلبت من المترجم ان يتلو امام السلطان الايضاح الذي ارفقتموه :(**مسدس طارق**، انتاج منشأة حطين للتصنيع العسكري__العراق ... يعمل بقوة الغاز، ونابض الارجاع ... الرصاصة اسرع من رمشة العين. في المدى القاتل تكفي رصاصة واحدة للاجهاز على فيل .. **هدية من صدام حسين الى سليم الاول**).
اخرجه بحنو، وامسك به من قبضته كأنه جناح فراشة. طبع قبلة على فوهته. كان يحمل فكرة جيدة عن المسدس، ويحتفظ في خزانته على نوع بدائي بزناد يليق بذلك العصر. نادى على حاجبه. وضع الصندق بين يديه وامره ان يدور به

على الحاضرين، فصعدت الينا كلمات الاعجاب والتهاني. السلطان الذي خلع عليه الانجليز لقب (**سليم العبوس**) كان في ذروة مزاجه في تلك الساعة، فقد شعت اساريره، وارتفع شاربه حتى لامس الخال الذي يتوسط خده، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة لا مجال لأنكارها. دار السلطان حاملا هديتكم سيدي، سعيدا وفخورا، مر على الحاضرين. شرح لهم كيف تعمل(الطبنجة)، سلاح الروم الجديد، وقارن بين المسدس والسهم.

سحب السلطان سليم الاول رصاصة من الصندوق، حدق بها مليا كأنه يحدق بنجمة من نجوم السماء. اختفت الابتسامة اليتيمة. وخرجت من فمه جملة احدثت صمتا مطبقا في الديوان:

((هل ترون هذا الجزء، (مشيرا الى طلقة الرصاصة)، انها تشبه نواة التمر في الشكل، لكن جوهرها صلب كالحديد. بعد قليل سوف تدخل رأسا مضطربا يحمل اوجاعا لتريحه الى الابد))

تحدث عن انفجار البارود، والسرعة الفائقة التي تخرج بها الطلقة، تاركا في كل واحد منهم شعورا انها ستدخل رأسه. وحين اكتملت اركان الرعب، اشار الى الحاجب بكفه، فادخل جعفر اغا حاسر الرأس، لايملك سوى ضفائره، مجردا من سيف علي، مكتوف اليدين، ومهزوما الى ابعد الحدود.

قال السلطان مخاطبا جعفر اغا:

(لاشك اني احببتك كما احبك ابي، يا جعفر. ذراعك يعجبني تماما، ولكن قلبك لم يعد كما كان، ولا رأسك ايضا. سوف اداويك بعقار من عصر بعيد. سوف تموت واقفا ايها الفارس الشجاع. تعال الي يا جعفر، اريدك ان تتقدم الى الموت بنفسك، كما كنت على الدوام).

فتقدم جعفر أغا برأس مرفوع وعينين سابحتين في فلك بعيد، فقبله السلطان، وقبل هو بدوره خد السلطان. كان السلطان يعرف تماما آلية عمل (الطبنجة)، يعرف كيف يسحب الطلقة، يعرف انه حين يضغط على الزناد فان المطرقة سوف تسقط ضاربة الكبسولة في موضع محدد فينفجر البارود. يعرف ان طلقة

واحـدة تـكفي لقتـل فيل. كـان السـلطان الاعظم يعـرف بـالغريزة كيـف تعمـل الطبنجة. وكان يعرف ايضا كيف يلقي درسـا في عواقب عصيان الاوامر. كـان الـدرس بليغـا، مؤلفـا من صـوت واحـد يبـدأ وينتهى في نفس اللحظة. دوت الطلقـة فاحدثت صمتا مطبقا في الديوان. حاولت دمعة ان تنزل لكن العين اغلقت الجفن لتقطع وجه جعفراغا الذي ظل واقفا لثوان وقد فار الدم من جبينه، قبل ان تخرج روحه ويفقد توازنه، ويتهاوى على بلاط المرمر. سحب السلطان سيفه، وناولني اياه، وأمرني بقطع عنقه قائلا:

(ياهشام، اني امنحك شرف حز عنق اعظم القادة في هذا العصر، وباعظم السيوف قاطبة، سيف ابي وجدي محمد الفاتح).

قلت: (هل تظن انني قادر على ذلك؟)

فقال السلطان: (السيف هو الذي يقطع، اما الذراع فليست سوى جسر بين السـيف والقلب).

ادركت الى اين يـرمي السـلطان. رفعت السـيف بكلتـا يـدي، فقـد كـان ثقيلا. صعدت قبضته فوق جبيني، وطرفه وراء ظهري، وانزلته على العنق المفتوح مثل وجه الصبح، وكانت ضربة واحدة، وجدت رأس الاغا جعفر يتدحرج تحت قدمي السلطان .

★★★

سيدي الرئيس

في نفس اليـوم تم تحديـد موعـد لمراسـيم الـزواج (زواجي من بـيروزة خـانم) في ارضـروم، وامـر السـلطان لي بقصـر هنـاك، وجعلـني قائـدا لحاميـة شـرق الاناضـول. وكلفني بملاحقة الهراطقة وقنصهم، وهي مهمة تشبه حرب العصابات. نحتاج فيهـا سـيدي الى المزيـد من الـذخيرة. الطلقـات الـتي معنـا تكـاد تنفذ. نحن بانتظـار امركم سيدي الرئيس.

★★★

دين الكراهية

في واحدة من تلك الليالي الخمرية الخالدة، كنا(حسن وأنا)نحاول ان نعثر على اللذة الفائقة للسيد الرئيس صدام حسين. كنا نتساءل بعفوية ودون احقاد عن الفضاء الذي يجد فيه السيد الرئيس ذاته. متى يشعر بمنتهى السعادة؟ متى يشعر بمنتهى الامتلاء بذاته؟ وضعنا في الكأس كمية كبيرة من الخمرة المحلية (العرق). صعد من قعر الكأس رأس ثعبان، بفم مفتوح ولسان مشطور وجسم زيتوني مرقط يتراقص وسط حليب الخمرة. تحدث الثعبان الينا مثل اي كهل حكيم. قال اننا نسأل عن لذة لايمكن ان ندرك جوهرها: لذة الكراهية. لذة السم حين يتغلغل في اللسان، حين يكون جزءا من الجسد والروح معا. قال ان الخمرة لا توصلنا، بل تبعدنا. مهما شربنا فلن نصل الى معرفة لذة الكراهية. الخمرة هي الطريق المعاكس. سوفٍ احدثكم عن جوهر السم او السيد الرئيس لافرق. السيد الرئيس لم يعد قادرا على العيش بدون أعداء، وانه احد المبشرين لدين الكراهية. هذا الدين يلزم المؤمن أن يجد شريكا يتبادل معه الكراهية باستمرار. شريك يضع فيه كل العيوب ويصب عليه كل اللعنات ويثقف نفسه ومن حوله أن الكراهية والغربة والعداوة والنبذ والحرب هي جوهر العدالة. الحياة غير مكتملة بدون عدو نتبادل معه الكراهية يوميا. إذا لم يكن العدو موجودا، فيمكن صنعه تمامًا مثل صنع الآلهة القديمة من الطين. هذا الدين مغر ومناسب للغرائز. كان لا بد من الضرب باستمرار ضد كل ما هو مخالف لدين الكراهية مثل العناصر التالية: الحب، الموسيقى، الهشاشة، السلام، الخمر، الضعف، دور الخادم. لقد أظهر الرئيس صدام في أكثر من مناسبة استعداده الفوري للكراهية.

في مكان آخر من العالم، كان هناك زعيم يدعى **الخميني** يحمل هو الآخر سما. كان لابد أن يحدث الاتصال. عندما عرض الخميني على صدام رباط الكراهية وافق الأخير على الفور. وكانت وسائل الإعلام حاضرة ونقلت كلام كل منها:

الخميني ، مخاطبًا صدام: (هل تتفضل، سيدي الرئيس، أن تكون عدوي، حتى نتبادل الكراهية لأطول فترة ممكنة)

أجاب صدام: (نعم حضرة المرشد الأعلى، بكل سرور، وأعدك بأنني سأكرهك حتى آخر دقيقة من حياتي).

بين عشية وضحاها ، برز الفرس في قائمة أعداء العراق. أنتج الصخب الثوري الإيراني فائضا للاستهلاك المحلي، وكان لابد من البحث عن أسواق للتخلص منه. تحولت طهران إلى سوق جملة (مخزن للشعارات الثورية). كل يوم جمعة تصطف الشاحنات وسط العاصمة وتحمل أطنانا من الشعارات للتصدير إلى الدول المجاورة. تم خنق زرادشت إلى الأبد، وخنق الإرث الصوفي القديم لبلاد فارس.

ظهرت على السطح عقيدة تقوم على الكراهية وتمني الموت للآخر. لم تستغرق عملية البحث عن العدو زمنا طويلا، سفينة الكراهية وجدت الميناء.

يتكون الدين الإيراني الجديد من ثلاثة أعداء يراد لهم الموت. هذا الدين يتمنى حاليا الموت، لكنه لو امتلك ادواته فلن يتردد في تنفيذه:

(الموت لأمريكا ، الموت لإسرائيل ، الموت لصدام).

تحرك الشعار الثالث (الموت لصدام) باتجاه الجانب الغربي لإيران وتوقف عند الحدود العراقية لتفريغ الحمولة. ومن هناك سيتم نقل الشعارات بواسطة مهربين مدربين تدريبا خاصًا. تغيرت إيران بالكامل. لم تعد أرض زرادشت، الخمر، الموسيقى، التصوف، والعشق. هناك سلعة جديدة تقوم على الكراهية سيتم تهريبها الى الجيران. ردا على تدفق البضائع الإيرانية المهربة، فقد تحرك الجيش العراقي اربعة عشر قرنا عكس عقرب الساعة ليجد نفسه الوريث الشرعي لتلك القبائل الصحراوية التي انطلقت من قلب شبه الجزيرة العربية لتحطيم عرش كسرى. كان دين الكراهية يتسابق مع الزمن. قاد الرئيس العراقي نفسه قطار الكراهية إلى محطة خالية من الحس الدبلوماسي.



البحث عن يعقوب بن اسحق

دخل السيد الرئيس دون سابق انذار على قاعة المؤتمر. الجلسة الختامية للحملة الوطنية لمكافحة الذباب. المؤتمرون يعدون ورقة بالتوصيات الى القيادة. دخول الرئيس الفجائي قطع برنامج المؤتمر. الدكتور عزت مصطفى، وزير الصحة ورئيس المؤتمر، اخلى مكانه للرئيس. المؤتمر ينقل حيا عبر شاشة التلفزيون. الرئيس في اطلالة جديدة، لم يعد مدنيا ببدلة زرقاء، بل بزي عسكري يحمل على كتفيه اثقل رتبة في الجيش، نسر وثلاثة نجوم وسيفين مع شريط احمر يمثل الكلية الحربية (الاركان) التي لم تطأها قدمه طيلة حياته. راجع الرئيس مسودة التوصيات، وخلاصة المؤتمر(لا ذباب بعد اليوم) فوجد انها تتطلب اضافة حشرتين اخريين ليصبح العدد ثلاثة. اقترح الرئيس اضافة الفرس واليهود الى قائمة الحشرات التي يتوجب مكافحتها. تغير هدف وبرنامج المؤتمر كليا. الرئيس لايمزح، ولايعرف الكلام المجازي. يقول البعض ان الرئيس كان واقعا تحت تأثير خاله ومربيه ووالد زوجته الحاج خير الله طلفاح. اصدر الرئيس توجيهاته بتأجيل القضاء على الذباب لحين القضاء على الفرس واليهود، وبدل استيراد مبيدات القضاء على الذباب وتوزيعه على المواطنين، سوف يتم التعبئة العامة وشراء البنادق وتوزيعها على الموظفين وطلاب المدارس. تطلع الرئيس في الوجوه ومسح بنظرة واحدة اربعمئة زوج من الآذان والاعين للاطباء والمرشدين الزراعيين وموظفي وزارات الصحة ، الزراعة، و البلديات، وانعطف بشكل سافر ليحاسب الله على خطيئة ارتكبها عند الخلق:

(ماكان على الله ان يخلق ثلاث: الفرس واليهود والذباب).

وكان على المؤتمرين ان يضعوا هذا السلم من الاحتقار نصب اعينهم، وليفهموا ان ورقة العمل التي اتفقوا عليها لم تعد صالحة، وان يتقبلوا ضمنيا المساواة بين امتين من الجنس البشري والذباب.

غير ان الاكتفاء بالشتائم ليس هو الطقس الاخير لديانة الكراهية. سوف يتكفل السيد الرئيس بمعالجة الخطأ الالهي، وسيبدأ من الفرس. اخرج من جيبه ورقة عتيقة كان قد وقعها للشاه في الجزائر عام 1975، ومزقها امام انظار المؤتمرين ووسائل الاعلام المحلية والعالمية، ثم اخرج ولاعة وسيجار كوبي واشعل نار الحرب. بدل مكائن رش المبيدات للذباب التي طلبها المؤتمرون، وصلت شاحنة تحمل اربعمئة مسدس ومثلها من البدلات العسكرية. كاميرات التلفزيون تتنقل بين الكروش والافخاذ العارية لكبار موظفي الدولة وهم يخلعون ملابسهم المدنية ليرتدوا الزي العسكري، ويطوقوا خصورهم باحزمة النسر ومسدسات (توكاريف) الجيكية.

في الكأس التالية رفعنا نخب اليهود، شعب الله المختار، الذي اختارهم السيد الرئيس ليكونوا الشريك الثاني في ديانة الكراهية. واجهنا معضلة فقهية: على الاحوط ، هناك اكثر من زعيم عربي او مسلم ينازع رئيسنا على كراهية اليهود.

من سيفوز بلقب العدو الاول لليهود، من يتربع على القمة؟

كنا (حسن وانا) نقترب من فكرة الجماهير، فكرة الزبل الوطني، ثقافة القطيع والمستنقعات الراكدة. فلكي ترفعك الجماهير على اكتافها عليك اولا ان تكره اليهود؟ بامكان اي لص او قاطع طريق او قاتل وضيع ان يكون زعيما في الشرق الاوسط بكلمة واحدة. يبدو ان المزاوجة والاقتران باليهود (معاداة اليهود) هو اسهل الطرق لقيادة الجماهير. من هنا بدأنا (حسن وانا) نقترب من فكرة الجماهير او الجموع. الجماهير هي تعبير آخر عن العمى، هي الغباء الجمعي، هي الدفاع المستميت عن الجهل وحقه في العيش الى جانب المعرفة. الجماهير هي الحق في الغباء، هي الرفض لسلطة الاذكياء والناجحين. ولكي

تقود الجماهير عليك ان تختار اكثر الناس نجاحا لتعاديه. وهل يوجد على الارض من هو اكثر نجاحا من اليهود؟

جرب النازيون الاقتران باليهود فاحرقوا منهم مليونين، والآن يريد الايرانيون الزواج منهم والاستئثار بحق ازالتهم من هذا العالم. اما رئيسنا فيشكك في مصداقية الجميع، ويصرح جازما ان لا احد يتفوق عليه في كراهيته لليهود. لقيت تصريحاته تأييدا مطلقا من قبل الفصائل الفلسطينية التي تؤمن بان كراهية اليهود هي شيء غريزي، زرعه الله في جسم الانسان. وكان من المنطقي ان يقف رجال الدين الى جانب هذه (الفطرة)، وان تخلط مع حليب الاطفال الرضع، وتستنشق مع الهواء، وتصبح جزءا من: التغذية المدرسية، و(الثوابت الوطنية) للجماهير . **وكانت الصورة الخلاعية المفضلة للاستمناء العربي هي رمي اليهود في البحر، والتفرج عليهم وهم يصارعون الامواج واسماك القرش.** غير ان تحقيق هذا الحلم كان يواجه عقبة تقنية تتمثل في ازالة درعهم النووي، اذ لم يعودوا لقمة سائغة مثل اسلافهم في صدر الاسلام: بنو قريضة وبنو النضير، ويهود خيبر. العالم تغير. حسن بلاسم العائد من هولندا تغير ايضا. مع كل كأس جديدة كان يزداد تفاؤلا وثقة بهذا العصر. يقول لي: المانيا تشعر بالعار، وتعتذر يوميا لليهود. الغرب غير مستعد لرؤية هولوكوست جديدة. وهناك من يراقب المغامرين والمستهترين. شربنا نخب تلك النفوس السامية التي تحرس هذه الارض، وتجعلها صالحة للعيش. كانت باص ابي الخشبية تتوسع لكل هؤلاء العظماء.

الرئيس العراقي يفكر جديا في ازالة اليهود من هذا الكوكب. كان لابد من الانضمام الى النادي النووي حتى لو في السر، فبدأ الرئيس بفتح خط مع الفرنسيين لبناء مفاعل نووي (للاغراض السلمية جدا جدا، طبعا). وقد لمس النوويون الفرنسيون عن قرب مفرط مدى عشق السيد الرئيس للسلم، والاستعداد لدفع ثمنه (كاش). كان الامل معقود على عمدة باريس الذي يعد نفسه لمعركة الرئاسة. واثمرت الصداقة بين العمدة والرئيس الى تجهيز مفاعل سوف

يتم تفجيره قبل تحميله من ميناء طولون، لكن ذلك لم يوقف الحلم المشروع. واستطاعت فرنسا برئاسة شيراك ان تسلم العراق مفاعلا نوويا من نوع (اوسيريز) مع الخبراء اللازمين لتشغيله ل (**الاغراض السلمية جدا جدا**)، ومعه مئة كيلوغراما من اليورانيوم، وبكلفة 3 مليار دولار، ودون سيطرة او موافقة وكالة الطاقة الذرية. هذه المليارت تحولت الى دخان خلال اربعين دقيقة فقط هو الزمن الذي استغرقه عزف المقطوعة الموسيقية (**الاوبرا**) الاسرائيلية في 7 حزيران 1981م. في هذا اليوم انطلق من سيناء سرب من المقاتلات وعبرت الاراضي السعودية، ثم حامت حول مفاعل تموز (جنوب بغداد) ودمرته بالكامل، وعادت دون ان يصيبها اذى. احدثت الغارة الاسرائلية صدمة لاتقل عن نكسة حزيران 1967. كانت صفعة اليمة لعقها السيد الرئيس بكفه. خرج بعد سنين وهو يحمل بذات الكف مكثف شحنات من صنع محلي، يقوم بوظيفة ال (صاعق)، قال انه مفتاح السلاح الكيمياوي المزدوج الذي سيحرق به نصف اسرائيل، فرد الاسرائيليون في نفس اليوم طالبين تحديد النصف الذي سيحرقه كي يضعوا المطافي اللازمة. كان واضحا ان تلك النكتة الرفيعة المستوى قد وضعت لتؤكد الاحتفال بنجاح الغارة. وقد بدا ان مفاعل (تموز) قد تبخر تماما. ولم يبق سوى حرقة القلب وضياع المال. اضيفت شحنة جديدة الى مخزون الكراهية، وتجاوز المرجل درجة الغليان، فلجأ الرئيس الى عمق التاريخ بناءا على نصيحة (بسعر قريب من سعر المفاعل النووي) من قبل جهات يصعب تحديد هويتها.

نصحوه بترك هذا العصر، و التوغل في التاريخ، واجتثاث جذور اليهود من هناك.

كان لابد من وضع قناع لتغطية فكرة ابادة اليهود من الجذور، وجعله سريا للغاية. مشروع (**اعادة كتابة التاريخ**) هو المفتاح. لابد اولا من التحقق التام من اصل اليهود قبل الشروع بابادتهم، فقد كان هناك اختلاف كبير حول هذا الموضوع. عند هذه المرحلة من عمر المشروع صعد الحاج **خير الله طلفاح** خال السيد الرئيس ووالد زوجته ومربيه، ليكون رئيسا للجنة. رغم هذا التبدل الا ان اعضاء اللجنة واصلوا عملهم الاكاديمي، دون ان يدركوا بوجود هدف غير معلن. لقد

تواصلت النقاشات الحادة وتبادل وجهات النظر. حين بدأت اللجنة الجديدة عملها وجدت امامها اختلافات متعددة الجوانب: في المحور الاول (جذر اليهود) كان الخلاف يشمل: الاصل، والزمان، والمكان. الاصل توزع بين الكنعانيين والمصريين و اليمانيين. اما الاختلاف في الازمنة فوصل الى ثمانمئة سنة ، وبين الامكنة الى اكثر من الف كيلومتر.

هذا الملف ادى الى انقسام لجنة كتابة التاريخ الى فريقين:

الفريق الاركيولوجي:

صالح احمد العلي، فاروق عمر فوزي، حسين أمين، حسين علي محفوظ، طه باقر، احمد سوسة، مصطفى النجار، عبد العزيز الدوري، وبهنام ابو الصوف.

الفريق التوراتي:

الحاج خيرالله طلفاح، نجم الدين الواعظ، عبدالرزاق الحسني، محمد بهجت الاثري، محمد حسنين هيكل (مصر)، مصطفى محمود (مصر)، متولي الشعراوي (مصر)، هلال ناجي، وعبد الحميد العلوجي.

...

رأي الفريق التوراتي:

بموجب التوراة يتكون شعب إسرائيل من اثني عشر قبيلة هم ابناء يعقوب:

(روبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، و ياساكر، وزفولون، ودان، وجاد، ونفثالي، وعشير، ويوسف، وبنيامين).

وهؤلاء هم العبرانيين الذين سكنوا كنعان (الخليل حاليا)في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم هاجروا الى مصر على اثر مجاعة، وعاشوا عبيدا لاربعمئة عام، وخرج منهم موسى (من قبيلة لاوي)، فحررهم من العبودية، واعادهم الى موطنهم الاصلي في كنعان، كما ورد في (سفر الخروج).

...

رأي الفريق الاركيولوجي:

يظهر علم الآثار رواية مختلفة عن التوراة في تحديد أصل اليهود، فهم من الناحية الاركيولوجية اقوام نزحت من الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام، ولا يوجد دليل آثاري للخروج من مصر، أو رحلة الأربعين عامًا في صحراء سيناء. ولم يهاجروا ابعد من العراق القديم ، وتحديدا: بابل وسومر ونينوى، وهم سكان العراق فعلا قبل الفتح العربي، وهناك معبد الكفل في بابل، والعزير في سومر، ومعبدي شيت ويونس في نينوى. سرجون الاكدي هو ابن غير شرعي لامرأة بابلية، كانت تمنح جسدها لكهنة المعبد في بابل، وقد ولدت سرجون، وخافت من الفضيحة، فوضعته في مهد، وتركته في نهر الفرات، فالتقطه ملك بابل ورباه في قصره. نشأ سرجون كأمير بابلي. اما يهود السبي البابلي فقد التقطوا هذه القصة(ضمن قصص اخرى من تراث بابل) ووضعوها في شخصية موسى.

كان الفريق الاركيولوجي، وللامانة، قد دخل الى هذا المشروع لاهداف اكاديمية بحتة، ودون اي علم بالنوايا المبيتة، سواء كانت سابقة او لاحقة. حتى ان الدكتور احمد سوسة، وهو يهودي عراقي، كان يطرح آرائه داخل اللجنة دون تردد، ودون ان يعلم انه يمهد الطريق لمشروع اجتثاث اجداده، الذي ينتهي نظريا باختفائه. والحقيقة ان كثيرا من المعلومات تغيب في اللحظة التي تم فيها انقسام اللجنة الى فريقين. تحولت اللجنة من كتابة التاريخ الى تغييره. وحين بدأت الشكوك اصبح الوضع محرجا تماما. كان من الصعب اتخاذ مواقف صريحة من هذا العمل، بسبب الخوف من غضب الرئيس طبعا. الاعذار تباينت في قوتها، وتطلبت قدرا من التمويه لدرء الخطر. البعض تحجج بالمرض. البعض جلسوا في بيوتهم بعد ان طلبوا التقاعد. استغل الدكتور احمد العلي احد المؤتمرات فهرب الى بريطانيا، وقد نجحنا في الاتصال به، فاكد لنا عدم علمه بمشروع (ابادة اليهود)، وان سبب الانسحاب هو تحول المشروع من كتابة التاريخ الى تزييفه. لقي موضوع خروج اليهود من مصر (سفر الخروج) سخرية واضحة من الفريق

الاركيولوجي. ينكر الفريق وجود هذا الحادثة في التاريخ، ويعتبرها واحدة من اكبر خرافات اليهود.

بهنام ابو الصوف: (ان اعتماد التوراة يعرض مشروعنا العلمي الى الانحدار، اذ لايوجد اي دليل علمي يثبت ما يدعيه الكهنة في سفر الخروج، بل ان موسى نفسه ليس سوى اسطورة، وقد يكون قائدا مصريا فرعونيا).

هنا يعترض الحاج خيرالله بغضب ويطلب من الدكتور بهنام ان يكون حذرا في استخدام مفرداته:

(ماتقوله، يا بهنام، مرفوض جملة وتفصيلا، موسى هو نبي، وقد ذكر في القرآن **136** مرة، وخروج بني اسرائيل من مصر هو حقيقة مذكورة في القرآن، هل نسيت هذه الآية !:

((يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم، وواعدناكم جانب الطور الايمن، ونزلنا عليكم المن والسلوى))،

الا اذا كنت لا تعترف بما جاء في القرآن.

وجد بهنام ابو الصوف نفسه في مواجهة خطرة مع خال الرئيس، فصمت ولم يتفوه بكلمة واحدة بعد ذلك. الفريق الاركيولوجي باكمله اكتفى بالصمت. القرآن على الطاولة حسم الجدال. بعد اشهار البطاقة الحمراء (القرآن)، لم يعد للاركيولوجيون رأي، ويخيل الي انهم باتوا يتوجسون شيئا ابعد من عمل اللجنة، وتظاهر بعضهم بالحماس خوفا من المجهول.

من هذه الساعة سوف يمسك الفريق التوراتي زمام اللجنة، ويصبح القرار التاريخي بيده الحل بيده. لتلافي كل الاختلافات التاريخية سوف يتم اجتثاث اليهود عبر الذهاب الى نقطة بعيدة في تاريخهم، الى الجذر.

بعد تغليب الرأي التوراتي في اصل اليهود، مالت الكفة نحو المقترح التالي:

(يجب تصفية يعقوب بن اسحاق واولاده).

لقد حسم الحاج خيرالله هذا الموضوع بنفسه، صادق على وقائع الجلسة، ورفع توصياته الى السيد الرئيس لاتخاذ القرار النهائي، وتنسيب الجهة التي تتولى تنفيذ هذه المهمة.

فيما يلي ملخص شديد لمجموعة كبيرة من الوثائق حاولنا تكثيفها في اسطر قليلة تسلط ضوءا قويا على البرنامج العراقي لابادة اليهود، والذي يحلو لنا ان نسميه (**الهولوكوست العابرة للزمان**) لتوكيد طبيعته، حيث يتلخص، كما ذكرنا، بالعودة الى الماضي البعيد والبحث عن اصل اليهود لابادتهم. ربما يسألني البعض عن علاقة اليهود بموضوع الكتاب هذا؟ الجواب سهل، ذلك ان زوج اختي العقيد هشام هو الذي سيكلف بتنفيذ البرنامج.



الحملة العسكرية لتصفية يعقوب واولاده

الزمان: **2760** ق.م

المكان: الخليل (بلاد كنعان).

الكلفة: **2** مليار $

في هذه الحملة، قاد العقيد هشام الخوصر فوجا من القوات الخاصة، بقصد البحث عن يعقوب بن اسحاق (جد اليهود) وتصفيته هو وابنائه. اعتمدت اللجنة السنة العبرية مع تواريخ مشتركة توراتية وقرآنية، في تحديد المكان والزمان الذي سوف يسافر اليه العقيد وفوجه. بموجب ذلك سافرت القوات عكس عقرب الساعة، حتى وصلت الى سنة 2760 قبل الميلاد، ونزلت في بلاد كنعان، وتحديدا الى بلدة الخليل. امر العقيد هشام بتطويق البلدة. اجرى جردا باسماء جميع من فيها من الذكور، فظهر ان هناك خمسة اشخاص يحملون اسم يعقوب، امر باعتقالهم، وفتح محضرا للتحقيق معهم: اسماءهم، واسماء ابائهم، ابنائهم امهاتهم، طفولتهم. صباهم، الحوادث المميزة في حياتهم. وجه اليهم اسئلة متعددة. بعد

سلسلة طويلة من عمليات الفرز والتحري حامت شكوكه حول مزارع له سبعة اولاد من زوجتين، ثلاثة منهم يحملون اسماء يوسف، اشعيا، وناحوم. وضعه في غرفة منفصلة واجرى معه تحقيقا معمقا. سأله العقيد: هل سبق ان عاش في منطقة حران، اجاب نعم. سأله العقيد ان كان جده قد احترق يوما، او شبت فيه النيران فلم يحترق فقال، نعم سيدي، لقد سمعت بمثل هذا من اهلي، فقد روى لي ابي ان النيران شبت في ثياب جدي وهو صغير، فمطرت الدنيا مطرا شديدا واطفأته. سأله العقيد ان كان قد دخل يوما في مصارعة مع ملاك او شبح او جن. اجاب الفلاح: نعم، كنت في صباي اتصارع كثيرا، لكني توقفت عن هذه العادة، لقد كبرت.

سأله العقيد ان كان له اخ، اجاب نعم. سأله العقيد ان كان قد اختلف مع اخيه حول الميراث، اجاب نعم. اخيرا سأله العقيد:

هل حاول جدك ذبح ابيك بالسكين يوما؟

فقال الفلاح: نعم، لقد سمعت من اهلي ان جدي قد جن في اواخر عمره، فصار يحلم كثيرا، تتراءى له اشياء كثيرة، ويسمع اصواتا كثيرة تطرق اذنه، وكاد فعلا يذبح ابي بالسكين، لولا جارنا راعي الغنم الذي تدخل في الوقت المناسب، واعطى جدي شاة من عنده ليذبحها، فانقذ ابي. عند هذا الحد اكتفى العقيد، بعد ان اصبح متيقنا ان الفلاح الذي امامه هو يعقوب ابن اسحق ابن ابراهيم، وان الاختلافات الطفيفة في الرواية تعود الى عمليات النقل والزمن . عندئذ قرر اعدامه مع كافة ابنائه.

قدم العقيد تقريره الى اللجنة، وانتظر الجميع ان تكون هذه هي الخاتمة، حيث سيختفي اليهود تماما من سطح الكوكب. لكن لم يحدث اي شيء من هذا، لقد وضع العقيد طلقتان في رأس الفلاح، وتولى مساعدوه قتل ابنائه السبعة وزوجته. لكن لم يحدث اي شيء، فقد واصل اليهود وجودهم، وسط احباط شديد خيم على اعضاء اللجنة المشرفة على مشروع ابادة اليهود. فسرت اللجنة هذا الفشل بان الفلاح لم يكن يعقوب النبي، وان التحقيقات التي اجراها العقيد لم تكن كافية.



ونحن نختم هذه الفصل، لايسعنا سوى تقديم العزاء الى اختي رضية، بسبب العمر الذي ضاع في انتظار العقيد. اما حسن وانا فقد كانت مرارتنا من نوع مختلف. حين انتهينا من قراءة هذه الوثائق كانت الكأس التي شربناها لها طعم قيء السلحفاة، وقفنا طويلا عند فاتورة هذا اللعب الباهض التكاليف: (2) مليار دولار. لقد سبب هذا المشروع وامثاله تفريغ خزينة البلاد من العملة الصعبة. اعترف(عصام الملة حويش) محافظ البنك المركزي العراقي لاحقا، بان رصيد البنك من العملة الصعبة قبل سقوط النظام بلغ 90 مليون دولار فقط.



معركة النبيذ

731-733 م

(هـذا الفصـل يمثـل مسـارا آخـر لمعركـة بلاط الشـهداء (بواتيه)، الـتي وقعت بحدود عام 732 ميلادي في بلاد الغال (فرنسا حاليا)، بين المسلمين بقيادة عبد الـرحمن الغـافقي، ضـد جيش شـارل مارتل. العقيـد هشـام الخوصـر ذهب الى تلـك المعركـة، بواسـطة السـفر عـبر الزمـان، لأسـناد جيش المسـلمين، وتغيـير مسـار المعركـة، بناءا على أوامر من القائد العام للقوات المسلحة في العراق)

في واحدة من اصعب التنقيبات، وجدنا العقيد في بلاد الغال (فرنسا حاليا)، عثرنا على اوراق ملطخـة بالنبيـذ الشـاردوني. اظهـرت الوثـائق ان العقيـد كـان مبعوثـا لتحطيم جـرار النبيـذ او تحـريم (**المنكر**) كمـا في الشـريعة الاسـلامية. هـذه الكلمـة (المنكـر) تعـني بالعربيـة الشـيء القـبيح او المنبـوذ. وجـدنا انفسـنا امـام معركـة (**بلاط الشهداء**)، لم يتفق عليها المؤرخون زمانيا، اذ توجد ثلاثة تـواريخ (731 م، 732 م، 733 م). المؤرخون لم يتفقوا ايضا على التسمية، المسلمون يطلقـون عليها (بلاط الشهداء)، بينما يسميها الغربيون (**بواتيه**) او (**تور**).

كيف اصبح هدف العقيد هشام هو محاربة النبيذ؟

صعدت الى السطح (الحملة الايمانية) التي اعلنها السيد الـرئيس صدام حسـين في اوائل التسعينات. الحملة تهدف الى العودة الى الـدين (الاسـلام) كحـل لمشـاكل البلاد المتفاقمة في زمن الحصار الدولي. وجدنا انفسنا نطوف في بغداد منتصـف

1993. تم غلق مصانع الكحول وتحويل عمالها الى وظائف اخرى. تم اغلاق الحياة الليلية في بغداد، وحظر بيع الكحول وعوقب السكارى بالسجن. رسميا قررت الدولة شتم الكحول علنا. نصبت وسط بغداد لوحة عملاقة كتب عليها:

((**لعن الله شاربها، وحاملها، وساقيها، وصانعها، وبائعها**)).

هذه اللعنة تشمل طيفا واسعا من الناس يمتد من شارب الكحول، مرورا بسائق الشاحنة الذي ينقلها، النادل في الحانة، العامل في المصنع، وانتهاءا بمديرة المبيعات في الاسواق المركزية. سمحت الدولة بتعليق كل النعوت المسيئة للكحول في الشوارع والساحات العامة،وكذلك واجهات الابنية الرسمية. القرآن والسنة اصبحت مادة الثقافة العامة، والصلاة بديلا عن الرياضة المدرسية. ورغم شحة الموارد المالية الا ان بلدوزرات وزارة الاسكان ازاحت مضمار سباق الخيل في وسط بغداد ووضعت ركائز اضخم مسجد في العالم (مسجد الرحمن).

في تلافيف تلك الوثائق عثرنا على شعرة فسحبناها بأناة. وحين تتبعنا جذرها وصلنا الى شارب العقيد. رأيناه يمسك بشاربه ويقسم امام السيد الرئيس (ان يقدم نفسه قربانا من اجل النهي عن المنكر). وقد ظهر لاحقا ان (**المنكر**) هو **الاسم الشرعي للنبيذ الفرنسي**، وكانت معركة(بلاط الشهداء) هي المناسبة الكبرى. في تلك الحقبة الصعبة تم ارسال العقيد هشام الى بلاد الغال (فرنسا) لنجدة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي وتغيير مسار معركة (بلاط الشهداء).

هناك فراغ معلوماتي كبير للأسف، لم نتمكن من ملئه.

كيف واين ومتى بالضبط حصل تكليف العقيد بهذه المهمة؟

هناك وثيقة صادرة في عام 1994 تشير الى ان العقيد خضع لفحص الدم فظهر ان جسده خال من اي اثر للخمرة. لم تدخل قطرة واحدة من الكحول في جسمه طول حياته. هذه النقاوة او الصحو المطلق قد تكون وراء هذا الاختيار. جنود الحملة، البالغ عددهم 12 الف، خضعوا ايضا لنفس الفحص.

هناك ثلاثة مصادر غربية سوف نعتمدها لمتابعة المسار الجديد لمعركة بلاط الشهداء (بواتيه).

1− ادوارد جيبون Edward Gibbon، مؤرخ.

2− هربيرت جوزيف Herbert Joseph، مؤرخ النبيذ.

3− بيتر ماكلين Peter McLean، اركيولوجيا النبيذ.

ونظرا لتداخل الازمنة الشديد في هذا الفصل، نرجو من القارئ ان يكون صبورا معنا. سوف نلجأ الى اقصى درجات الاضاءة والتكثيف. اننا نحاول عرض فكرة عسيرة جدا على الهظم.



ادوارد جيبون (Edward Gibbon)

المؤرخ الانجليزي كان فزعا من النسخة الجديدة لمعركة (بواتيه)، التي اطلق عليها (**معركة النبيذ**). كان عليه ان يعيد كتابة تاريخ اوربا من جديد. قذف ذعره في عدد كبير من الاوراق، حاولنا اختزالها بالقدر الممكن.

حين غربت الشمس اكتمل هبوط لواء المغاوير العراقي في **بلاد الغال** (فرنسا حاليا). نظم العقيد هشام صفوفه. في ظلمة الغابات الكثيفة زحف ببنادقه ليكون في ميمنة الجيش العربي الاسلامي بقيادة **عبد الرحمن الغافقي**. المقاومة الفرنسية تألفت من فلاحون عزل، اياد ادمنت زراعة الكروم. انهال الرصاص على جيش من الفؤوس والمعاول واغصان الشجر. فوجيء الفلاحون بالزخم المعادي وغرابة السلاح. كانوا يتساقطون دون ان يمسهم سيف او نبل او رمح، ولا يعرفون من اين تأتيهم تلك السهام الغير مرئية.

اصبحت جرار النبيذ كمائن، دون جدوى. وخرج جيش من السكارى لمواجهة الغافقي والعقيد. يحملون النبيذ بيد وبالأخرى فؤوسا. لا احد يعرف ماذا حل بشارل مارتل في تلك المواجهات. اشيع ان اله الخمر **باخوس** هو الذي يقود جيش الفرنجة، وانه نفخ في معصرة **دير سنت مارتن**، فصارت تنتج نبيذا لصد غارات المسلمين، حين يشربه المزارع يتحول الى مقاتل لايمكن قهره. تزاحم الفلاحون على الدير في طابور طويل، يتناولون نصيبهم من النبيذ من يد القس، ثم يحملون

معـاولهم وسـكاكينهم وفؤوسـهم ليواصلوا التصـدي للغـزاة. كـاد جيش النبيـذ المدافع عن دير سنت مارتن ان يهزم المسلمين لولا الاحاطة التي قام بها الفوج الثالث من لواء المغاوير العراقي. حصلت مجزرة مشتركة فقد كان من الصعب فصل السيوف المتحاربة عن بعضها. العقيد قتل عددا كبيرا من الطرفين. يقول الكهنة ان القديس مارتن تصدى بنفسه الى بنادق وسيوف المسلمين، فسقط شهيدا على مشارف ديره، ومات للمرة الثانية. الاله باخوس فشل في انقاذ بلاد الغال من السقوط بيد المسلمين. ابيد السكارى عن بكرة ابيهم، وتفتت جند **شارل مارتل** بين غابات الكرم، كل وقع في معصرة عنب (شاتو)، وتحول البطل الفرنجي الى مستجير ببيوت المزارعين. القى المحاربون الفرنجة بسلاحهم بعد ان اكل الجوع وجوههم، فراحوا يمدون ايديهم طالبين الخبز، فتحول دير سانت مارتن الى مركز لتجمعهم والبكاء عليهم. ولقد نالوا عطفا مضاعفا من المؤمنين اذ راح كل منهم يقتطع جزءا من ردائه ورغيف خبزه ويتقاسمه معهم. اما شارل مارتل فقد بقي لوحده تطارده بنادق العقيد. حين هده التعب احتمى بشجيرة عنب، فانهال عليه الرصاص من كل جانب، ولقي حتفه. فتقدم احد قادة الغافقي وقطع رأسه ووضعه على رمح وسار به من بواتيه الى بوردو. لقد نجح المسلمون في مسعاهم. نهضت ديوك الصحو قبل شروق الشمس ، لتعلن عن اله لا ينام، اقرب من حبل الوريد، يتجسس على الافئدة، ويحاسب على كل لحظة انعتاق، ويعدنا بسلاسل يكوي بها جباهنا ان غفونا، او نسينا، او تمايلنا طربا، وبدل المحبة، يطلب منا ان نجهز الخيل لنرهب (عدو الله)، الذي لم يكن سوى فلاح طولوز الاعزل. وبموجب هذا النص وصلت خيل الله اقطانيا وبورغونديا وسهل اللوار، وفرضت مزاجه الصحراوي. ازاحت الخيول الاسلامية مصنع النبيذ لتبني فوقها مئذنة، مزودة بديوك تصيح في الليل والنهار، باسم آله لاينام ابدا. سوف تنضم بلاد الغال الى تلك القارة المنزوعة النبيذ والعشق والموسيقى والسكر، والمبتلاة بالقسوة والجدب. اندفع المسلمون شمالاوغربا، عبروا بالقوارب الى الجزر البريطانية وعينوا واليا عليها. لقد ازاحت سيوف الغافقي و البنادق العراقية قلاع اوربا

وكنائسها وزرعت المآذن والمدارس الفقهية الاسلامية. صار طلاب اوكسفورد يدرسون القرآن بدل ميكانيك نيوتن، كتاب البخاري بدل شكسبير، التداوي بالتميمة بدل اسبرين ادوارد ستون، والنقل بالابل بدل قطار جيمس واط.
بنادق تحريم الكحول (المنكر) تستعد لغزو بقية الجزر البريطانية. بدأ الناس يتجمعون لحماية قلاع الويسكي السكوتلندي، وبيرة غينيس، والجن الايرلندي، والنبيذ الانجليزي. الامر ميئوس منه، فزخم المسلمين وقدرتهم التدميرية اكبر من صناع الكحول. ومن المحتمل ان يتواطأ الاقطاع حفاظا على وجوده.
وفي احدى الاوراق رأينا دمعة ادوارد جيبون، وبكائه على اطلال بلده. لقد فقد مزاياه كمؤرخ، وصار يتحدث مثل شخصية شكسبيرية غارقة في التراجيديا.



هربيرت جوزيف Herbert Joseph

بعد نجاح التدخل العراقي في بواتيه، فتح مؤرخ النبيذ **هربيرت جوزيف** كتابه (اطلس النبيذ)، خاطب صناع النبيذ في العالم قائلا:
كما ترون هناك فراغ شاسع في خارطة الارض خال من البهجة، ونحن مضطرون لاستخدام كافة الوسائل البصرية والبلاغية لاظهار حجمه. هذه المنطقة تسمى (بلاد الاسلام)، تمتد من المغرب الى الباكستان. هذا الرقعة الجغرافية الشاسعة خالية من النبيذ منذ اربعة عشر قرنا. هذه المساحة من الصحو والقسوة والجفاف الصحراوي عبرت جبال البرانس وقضت على مملكة النبيذ على هذا الكوكب، وشيدت مكانها المآذن التي تدعو لتحريم الكحول ، الذي تصفه بكلمة (المنكر). لاشك انكم لاتفهمون البلاغة العربية بحذافيرها، ولذلك يفوتكم الكثير من فضاعتها. (المنكر) ايها السادة هو النبيذ. هو اجمل ما تصنعون، وربما كل ماتحبونه في هذه الحياة. هناك لعنة صممها فقهاء المسلمين لكم، تمسح نشاطكم اليومي. حين يصف رجال الدين المسلمون النبيذ يقولون: (لعن

الله شاربها، وساقيها، وصانعها، وبائعها، وحاملها) . الضمير (ها) يعود الى النبيذ طبعا، اما من يشربها، ومن يقدمها، ومن يصنعها، ومن يبيعها فهو انتم. الملعونون هو انتم . اللعنات تضعكم مباشرة امام قيمتكم الحقيقية في اعين المسلمين. اللعنة هنا كونية، فرجال الدين لم يكتفوا بشتمكم امام الناس، بل صعدوا الى السماء واجبروا الله على وضع ختمه على تلك اللعنة. انت ملعون يا كلود مويت، وانت يا فيليب دي روتشيلد، انت وكل صناع النبيذ في بوردو وبورغونديا وطولون. كلكم ملعونون ومعكم زبائنكم والعاملين معكم، وانتم يا مزارعي كليفورنيا تشملكم مكرمة الفقهاء المسلمين. يا سادتي انتم ملعونون من المغرب الى حدود الباكستان، ملعونون في ثلث الارض، والآن أضيف ثلث جديد، ولا يستطيع اي منكم ان يقدم نفسه هناك الا بوصفه صانع لشيء قبيح مكروه او (منكر) بلغة الاسلام. انتم ملعون ياكلود مويت حتى لو كنت مالكا لافضل شاتو، وافضل شامبانيا في العالم.

البلاد التي اجتاحها الغافقي والعقيد هشام، من طولوز حتى بواتيه، تنتج خمسة مليار جرة نبيذ سنويا، ولو لظمناها بسلسلة فسوف تدور حول الارض مرتين، وهو رقم يكفي البشرية ل بروست (**Cheers**) اممي بعد ازاحة العقائد الرثة المعرقلة لجريان نهر النبيذ. الفراغ الموحش في اطلس النبيذ يتوسع بعد عبور الذراع المسلم. سوف تمتليء سهول فرنسا وايطاليا بديوك الآذان والصحو والجدب لتكون صنوا لليبيا الخالية من البهجة وبادية الشام والربع الخالي. سيهجر اهلنا في بوردو عسلهم الشاردوني ليشربوا من بئر زمزم. لا اعرف من يتحمل هذه الكارثة ؟ لماذا تركنا هذا الجزء من الأرض ليبقى ميتاً لأربعة عشر قرناً؟ لماذا لم نمد ذراع النبيذ مثلما حفرنا قناة السويس، ومددنا الاسفلت وشاحنات النقل وترسانة السلاح لجيش مصر؟ لماذا بقينا نتفرج على الصحو اليومي، تصحر المعتقدات، وقسوة المزاج ؟ لماذا سمحنا لهم بشتم النبيذ علنا؟ لقد ذهب نابليون الى مصر فوجد الف مئذنة، كان معه كل انواع البنائين، فلماذا لم يبني هناك

الف مصنع نبيذ؟ انت يا كلود مويت، وانت يا فيليب روتشلد، لماذا لم تذهبا مع نابليون؟ هل يمكنكما ان تخبراني؟



بيتر ماكلين Peter McLean

استاذ حفريات النبيذ في جامعة بنسلفانيا. تذوق بلسانه قطرة نبيذ عمرها الف وثلاثمئة عام، عثر عليها في جرة مدفونة في الساحل الجنوبي الغربي لفرنسا، وعينات من الاوعية الخزفية المزينة بعناقيد العنب، وهياكل عظمية مازالت تتأبط دروعا وسيوفا عربية الطراز. تحدث عن ثقب في الارض يتفجر نبيذا احمر. ازاح عنه التراب فظهرت جثة بكامل قيافتها العسكرية تحيطها هالة من الجرار الطينية الصامتة كأنها تماثيل آلهة في معبد مهجور. وقد اختلط الجرح النازف من الذراع بالنبيذ المتدفق من جرة ترقد الى جانبه. كان قرص الهوية مايزال معلقا في رقبته، وسجل الوحدة العسكرية بكفه، والعصا في ابطه. مسح ماكلين قطرات النبيذ وقرأ اسمه ووحدته، جنديا ينتمي الى اللواء العراقي الذي قاده العقيد هشام الخوصر. وجد سيوفا وبنادق كلاشنيكوف مطمورة في حفرة واحدة، جزمات عسكرية وخوذ فولاذية الى جانب قلنسوات ودروع، اقواس وسهام الى جانب ذخيرة قناص، مدافع هاون ومنجنيق، عظام بشرية وجرار طين مغلقة باحكام. عثر على عظام و اقراص اخرى في شاتوهات طولوز وليون وسهل اللوار وبورغونديا وبواتيه. عثر ماكلين على منجم من الجرار الطينية (الامفوريات) القديمة. اتصل باحد المختبرات لفحص عينات منها. كانت النتائج مذهلة، فقد تبين ان عمرها لا يقل عن الف سنة. لقد الهبت تلك الاكتشافات الحماس، وعززت تنبؤات الاركولوجيين عن وجود مناجم للنبيذ في كل المناطق التي دخل اليها الاسلام في العالم وغير معتقداتها. الرهبان بالغوا في تضخيم همجية الغزاة المسلمين، فبثوا اشاعات في اقطانيا تفيد انهم لايكتفون بتحريم صناعة النبيذ، بل

يحرقوا الصانع، ويدمروا الجرار والادوات المستخدمة. وبفضل الاستثمار المجدي للهلع، فقد تم دفن القسم الاعظم من النبيذ ولقرون عديدة.

عثر **ماكلين** على الفين واربعمئة جرة (امفوريا) تحمل اسم شارل مارتل، واسماء الفرسان الذين حاربوا معه، واسماء لفلاحات تصدت بحزم وشجاعة للغزو.

وبدأت معالم الكنز تتوضح، فرسم خطا يربط كل الاديرة من طولوز الى سهل اللوار. تغلغل الحذر من المسلمين عميقا طالما ظلت جبال البرانس هي الحاجز الوحيد. وعلى مدار اكثر من ثلاثة قرون صار طمر كنوز الاديرة ومخزونها من النبيذ عملا يوازي العبادة. وصارالفرنجة ينامون بعين ويحرسون بالاخرى، ويشربون نصف النبيذ الذي يصنعونه ويدفنون النصف الآخر تحسبا لاية غارة. ويقدر الاركولوجيون احتياطي النبيذ المدفون في طولوز وحدها بثلاثة مليار برميل، لايقل عمر اية قطرة فيها عن سبعمئة عام.



الكأس الاخيرة

لم يعد التفسير الثنائي (حي، ميت) للجندي المفقود يكفي. مع توغلي في البحث بدأ الاطار يتوسع، وبدا لي ان الفقدان هو الحالة المثلى او الوضع الفائق (**Superposition**) للمحارب، والتي تجمع كل المصائر المحتملة الواقعة بين الحياة والموت. ارجو شد الاحزمة، والانتباه رجاءا، سوف ندخل الى مطب كبير.

قبل ان نعثر على الجندي المفقود يكون موجودا في كل مكان، ويحمل كل الخصائص المحتملة داخل قوسين، ولكن حالما نعثر عليه فسوف يفقد جميع الخصائص ويتخذ وضعا محددا: قتيل، أسير، جريح، معوق، تائه، اضافة الى حالات اخرى لم تكن بالبال.

المفقود هو محارب حامل لكل احتمالات الحرب، هو وجود هش، الى ان نعثر عليه فيتصلب. انه المحارب حينما يدخل في حالة السوبربوزشن(**Superposition**)، اي الوضع المثالي له. هذا الوعاء الرياضي الذي يحوي كل احتمالات العقيد: مكانه، زمانه، تحولاته، وقدرته على اطاعة الاوامر.

في ضوء ذلك علي ان اخوض غمار تلك الاحجية لأصل الى مصير زوج اختي. فلو وصلت الى قعر الوجود فسوف اجد كل شيء مختلفا، وسيكون العقيد موجود في كل مكان، بنسب معينة، او احتمالية معينة. ولن يتخذ له مكانا محددا الا في لحظة القبض عليه. هناك امكنة مفضلة، اي احتمالية الوجود عالية، مثل جالديران او بواتيه او شرق البصرة، وهناك مواضع وازمنة اقل احتمالا مثل معركة الزلاقة او الحروب الصليبية التي انيطت بضباط آخرين زملاء له. ويمكنني لو توفرت على جميع اخبار العقيد ان ارسم طيفا (سحابة) لمكانه على مدار التاريخ، غير ان مشروعي هذا سوف ينهار حالما اعثر على العقيد، وبالتعبير العلمي فان عيني تقوم

بتعطيــل قــانون الوجــود الشــامل: **انهيــار السوبربوزشن(Superposition Collapse**)، ويختفي تاريخ العقيد، فلا يبقى منه سوى احتمال واحد، هو ماتراه العين. وعلى هذا النحو يصبح العقيد نظيرا للاليكترون الذي حير الذريين عقودا، الى ان توصلوا الى تسوية ان الاليكترون موجود في كل مكان حول نواة الذرة، ولن نقبض عليه الا اذا فتحنا عليه عينا، اي سلطنا عليه ضوءا.

وما بحثي عن زوج اختي سوى محاولات لتعطيل الوجود الفائق بغية اختزاله الى حالة واحدة، بتعبير آخر: وضع ختم لمصير العقيد. لم يعد مغريا تقسيم الحكاية الى ممكن وغير ممكن. ولابد من الدق على ماهو مغلق. طرقت الباب فأتاني من ورائه صوت مموسق: كل مانرغب به يتحقق بشكل ما، الخصم الذي لايقهر يمكن جره من عالمه الى عالم آخر وتجريده من ارادته وقوته. لا اعرف بالضبط اين تجري عملية القصاص، قد يكون الخيال صورة باهتة لما يقع فعلا. احيانا تبدو النتائج فورية وواضحة، فتمارس خلخلة وتحديا لطريقتي في التفكير، كما يحدث في الاستمناء: هذا المثال الذي يصرخ بقوة لينبهني الى اعادة النظر في المفاهيم التقليدية السائدة. الاستمناء ليس عملا بيولوجيا فقط، انه لايشبه التبول او التعرق. الاستمناء هو ان تضاجع كل ماهو غير ممكن، هو التغلب على المستحيل. كلما اقتربت الرغبات من المستحيل كلما اصبح من الممكن الحصول عليها بطريقة مشابهة (استمنائية). فاذا تعذر الحصول على الطعام حد الموت جوعا، فسوف تتحول الجمجمة الى مطبخ متكامل ونتناول كل ما نشتيه. لا اعرف الى اية درجة ستقترب هذه الرغبات من الاصل. وهناك طيف من العالم الآخر (السوبربوزشن) رأيته بام عيني في جامع الكيلاني ببغداد، عندما وقفنا انا واختي رضية نتابع المتصوفين (الدراويش) وهم يدخلون السيوف في بطونهم دون قطرة دم واحدة، ويطلقون الرصاص على بعضهم دون ان يتساقطوا قتلى. قبضت على التفسير باسناني ورحت امضغه: مايحدث لاعلاقة له برجل الدين (عبد القادر الكيلاني). انه رجل دين حنبلي. في الواقع هو تاجر وصاحب عقارات، ولا علاقة له بالتصوف. ماكنت اشاهده انا واختي لاعلاقة له بهذا النصاب الفائق.

الدروايش انفسهم، الذين يقومون بهذه الاعمال الخارقة لايدركون السر. برأيي انهم عينة من عالم الغنوص، او الوضع الفائق (السوبربوزشن) بالتعبير العلمي. ماشاهدناه في جامع الكيلاني من خوارق هي السوبربوزشن نفسه، الذي يتحدى كل التفاسير. لايوجد خداع بصر. ماشاهدناه هو وجه من وجوه الانسان، انه احتمال من احتمالاته الدفينة، والتي تحتاج الى شروط خاصة كي تظهر.
شعرت بلذة لاحدود لها، وقلت لنفسي انني اقترب من العقيد وتحديد مصيره. لقد عشت حقبة طويلة وانا ابحث عن اليقين. الآن لابد من التخلي عن اليقين. **السير في العمى يوسع الطرقات، بينما العين المفتوحة تقلل الدروب**، وتقزم الوجود، وكل ما لايحدث امام العين يمكن ان يحدث لو اغمضناها. الكحول هي التقرب من العمى. لم تشرب رضية الكحول ارضاءا لدينها، ولكي تلتقي زوجها سلكت طريقا يمر بجامع الكيلاني، نسخة من الطريقة القادرية (نسبة الى عبد القادر الكيلاني). انني مضطر لاستخدام اسم هذا الدجال، حتى اجد الوقت المناسب لتعريته تماما. شربت اختي طريقته، وبتعبير ادق شربت قدرا من العمى، اي كل احتمالات الوجود، فدخلت في السوبربوزشن(Superposition)، اي الوضع الشامل للوجود. لقد كانت رضية طوال تلك السنين تسير بخطى حثيثة للالتحاق بالعقيد، لم تكن تبحث عنه فقط، بل تتماهى معه، وتحاول ان تكون (مفقودة) مثله، وتحمل قناعة راسخة ان كلاهما يبحثان عن بعض.وسوف تأتي اللحظة التي يلتقيان فيها. هذه الدالة تنهار حالما تفتح رضية عينيها، او يتبخر الكحول من جمجمتي.
طوال السنوات الماضية وانا احاول وضع ختم رسمي لمصير العقيد. هذه الطريقة في النظر اثبتت فشلها. هل اتقبل وجوده الرجراج، المبعثر، والمعزز بالوثائق، وبدلته المفرغة من اللحم، والحامض النووي، وكل الذين ابصروا الاقراش (اسماك الجرجور) وهي تفتح فمها، وتتجه اليه، ورسائله من الاناضول وسيناء وبواتيه. كنت ارى الامر اشبه بالمراوغة. والحقيقة ان العقيد لم يكن يراوغ، بل يصرخ بعلو صوته ان هناك اكثر من ختم رسمي. اصبح من الممكن شرب

الكاس الاخيرة. العقيد خرج من حالة الثبات، وعملية وضع نهاية له تشبه التقاط صورة لموجة من في البحر.العقيد حي وميت الى ان نفتح الصندوق المغلق. كلما عثرنا العقيد عليه يتجمد في الحالة التي هو فيها، لكن ما ان ننسحب حتى يعود الى حالة الوجود الشامل، فيكون موجودا في كل العوالم المحتملة. لا أستطيع فهم المعنى الشامل للوجود دون الانفصال عنه، بمعنى انني لا استطيع رؤية هذه الشمولية دون التخلص من المفردات التي وضعناها في لحظات معينة. بمعنى ادق اتخلص من فكرة المعرفة نفسها. كل المحاولات السابقة لحصر العقيد هي عمليات فاشلة ومحاولات لاتباع نفس المسار. العقيد ليس ميتاً ولا حيًا، ويجب أن أعترف بهذه الفكرة. لكي اقبض على العقيد لابد ان ابحث عنه بعيون مغمضة، وفي الظلام الدامس.

قبل تناول الكأس الاخيرة لابد ان اعيد النظر بما سبق. كان السوبرمان هو الانسان الاقوى كما يراه **نيتشه**، اما الآن فالانسان نفسه ليس مهما ان يكون قويا اوضعيفا، المهم هو الحالة التي يكون فيها. لاتوجد مزايا او مواهب خارقة للانسان، بل هناك درب او سر او طريقة متاحة للجميع. السر الاكبر هو(الوضع الفائق Superposition)، هو الضعف والقوة، وكل الاحتمالات الواقعة بينهما. هو نفي الاستحالة، واحتواء الشيء ونقيضه. هو الوجود الشامل.
هناك طرق عديدة للوصول الى الوضع الفائق (السوبربوزشن). في اليابان يستخدم (الكونغ فو) للوصول الى الانسان الفائق، الذي يحطم عشرين قرميدة (طابوقة) بضربة كف واحدة. الانسان الذي يحمل كفا فولاذية هو احتمال مختبأ داخل الانسان المعتاد، وهو يحتاج الى مجموعة شروط لظهوره. بامكان اي انسان ان يصل الى ذلك الفضاء بشرط ان يؤمن بوجوده. في الهند يستخدمون اليوغا، ليسيرون على النار، والمتصوفة عندنا يستخدمون النقر على الدفوف والابتهالات، لكي يتمكنوا من ادخال الخناجر في رؤوسهم وبطونهم دون ان تخرج منهم قطرة دم واحدة. وهناك من يدور حول نفسه مئتي مرة برأس مرفوع دون ان يفقد توازنه

(الطريقة المولوية). احيانا نصل الى السوبربوزشن من خلال كأس من الخمرة، من خلال سيجارة، كتابة قصيدة او رواية او تأليف قطعة موسيقية، البحث عن معادلة رياضية، مراقبة امواج البحر، او تأمل نجمة بعيدة. في كل تلك الحالا تجمع الذات المبعثرة لتصنع القوسين الذين يمثلان السوبربوزشن. بلا شك فان الجنون هو شريط غير منقطع من السوبربوزشن. اما الجرع العالية من السوبربوزشن (مثل تناول المخدرات) فتحمل في طياتها خطر القضاء على بعض العناصر المؤلفة للذات بعد كل عملية انهيار للوضع الفائق، اي خطر اختزال الذات. من المحتمل ان يكون مصير العقيد شبيه بالسوبربوزشن الخاص بالجنون، حيث يتعذر عودته الى اي شكل محدد. العقيد لايمكن ان يكون حي ولاميت ولاشهيد ولا أسير ولا جريح ولا ... ولا ... ألخ. العقيد هو مجموعة معارك داخل قوسين يمتدان على طول تاريخ الحروب، انه محارب في وضع فائق. يستطيع العقيد ان يشارك في اية حرب يختارها، وفي اية زمان واي مكان. احيانا يبدو العقيد صورة لعقل السيد الرئيس صدام حسين. انه يمثل حالة الارتباط معه بموجب اطروحة الترابط (**Entanglement**)، فكل ما مايشغل الرئيس من حروب في البال يتسرب الى ذهن العقيد هشام.

رضية ياشقيقة الروح والدم، اشعر انك اصبحت على مقربة من الوضع الذي فيه زوجك. انت تذهبين الى الوضع الفائق بطرق متعددة، انت تسكرين بحضوره الغامض، وقد دخل نقر الدفوف في خلاياك. انت تسيرين قدما نحو مصيره. نحو التعددية في الوجود، نحو الغياب اللذيذ. السوبربوزشن هو الحالة الشمولية للأنسان، حيث تتنفس جميع احتمالاتك. قد تكونين قادرة على الطيران او السير بسرعة الضوء لاختراق الزمان. معظم الانبياء تتلبسهم هذه الفكرة. قد لاتحتاجين بعد الآن الى الطعام مثل النجوم، او خارج حالة الفناء مثل المادة. لقد فلت زوجك من أسر الزمان، ليحارب في كل العصور.

في الوضع الفائق لايوجد حق وباطل. السوبربوزشن هو كل الاطراف. هو الجمع بين النقيضين. لو واصلت جنونك يا شقيقتي فسوف ترين ان الجنون هو المدى الكلي للوجود كأنه العيش في كل الازمنة. ولو بقينا نتابع العقيد فقد نجده لاحقا معكوسا، يقاتل في الاتجاه المعاكس، يقاتل مع شارل مارتل ضد العرب المسلمين، او نجده في نسخة اخرى من معركة جالديران، يقاتل مع الفرس ضد سليم الاول. العقيد يقاتل خصائصه في ازمنة لاحقه، مثل دورة الحياة وتحولاتها. كل مافيه من اوجه وخيارات واحتمالات تتنفس مرة واحدة. العقيد قائدا في الفيلق العراقي الثالث، وقائدا للهاربين من الحرب، وفي ذات الوقت قائدا للفرقة التي ستبيدهم. يتفق مع جنرال ايراني على انقلاب مزدوج، كل يطيح بطاغيته. يزحف العقيد الى بغداد، وخرازي الى طهران، وفي ذات الوقت سوف نراهما يشتبكان في شرق البصرة ليقضي كل منهما على الآخر. العقيد قائد المؤامرة ومحبطها، والاسير المزدوج، مرة في ايران ومرة في العراق. العقيد هو الضابط، الذي طوق الرئيس عنقه بوسام الرافدين، وهو ذاته الراكع عند ركبتي آية الله الخميني لينزع من رقبته ذلك الوسام، ويضع كفه المقدسة فوق رأسه.

انها الشمولية، هذه الكلمة قد تكون هي السر، ان تعيش الوضع الفائق (السوبربوزشن). السوبربوزشن يشبه حالة السكر، او الشرود الذهني، او غياب من نوع ما عن الوعي. قد يكون الجنون هو المظهر الامثل للسوبربوزشن، ولكني احتاج الى مغامرة للتحقق من ذلك. احتاج ان استقل مركب الجنون واعبر البحر في ذروة العاصفة. الكحول الذي اشربه يدفعني الى الغوص في البحر. الاشارات التي تردني في حالة السكر تقول لي ان العيش في زمن آخر يشبه الى حد ما لحظة الغرق، او رؤية الموت. بعد الكأس تتصاعد حمى الوجود الفائق، يسري دبيب التيار الروحي، وهسهسة المجهول.

كنت غارقا في دوامة هذه الالغاز، فلم انتبه الى تيار الانحدار وهو يأخذ اختي. رحت اعيد النظر في الليالي الخوالي، وفي الساعات التي اتصاعد فيها مخمورا،

كانت رضية تحلق ايضا، تخرج من البيت وتسير في الشوارع على غير هدى، ولا تعود الا بعد ان يكون قد هدها التعب والجوع، وحين اسألها اين كنت؟ اسمع منها اجوبة غامضة مثل: كنت ابحث عن نفسي.

تحدث اشياء غريبة في بيت اختي. في المطبخ يختفي الحساء ومعه ذيل السمكة المقلية. تفتش رضية عن الهر الذي يدخل دون استئذان. تعد رضية حبات البطاطا فتجدها ناقصة، تعمل فخا ، تحاول ان تمسك بالهر من ذيله. من جهتي ازيح الستارة فابصر هر مرقطا بالوان القوات الخاصة. يتقلب الحيوان الجائع، مرة على اربع، ومرة على قدمين. ترمي رضية له رأس السمكة، تحاول استدراجه للدخول، تتوسل به ان يبقى، ان يشاركها الطعام. تطارده في الحديقة. يفلت ذيل القط من اصابعها، يترك رسالة بحجم ريشة الطائر مكتوب عليها (لابد ان التحق الى وحدتي، لقد صدرت الاوامر). فتعود رضية بكف مغلقة . اسألها مابك؟ تقول انه في الحديقة. اتطلع في الحديقة فلا أرى سوى هر مرقط. تضع رضية رسالته في كفي، فتحدث رجة في داخلي. ثم سرعان ما تختفي الكتابة، ولا ارى بكفي سوى ريشة صغيرة.

يحوم القط المرقط حول البيت. تترك له خبزا على عتبة الباب، يتناوله بحذر، ولا يجرؤ على الاقتراب. تسألني رضية: الا تراه؟ علي ان اسكب في جوفي كأسا ثقيلا كي ارى ما تراه اختي. تنتقل الى الشرفة، تطلب منه ان يعبر السياج. انا اسمع صوتا يتردد في المنزل : بيني وبينك بحر من الموج والزمن. تحاول ان تذكره بكلمة قالها يوما فنبتت في عظامها: (**ضفيرتك عصا موسى**). ذلك اليوم المليء بالمعجزات، حيث سارا دون ان يبتلا بالماء، قبلها وهما واقفان في منتصف النهر، سكتت اجنحة النوارس وتنفست الاسماك هواء البشر، وغير النهر مجراه لثانيتين مروعتين. تتوسل اليه. اعب كأسا اخرى، فتنساب في داخلي لوعة رضية، من شرفة الدار تناديه، تطلب منه ان يتعلق ويصعد اليها:

سوف امد ضفيرتي اليك. قبلك كانت بكف امي، وحين اتيتَ صارت ضفيرتي ملك اصابعك، تفكها وتعقدها متى تشاء، شيء يشبه فك الاسرار. كان لي موعد

مع ومضة عينيك، وقارورة عطر ترش بها لهفتي، وكانت لي شهقة عذبة، وديك يصيح في اذني، فتتزاحم الفراشات في لحمي، وتصهل الخيول في عظامي. كان لي سلم من الرخام، تتسلقه بعنقك لتقبلني. قلادة عنقي دليلك الى الجنة، وطريق الحرير الذي تسير عليه شفتيك حتى تموت عطشا. انظرُ من النافذة الى صفاء الليل فلا ارى غير نجومك، ثم يطلع قوس جبينك وكتفيك، و ذراعيك، واسنانك البيضاء وهي تمزق الظلام . هذا المساء لك وحدك، قلت لي كلمة نبتت في عظامي: سوف ترثين اكتافي. النورس رآك تقبلني فتوقف عن نقر حبات الذرة، لسانه اصغر من ان ينطق، فراح يكلمني بعينيه ورقبته، ادى التحية العسكرية بجناحه، وسألني عن موعد ظهورك. رفعتك نجومك الى علو شاهق. متى اقدر ان المَسُكَ؟ انك بعيد. لم يبق لي مخالب لأمزق بها التقويم. متى تفك قيود ذاكرتي؟ كل شيء ثنائي، ومرتبط بك. انت الماء والعطش.

وضعت نجومه على كتفيها، وراحت تسير في طرقات المدينة. توقفت العربات وتجمد العابرون. كنت اراقبها من بعيد، أرى رجال الشرطة، واغصان الشجر، وعمال البناء، واسراب النوارس، الكل يعرفها، ويؤدي لها التحية العسكرية. خجلت ان تراني وراءها، فعدت، ورحت اعد الدقائق في انتظارها. اطل من نافذة الباص العتيقة، خائفا متوجسا من شيء لا اعرفه. لم اشعر بها حين عادت. صعدت الي، ووضعت آخر اطباقها على الطاولة، فسقطت جملة من فمها وراحت تتقلب مثل عملة معدنية بوجه واحد:

(انا ...... حامل)

لم اعد املك ما يكفي للصد، فسكبت ما تبقى من الزجاجة في جوفي، و تركت الخمرة تقرر كل شيء. قلبت الكلمات فلم اجد مخرجا. كل وجه يظهر ذات العبارة. ذهب عقلي في كل الاتجاهات.

(ممن انت حامل ؟)

اجابت بعينين غائمتين: انا حامل من هشام، وهل هناك غيره؟!

سألتها: اي هشام هذا؟ هل تقصدين الهر المرقط في الحديقة؟...
كنت احاول دفع ماتقوله اختي الى خانة الجنون..
قالت: مالك تتكلم عنه وكأنه عفريت، انا حامل من زوجي. ثم سكتت برهة، واضافت جملتها المعهودة: متى تكف عن عادتك؟ متى تنظر اليه بعيني؟
قالت انه من مدة ليست بعيدة يزورها، (يستتر بالظلام ويتركني قبيل شروق الشمس، غير انه كان يضع مسافة فاصلة بيني وبينه، محذرا اياي من الاقتراب كي لا تشملني العدوى فاصبح مثله، قلت له، انا زوجتك وحبيبتك، اريد ان المسك، قال اني اخاف عليك، قلت لا تخف، فقال: اغمضي عينيك وافتحي اذنك، ففعلت كما يريد، وهمس باذني حرفا مالحا موجعا بعيدا، بعيدا جدا، فتفتت جسدي، وارتعشت اصابعي، ودب الخدر في مفاصلي).
سكتت رضية وقد تهدل حاجبيها، ونزت بضعة حروف من بين اسنانها، ثم لم تحتمل لوعتي فاعطتني ظهرها. شعرت بدولاب يدور على غفلتي، ورحت اضع العراقيل امام التسليم بما سمعته. هل دخلت رضية في الغنوص ام الجنون؟ هل ذهبت ابعد من مناجاة زوجها؟ كنت ابحث طوال السنين الماضية على ما يجعل العقيد ميتا، واعول على عودة حسن بلاسم، وقلبه الذي مازال ينبض بحبها، اقول لنفسي سوف يشفيها من هذا العقيد، ويطفئه من مخيلتها.
الى اين تذهبين في هذه الساعة؟
قالت، وهي تضع شالا اسودا على كتفيها، وتتأبط جناحين بيضاوين لنورس عجوز:
اليوم امتحان دورة القوات الخاصة، سوف ينتظرني عند الجسر الحديدي ليهبط بضفيرتي دون ان يبتل بالماء.
هل اختارت رضية الجنون ؟ هل اختارت وضعا فائقا (سوبربوزشن) يسمح لها بتخطي الحواجز؟ هلوسات سمعية وبصرية، ديدان وهمية تسري تحت جلدها، نوبات من البهجة الغامضة يعقبها انكسار ثقيل. نصحنا الطبيب بمراجعة المستشفى لتلقي علاجا بالصدمة الكهربائية. في المستشفى وضعوا لها برنامجا

اسبوعيا. ولحقنا حسن بلاسم قائلا انه لن ينتظر ان يأتيه الجنون، بل سيذهب اليه بنفسه. وسيرافقها حتى الى الجحيم، ويطلب يدها للمرة المليون، فقلت له لم يحن وقت جنونك. هل ستتركني وحدي في قمة العقل الباردة؟

هذا اوان الدمع. منذ مقتل اخوته في الحرب لم يبك حسن على احد، رحل اهله وهو في الغربة ، فلم يبق له سوانا (انا واختي). وضع وجه رضية الذي يشبه ينبوع من الخمرة المعتقة، وراح يسكب كل ما ادخره من دموع في سنوات عمره. كان منظرها ينعش الروح ويفطر القلب، وكانت اذيال الجنون قد اضافت طوقا من الحمائم الحزينة الى محياها. هناك ما يمنعني من النظر الى بطنها وهي تكبر، اراقب فمها وهي تلتهم اكوام التراب بلا انقطاع. كانت رضية بلا معالم، موحشة، غبراء، تبكي بدموع من طين، وتنز لعابا بطعم المعدن، هل هي نوبة الجنون ام مضاعفات الحمل؟

الكأس تسألني: ماذا يفضل الأخ التوأم: الحمل ام الجنون؟ وايهما اقل رعبا؟

اغمضت عيني وأخذت رشفة، اختفى وجه الكحول، ثم عاد يتلألأ من جديد.

سألْتُ الكأس:

من لقح نخلة البيت العتيق؟ من أين اتاها غبار الطلع؟ من عبر سياج الفجر، هل كان هرا مرقطا، ام نداء خفي؟ خمرة مستفحلة، وانتفاخ في الجمجمة، حمل من طرف واحد يشبه الاستمناء؟

قرر حسن ان يعود الى رضية بزخم يوازي المحنة التي تعيشها، سوف يخطبها كل يوم، حتى تقبل به زوجا. حبه لرضية يشبه دوران القمر حول الارض، يشبه عاهة مستديمة، او جبل صخري. حسن يعول كثيرا على فقدان العقل، فهو اقصر الطرق للوصل الى الوضع الفائق (السوبربوزشن). سوف يربط عنقه بضفيرتها، ويتبعها كمحب ابدي.

تشبه الكأس الاخيرة الجلوس مع الرب في طاولة واحدة. هو الساقي وهو الأذن الكبرى، وربما هو الكأس نفسه. قد تكون الكأس قاتلة. وضع ختم نهائي يشبه الحكم بالاعدام. هل اغلق هذا الملف ام اتركه مفتوحا على كل الازمنة

والامكنة ؟ حين رفعت الكأس الى فمي رأيت وجها مرسوما في صفحة الخمر. بذلت جهدي كي احتمل بريقه، وسطوته. رمى في وجهي كلماته فراحت تتردد في جدران جمجمتي:

لا توجد كأس اخيرة. النهاية فرضية لم تعد مغرية، وليدة الأرث، الكسل، المقولات المتروكة بلا تقليب، والأكلات الفكرية الجاهزة مثل: (لكل شيء نهاية). انك لم تجرب حتى الآن ان توسع المدى، تمط الزمن بلا حدود. لم تجرب ان تدخل السوبربوزشن(Superposition). مازلتَ اقرب الى الصحو، رغم براميل الخمرة التي شربتها. لو دخلتَ السوبربوزشن (الوضع الفائق) لاصبحت هشا تماما، وقبلت ان تكون رضية زوجة لرجلين: واحد للصحو وواحد للغياب. واحد لما قبل الصعقة الكهربائية، وواحد لما بعدها. زوج حين تغمض عينيها، وزوج حين تفتحهما. عندئذ سوف تصنع الخوارق. عليك ان تتقيأ الكثير من السوابق والثوابت والمسلمات، وتفتح نافذة لجميع الاحتمالات. قد تجد أوراقًا جديدة ، فتعلم ان لاتغلق اي ملف

★★★

لازالت هناك ترسبات الواحدية، ، والعمر قصير لسوء الحظ، ولابد ان أسير بسرعة فائقة لأمسح وجه الحقيقة الازلية. لابد ان اعترف للكأس اني مازلت حاملا لأرث عتيق، قيود لا اراها الا حين تلتف حول معصمي. كنت ادور حول العقيد لاضع ختما على لحمه، فاهملت اختي. رضية في حالة انحدار، فلا حسن ولا عشقه الرهيب نجح في جرها من حالة الضياع. تضع علبة السجائر في كفها وتسيح في الشوارع ، او على السدة الترابية. احيانا تغيب يوما او يومين. مرة نجدها عند قبور اهلي او سائرة على سكة حديد مهملة او غافية في احدى العربات الفارغة. كم بقي من عقلها؟ وكان حسن لايملك سوى دموعه، والشيب الذي غزا رموشه . كنا نجلس في الباص وجها لوجه ننتظر عودتها لتزيل صمتنا و صحونا البارد.

وجهك يا رضية يشبه موعدا مع الله ، بعينيك السوداوين مدفونة كل زنابق البر. من اين لي ان افك محنتك؟ من اين اتى العليق واشتبك بضفيرتك؟ من نافذة الباص

انتظر عودتك. انا خائف جدا. رضية ايتها التوأم الموجع، ايتها النائمة في الحيرة، هناك عضو قلق اسمه القلب، يخفق بلا هوادة.

ياشقيقتي، يا دواء العيون المطفأة، يا ارجوحة العمر، مازال العاشق الابدي يمسك بضفيرتك السوداء، الرمادية، البيضاء. عاشق في كل الاطوار ، يمسك بضفيرتك، ولايصل اليك. كيف تضبطين المسافة بين العشق والمستحيل؟ في كل لقاء بك يمتزج الدمع بالكبرياء. لم يبق فيك سوى عينان غائمتان، وثلاثة اوردة مليئة بالدخان. في رئتيك مئة حسرة، وجذر من الحنظل تحت اللسان. رضية ياسجن بلا قيد، يا ساعة التنفس. قبل ان تطلع الشمس تشرقين في فؤادي، ولاتغربين الا حين اغلق عيني. انت الكاس الاخير، انت الاتجاه الاوحد لي ولهذا التعيس الذي قبل بكل شيء، لا يعرف وطنا غيرك. انت بيت الطين. ايتها المتدلية مثل عنقود من الزمرد، ايتها اللفتة البليغة ، ياصرخة التين حين تنفجر حلاوته. عقيدك اكل عمري، ولفظني مثل نواة الخوخ. في الساعة التي ينطفيء فيها وجهي سيكون هناك وجهك، سوف تجدين صورتك في مقلتي. لا تذهبي بعيدا، اسبحي في الماء الضحل. اذهبي قليلا وارجعي كثيرا. يا رضية ايتها التائهة في الطرقات، نامت الحشرات، وارتفع منسوب الصحو برأسي، وجعي هائل وقدرتي ميتة، سوف يصعد الضبع لينام جنبي، ويتعلق الخفاش في اضلاعي. اطباقك تأخرت, رجاءا عودي، افتحي سر الخمر. رضية يا توأم الروح والجسد، يا غلطة واحدة اكلت ما مضى من العمر، ارجعي رضية لتبعثي الحياة في باص الخشب المهجور . بعد رشفتين سيبتلعني الكأس الأخير. أشعر أنني وصلت إلى القاع.

★★★

انتهت الرواية

2021-08-29 هولندا

محسن حنيص شوكت

..

…